السلطان الفاتح

فتح القسطنطينية 1453

أوقاي ترياقي أوغلو

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

السلطان الفاتح

فتح القسطنطينية

1453

رواية

أوقاي ترياقي أوغلو

OKAY TIRYAKIOĞLU

ترجمة

عبد القادر عبد اللي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

ISBN 978-614-02-0713-4
يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية
KUŞATMA 1453
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية
ضمن مشروع

TEDA by sponsered is Translation
Bakanligi Turizm ve Kultur . C . T
Mudurlugu Genel Yayimlar ve Kutuphaneler
ışŞ Say Eski) 4 : No ı Bulvar Cumhuriyet Mahallesi a Ş Pa Fevzi
(ı Binas tay
TURKEY / ANKARA / Ulus 06030
tedaproject . www : Web - tr . gov . kulturturizm @ teda : mail - e
com .

حقوق الترجمة العربية مرخ ّص بها قانوني ًا
بمقتضى الاتفاق الخطي الموق ّع مع الدار العربية للعلوم ناشرون ، ش . م
. ل .
i , AŞ Sanayi Ticaret Basim TIMAS © Copyright
www.timas.com.tr ,Türkiye stanbul I i 2010
. S . Inc , Publishers Scientific Arab by 2012 © Copyright Arabic
L . A

الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة ، شارع المفتي توفيق خالد ، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961
ص.ب : 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: www.asp.com.lb //:http

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية
أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة
أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

.

الفصل الأول
الباب المفتوح
على شتاء القسطنطينية

I

29 آذار 1432 - أدرنة

"تكتب سير الشعوب العظيمة في ثلاثة كتب: كتاب الأعمال، كتاب الأقوال، كتاب الفنون. ولا يُفهم أحد هذه الكتب من دون قراءة الكتابين الآخرين؛ ولكن الأهم بينها هو الكتاب الأخير".

جون روسكين

هطل في الليل مطر بارد، وغطت الأرض الطينية مترامية الأطراف طبقة ضباب كثيفة، ولفَّت المدينة غيوم من الشمال الغربي؛ فبدت وكأنها لوحة سميكة ذات ألوان داكنة. وخيّم على الطرق المبلطة الممتدة إلى القصر صمت غير مألوف. قبل انبلاج الفجر وُلد محمدٌ؛ الولد الثالث للسلطان مراد خان الثاني، وغُمر والداه وسكانُ القصر بالفرح بعد أن سهروا طيلة الليل وهم يتلون القرآن. بعد كلّ من صلاة الظهر والعصر ستعزف فرقة المهتران العسكرية موسيقى النوبة، وسيستمع جمع غفير من الناس على رأسه السلطان والوزراء وأهل القصر إلى الحفل الموسيقي؛ فالحضور مباح للجميع. وستقدم وليمة للناس في أثناء عروض المصارعة التي ستنظم داخل القصر في اليوم التالي، كما ستوزّع عليهم العطايا؛ جرياً على العادة.

وفي القصر الذي يقع غرب نهر طونا، كان الخدم من الزنوج الذين قُدّموا هدية إلى السلطان يتراكضون بصمت في الأقسام ذات الجدران الناتئة التي تقع على صف واحد، فيما تبادل الإنكشاريون المناوبة بوجوه باسمة ونظرات حادة تخفي خلفها قلقاً. فهم لا يريدون أن يرتكبوا أي خطأ، ولا أن ينغّصوا هذه الدقائق السعيدة على أحد. أمّا السعاة والفرسان المراسلون فقد تمّ إرسالهم لإيصال الخبر المبارك المتوقع مجتازين مسافات طويلة. وتبادل نخبة الطلبة في مدرسة القصر التهاني، فيما تحدّث الخدم في الداخل همساً لكي يتمكنوا من سماع الأوامر القادمة. أما الديوان العليّ فتحوم فيه اليوم سعادة وانفعال كسرا صمته العميق المألوف؛ فكبار رجال القصر ينتظرون تشريف السلطان. لذا، كانوا يرفعون رؤوسهم أحياناً من أجل تعديل قبعاتهم المخروطية؛ وكأن سلطان السلاطين بينهم، ثم يتبادلون النظرات وهم يبتسمون، ويتابعون أحاديثهم بصوت منخفض.

بدأ ضوء لهيب مصابيح الزيت المرتجف، وضوء النهار الشاحب ينتشران على طول الأقسام الواقعة على صف واحد، فيما الريح الباردة تعبث بالعشب المغمور باللونين الفيروزي والبنفسجي كيَدٍ فظّة، وتَعْبُرُ الممرات التي تعبق بالنوم لتصل إلى حيث يتواجد الصدر الأعظم محمد نظام الدين باشا الكبير

الذي بدأت ركبتاه في الأشهر الأخيرة تؤلمانه مما يجعله يشخر وهو يتنفس. يشعر القريبون منه أنه يعاني من شيء ما. وعلى الرغم من هذا، فهو يحضر المجلس مع الوزراء الآخرين ورجال الدين في ذلك العهد البارزين من دون أن يبدي لهم شيئاً ممّا يشعر به. غاص أرطغرل باشا في ذكرياته التي تنعش القلوب تحت تأثير يوم الحظ ذاك، وأخذ يحدث الجالس بجواره مباشرة عن تفاصيل حصار القسطنطينية عام 1422؛ تلك التفاصيل التي بدأت تتلاشى في مهب النسيان.

اقترب نظام الدين باشا من الموقد المشتعل أكثر؛ محاولاً أن يدفئ رجليه، وغير مبالٍ بقطرات العرق التي بدأت تظهر تحت قبعته المخروطية. نظر إلى ضياء النار المتأججة التي تُصدر شرراً بارقاً، وأطلق تنهيدة من الأعماق ناسياً أنه في الحضرة.

ثمة ما هو مختلفٌ؛ حسنُ طالع مختلف يستطيع الجميع أن يشعروا به في صميم أعماقهم؛ ولا يُحرم من الشعور بهذا إلا عاثر الحظ. هو أيضاً يدرك أن الأمير الجديد مختلفٌ عن الآخرين، ولكنه لا يستطيع منع نفسه من التفكير بحذر.

قال بنبرة صوت خالية من الحذر: "أتذكر عبارة لإبراهيم باشا تشاندارلي".

ليس هناك أحد غيره في الديوان يستطيع أن يتحدث بهذا الصوت المرتفع من دون استئذان.

"قال: كانت القسطنطينية تنتظر أحداً، ولكن هذا الأحد لم يكن نحن. وقد تمّ النظر إلى هذه العبارة حينها كما لو أنها كهانة، وأثرت كثيراً على الجنود".

قال أرطغرل باشا وهو ينظر بطرف عينه إلى الباب القريب من الموقد: "يجب تجنب العبارات التي قد تؤثر في الجنود بشكل سيّئ وتحطّم معنوياتهم؛ عبارات مثل هذه".

تابع نظام الدين باشا الكبير وكأنه يحدث نفسه: "هل يمكن صناعة مدافع تستطيع أن تفتح تلك الأسوار، وسفن تقاوم تيارات بحر مرمرة؟ فنحن لم نجد أمامنا قسطنطينية يمكننا أن نأخذها بغتة كما حدث مع أنريكو ضانضولو في الحملة الصليبية الرابعة عام ألف ومئتين وأربعة. ولكنني أثق أنّ قطع طريق المساعدات بطريقة ما، وتنفيذ حصار طويل يكفيان لجعل البيزنطيين الحريصين على راحتهم والمفرطين بالشعور بالثقة بالنفس ينهارون".

ضحك أرطغرل باشا، وبنبرة محملة بالألم قال: "حباً بالله، إنهم لا يُعتبرون جنوداً حقيقيين يا باشا. فالأيام التي كانت بيزنطية فيها إمبراطورية قوية

بقيت في الماضي البعيد. فقد غدت الإمبراطورية الكبيرة محدودة بحدود مدينة القسطنطينية وبعض القلاع على شواطئ مرمرة مثل قلعة سيلفري، وقصبات صغيرة مثل فيزة وميسيفري. كانت القسطنطينية مركزاً دينياً أكثر من كونها عاصمةَ إمبراطورية. وأباطرتها لا يختلفون عن الإقطاعيين الذين نفرض عليهم ضريبة الخراج في الغرب".

"لم تستعد المدينة غناها وقوتها بأي شكل بعد احتلالها من قِبَل اللاتينيين يا باشا، الحق معكم. ولكنْ، لم تكن ثمة أسوار حول غلاطة في ذلك الوقت كما هي الحال الآن. وكان البرج الذي يدافع عن جنـزير إغلاق خليج القرن الذهبي يقع على الشاطئ مباشرة، ولم تكن دفاعاتها قوية كما اعتقد البيزنطيون. لذا، سيطر الصليبيون على البرج أولاً، ثم أنزلوا الجنـزير، وأدخلوا أسطولهم إلى الخليج".

تحدث محمد باشا الكبير وهو يفرك ركبتيه: "ولو لم يترْك ذلك الجبان ألكسيوس أنجيلوس الثالث المدعو زوراً إمبراطوراً المدينة ويهرب مع ابنته، لكان كل شيء مختلفاً بالنسبة للقسطنطينية".

في تلك الأثناء، أعلن المنادي أن السلطان مراد خان الثاني على وشك الحضور.

جلس محمد نظام الدين باشا الكبير في مكانه بعد أن جلس بقية الوزراء في أمكنتهم. عقدوا أيديهم على بطونهم، وأطرقوا برؤوسهم عند تشريف السلطان. لم يكن مراد خان يحبّ القواعد الرسمية، ولكنه يحترم تقاليد الدولة، ويتقبل القواعد المملة. دعا له الوزراء وعليّة القوم، ثم قدموا له مباركتهم فرادى.

تقبّل السلطان الشاب الذي يبلغ الثلاثين من عمره الأمنيات الطيبة بابتسامة مرتسمة على وجهه ذي الخطوط الدقيقة شديدة التناغم، الذي يمنح الناظر إليه الثقة من النظرة الأولى. وبطوله الفارع الذي يزيده هيبة، رد على الدعاء بصوت منخفض قائلاً: "آمين".

كان مراد الثاني بطبيعته اللينة قائداً محبوباً وموثوقاً في أوساط أتباعه وأوساط شعوب الدول المجاورة. وكان محباً للهدوء، ويعيش حياة متدينة من أجل إيجاد الطمأنينة التي يبتغيها، إضافة إلى إعطائه أهمية لأصدقائه وأقوالهم. لفّ جسده بقفطان عقيقي اللون المتواضع الذي لا يمكن تمييزه عن قفطان أي وزير آخر، وجلس على عرشه المغطى بقماش البروكار باسترخاء، ثم أشار للآخرين لكي يجلسوا. وحين وضعوا أمامه صينية صغيرة وُضِع عليها طبق حساء مرق اللحم لوجبة الفطور، قال: "أوصلوا إليّ الخبر

حين وصلت في تلاوتي إلى سورة الفتح. جعل الله من نصيبنا صبياً آخر... تفتحت وردة محمد في روضة مراد. الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، وليكن اسمه محمداً...".

حَمِدَ المجتمعون في الديوان كلهم الله إثر إنهاء السلطان كلامه. وتكلم الصدر الأعظم محمد نظام الدين باشا الكبير بصوته الأجش: "إنّ كلّ شيء يدلّ على أنه سيكون ولداً خيّراً، ورجلَ دولة عظيماً يا سلطاني. اليوم هو السابع والعشرون من رجب. لقد حلَّت علينا ليلة المعراج. وقعت أحداث كثيرة مباركة منذ رأس السنة؛ فقد تكسرت أغصان أشجار الفاكهة لكثرة ثمارها، وفي الخريف عَبَرَ نهر طونا الكثير من السمك، وولدت الأفراس توائم بقدر لم نشهده من قبل. والأهم من هذا كله هو المذنب الذي عَبَرَ سماء القسطنطينية في وقت الظهيرة يا سلطاني".

قال مراد خان: "ما رأيك بهذا يا محمد باشا الكبير؟". وابتسم. "هل هذا يدل على أن الولد سيكمل جهودنا التي ذهبت هباء؟".

أجاب الوزير أحمد قونفي باشا: "مرت عشر سنوات على الحصار الذي أعددتم له يا سلطاني. أنتم تعلمون بالتأكيد أن عوام ملة عيسى يدّعون أن حكاية نزول سيدتنا مريم من السماء هي السبب الكامن وراء فككم للحصار. والغريب أن هذا يحكى حتى الآن. ولكن السبب الحقيقي هو أن شقيقكم مصطفى فجّر قضية ادعائه حقه بالسلطنة، ووصل إلى إزنيك، وهم يعرفون هذا فعلاً".

"إنهم يعرفون، ولكن من السهل إلهاء الناس بالحكايات يا باشا".

في تلك الأثناء، طلب الإذن بالكلام عالم ذلك الزمان الكبير ابن هاجر العسقلاني، الذي كان يقف في الزاوية صامتاً حتى تلك اللحظة، وهو ربع القامة ولكنه مهيبٌ إلى درجة أنه يثير القشعريرة في الأبدان: "إنّ هذا تقدير الهادي. لعل الفتح يُيسر لابنكم هذا يا سيدنا".

ومن دون أن يغيّر مراد خان ملامح وجهه الباسم، قال: "إن شاء الله". ثم أمر أن يُقدم الحساء للديوان كله. إنه يعرف جيداً أن هذا الولد ليست لديه فرصة كبيرة للجلوس على العرش، فلديه أخوان أكبر منه، ومن البديهي أنه من المستبعد جدًّا أن يعتلي العرش؛ خاصة أن الأمير "علي" هو الولد الحظي لدى مراد الثاني، والذي يعتبره الأكثر أهلية للجلوس على العرش.

ولكن، بعد إرسال محمد إلى أماصيا وهو في الثانية من عمره، مات فجأة شقيقه الأكبر أحمد الذي كان والياً هناك عام 1437. وقُتِل شقيقه الآخر

علي الذي عُيِّن والياً على المدينة نفسها مع ابنيه اللذين كانا صغيرين جداً على يد خضر قره باشا أحد وجهاء المنطقة. وبشكل غير متوقع، صار الأمير محمد هو المرشّح الأوّل لتولي العرش بعد أبيه السلطان.

II

22 كانون الثّاني 1453

ضاع الشارب الكثّ بين أصابع مصطفى الطوقاطي الضخمة الشبيهة بأصابع العملاق، والتفت إلى مساعده الغرّ، وسأله: "ما بك يا ولد؟ ألم تسمع إطلاق مدفع من قبل؟ ما المخيف إلى هذه الدرجة؟".

قال الشاب بانفعال: "أتسألني عن سبب خوفي يا ريِّس؟! ألم يُنبّه أهل أدرنة لكي لا يفاجأوا عندما يُطلق هذا المدفع؟ ألم تُحذر الحوامل من الإجهاض، والشيوخ من الموت في أماكنهم بسبب هذا المدفع؟ ألم يُقل أيضاً إن الفئران والحشرات يمكن أن تداهم القرى، وإن حليب المواشي يمكن أن يجفّ، وألسنة ضعاف القلوب من الرعية يمكن أن تعقد؟ نحن الآن مئتا رجل نسير بجانب هذه الآلة الحديدية الشبيهة بالثور العملاق المخيف؛ نسير وكأننا نقصد المكان الذي سنلقى فيه حتفنا".

كسرت قهقهة رقيب المهام مصطفى الطوقاطي العامل في هذا الموقع منذ خمس سنوات جدار الصمت الذي لفّ الجنود: "سيفتح هذا المدفع عصراً جديداً في حروب القلاع يا بني. وهذا العصر سيغيِّر مجرى الحياة، وسنحكم العالم. انظر إلى المدافع الأخرى التي تسحب بجوارنا حباً بالله؛ إنها مجرد تقليد لهذا المدفع المسمى سلطاني".

كان الشاب المساعد في الحادية والعشرين من عمره، طويل القامة، ومحبباً. وهو تركماني سجل في خدمة الرقباء منذ أن كان في الثانية عشرة من عمره. ونتيجة للفوائد الجمة التي قدمها رُقّي إلى موقع حامل الراية الهام الذي تدمع له عيناه. شهرة علي حيدر التشانقري لا تقل عن شهرة قائد السرية مصطفى الطوقاطي. وعلى الرغم من كونه أصغر من رئيسه بعشرين عاماً، إلاّ أنّه بدأ يحظى بالاحترام نتيجة مواقفه الهامة. ورغم أنه يبدو - بطوله البالغ مئة وخمسة وثمانين سنتيمتراً، ووزنه القريب من مئة كيلوغرام - ضئيلاً بجانب بقية عناصر الخدمة، إلاّ أن هذا لا يشكل له هماً؛ فقد كان جريئاً جداً.

حين كان طفلاً، أراد أن يكون من المحاربين المدنيين حليقي الرؤوس والملفوفين بفراء الحيوانات الذين سمع أنهم يؤخذون إلى ساحة الحرب مقيّدين بالسلاسل. وككل أبناء جيله ترعرع على الأساطير التي تُروى عن المحاربين المدنيين. فقد سمع أن أيديهم تكبر كثيراً نتيجة التدرّب على ضرب الرخام الرطب؛ حيث يصبح بإمكانهم رفع جرة عسل ضخمة فوق رؤوسهم، وعصرها إلى أن تتحطّم. وحسب تلك الحكايات، حين يشم بعضهم رائحة

الدم في ساحة الحرب من بعد كيلومتر يقطعون سلاسلهم. ولكن "علي" عَرف في ما بعد أن أعينهم تزوغ تماماً في أثناء الحرب، ثم تظلم إلى درجة أنهم لا يستطيعون تمييز من حولهم. وعندها، يكسرون أعناق أصدقائهم بضربة واحدة، ولا يشعرون بذرة ندم إزاء هذا التصرف. ومنذ ذلك اليوم، ألقى فكرة أن يكون واحداً من أولئك المحاربين خلفه.

ولكي يرفّه عن نفسه قليلاً، بدأ يردد تلك الأغنية القديمة التي لم تكن تسقط عن لسان والده عندما كان يحرث الأرض، والتي تعلمها منه قبل أن يُسجل في بيت الإنكشارية: "إذا ضحكت تضحك الدنيا ويحل الصيف، وإذا بكيت تغدو الحياة جبلاً مغطى بالثلج؛ حتى إنّ السم بيد الصديق يغدو عسلاً، أنا فداء عسلك وسمِّك...".

قاطعه الريِّس مصطفى قائلاً: "ها قد عدت إلى إنشاد هذه الأغنية مجدداً يا ولد. ليتك تغني شيئاً مُفرحاً ذات يوم، فأنت لا تغني إلاَّ الأغنية نفسها...".

"أنت تعرف السبب. إنها تذكرني بأبي وأمي وقريتي يا ريِّس".

"أعرف يا بنيّ؛ هذه هي حال الجندي العثماني. اعتد على الأمر، ولا تفكر بالماضي، وانظر إلى المستقبل؛ فالمستقبل لنا. إنهم يربوننا على انضباط صارم يبعدنا عن رقة القلب وانكسار جرأتنا أمام الأعداء. لا يمكن لمن يخلّف وراءه زوجة وأولاداً أن يكون محارباً جيداً؛ إذ سينشغل عقله بمن خلّفهم وراءه. أمّا نحن فليست لدينا عائلة غير بعضنا بعضاً؛ الأقدم منا له الأقل قدماً. لهذا، كلٌّ منا أمانة عند الآخر، أي مثلنا أنا وأنت. وهذا يعني أنني بمثابة والدك يا بنيّ".

فتل عليّ شاربه الأسود كالأبنوس بين إصبعيه، ثم أسند ذراعه التي يبلغ محيط عضلة زندها نصف متر إلى العربة المصنوعة من خشب السنديان قائلاً: "حياتنا تمضي في الحملات يا ريّس. لا أريد أن أبدو متذمّراً، ولكن هذه الحياة وُجدت لمن هم أصلب مني حسبما أعتقد".

ضحك الريّس مصطفى، وربّت على كتف أجيره قائلاً: "اليوم أنت مهموم يا بنيّ. هذا يحصل لكل الجنود أحياناً. صدقني حين أقول لك إنّك في المساء ستكون أفضل حالاً، طبعاً إذا لم يسلبك إطلاق المدفع عقلك".

ضحكا، وضحك رفاقهما الذين كانوا يسمعون هذا الكلام.

جاء خيري البيلجكي من الخلف، وقد غاصت قدماه في الطين كالآخرين، وبنبرته الساخرة التي لا يستغني عنها قال: "دعك منه يا ريّس، فأحياناً يعرّج عليه أولئك الذين يجب أن نستغفر الله عند ذكرهم. بعد عدة

ساعات سيستلم منا جنود بيت الإنكشارية المدفع، وسيصحو هذا إلى نفسه".
كان البيلجكي رجلاً في الثلاثين من عمره، ممتلئاً إلى نخاع عظامه، وقوته لا يتصورها عقل، ولكنه يستخف بهذه الميزة التي تعتبر مصدر فخر بالنسبة إلى الآخرين، ويقول العبارة التالية: "لدى الثيران قوة عضلية أيضاً. ما يلزم الإنسان قبل كل شيء هو قوة العقل والعلم".
جفَّف الريّس مصطفى الطوقاطي العرق الذي كان يتصبب على جبينه رغم برودة الجو بقفا يده الملوثة بالطين، وقال: "لا يريد سلطاننا أن نبتعد عن هذا المدفع لأنه يولي سلامته أهمية كبرى، وهو محق بهذا". ثم كحّ قليلاً، وأخذ نفساً عميقاً.
في تلك الأثناء بالضبط، قال علي بنبرة معترضة: "ولكن المحافظة على الأمن بيد الإنكشاريين أيضاً. بماذا نختلف نحن عن الثيران الستين الذين يجرون هذه العربة؟".
قال الريّس مصطفى بحدة: "إنّ الحفاظ على الأمن بأيدينا نحن وليس هم".
"ولكنهم يرتدون قفطاناتهم الحمراء اللامعة، ويعتمرون قبعات المراسم البيضاء المثنية إلى الخلف، ويحملون أسلحتهم اللامعة تحت أحزمتهم التي تضج بالألوان، ويمتطون الخيول. أما نحن - جنود المهام والمدفعية - فنغوص في الطين والأوساخ، ونقوم بالخدمات الصعبة كما يحصل دائماً".
"تنال الخدمة الأكثر صعوبة الثواب الأكبر يا بنيّ".
"دعك من هذا يا ريّس، دعك من هذا. أولئك المحوّل دينهم يُرفعون على الرؤوس دائماً، أما نحن التركمان فنحمل أعباء الأعمال المهينة".
التفت الريّس مصطفى نحو علي، وعلى وجهه تعبير تعب وغضب: "أولئك نخبة رجال سلطان السلاطين. سلطان السلاطين نفسه هو قائد الإنكشارية الأول، وبات هذا تقليداً من تقاليد الدولة منذ عصر مراد خان الأول".
قال خيري البيلجكي: "دع هذا الولد المجنون بحاله. هيّا، احكِ لنا عمّا رأيته من المعلم المجري أوربان. صف لنا كيف صب هذا المدفع، هيّا احكِ لنا يا ريِّس".
هزّ الريِّس مصطفى رأسه إلى الجانبين، وابتسم. كان يبدو كشجرة عملاقة نتيجة تحول لون لفته التي تحيط بقبعته المخروطية إلى البنيّ المصفر، كما كانت حركاته الثقيلة تزيد هيبته. قال بصوته الأجش: "أوربان معلم كبير، وعالِم عظيم. عقله يعمل كالبرق. يبدو أنه رجل ليّن، ولكنه حاد الطباع.

قضيت معه الشتاء الماضي كله في أثناء عمله على صنع هذا المدفع الذي أسماه سلطاننا سلطاني. غالبية هؤلاء الشبان شاهدوا الخال قرجا باشا الذي كان على رأس الوحدات التي شقّت الطرق، والذي أمر ببناء الجسور التي سيعبر عليها سلطاني. في الحقيقة، إن أوربان لم يصبّ هذا المدفع فقط، بل صب أيضاً مدافعَ بنصف حجمه، ولها تأثير مدهش. حتى إنه يقول إن أداء تلك أفضل. لم يُصَبَّ مدفعٌ بهذا الحجم من قبل. عندما رأى المعلم أوربان اهتماماً من سلطاننا لم يره من البيزنطيين، بدأ يعمل كعبد مخلص. وقد ساهم سلطاننا الشاب في غالبية مشاريعه. لا أنسى أبداً ذلك اليوم، حين بدأ المعلم أوربان بإصدار الأوامر من أجل إعداد قالب صب ضخم بطموحٍ وعزمٍ طفوليين. فقد خطط فوراً لصب المدفع بالمقلوب. وبدأ المعلمون بإعداد القالب الضخم من الخشب والصلصال المدعم بحلقات فولاذية. كانوا يعملون بدقة، ويخشون من ارتكاب خطأ أمام عيني سلطاننا.
في تلك الأيام، كان يرافق أوربان معلم يدعونه المعلم دونار الجنوي. كان رجلاً غريباً وقليل الكلام، عيناه زرقاوان لامعتان تنظران دائماً إلى البعيد. وكان يهتم كثيراً بلحيته الخفيفة، ويضع نفسه بموقف مضحك نتيجة دهنها بالزيت دائماً. ولكنني لا أذكر أنني رأيت أحداً يضحك على حالته المضحكة تلك عندما يكون بجانبه. حتى إن أحداً لم ير أوربان يتكلم معه بحدة. فهو يُنفذ التعليمات من دون أن يسأل، وحتى إنه استطاع أحياناً أن يبادر باتخاذ قرارات في مواقف حرجة. مثلاً، يقول إنه صاحب فكرة استخدام الألياف المغمّسة بزيت الكتان والقنب في مزيج الصلصال ليعطيه صلابة أكثر. وأنا شخصياً شهدتُ أنه لم ينم نهائياً في تلك الفترة. ولعل غرابته نابعة من هذا الأمر. ففي الليل، يخرج من المختبر الصغير الذي يعمل فيه مع أوربان، ويتجول بين قوالب الصب حتى الصباح، ثم يعود إلى مختبره ويتنقل بين الحوجلات والأنابيب الزجاجية التي تشتعل تحتها نار خفيفة، ويراقب عبر نوافذ المختبر الأضواء اللامعة الملونة التي تنثرها أشعة الصباح الأولى في الخارج".
"في الحقيقة، إنه خيميائي، أليس كذلك يا ريّس؟". كان حسين الإزميتي هو من طرح السؤال. وهو شاب في التاسعة عشرة من عمره، ولكن طوله يتجاوز المترين، وجحوظ عينيه الداميتين بشكل غريب يمنحه منظراً مخيفاً.
"السبب الأساسي لوجوده هنا هو عدم تمكنه من إيجاد جو عمل مريح إلى هذه الدرجة في أوروبا". قال هذا أحد قادة الساحة الثالثة. "قل إذاً يا ريّس، هل يستطيع تحويل المعادن بخسة الثمن إلى ذهب؟ هل صحيح أنه

كان يبحث عن إكسير الخلود؟ هل صحيح أن دونار ليس رجل أوربان، بل إن أوربان هو رجل دونار؟".
صمت الإزميتي فجأة، ووقف كعادته "كخيال المآتة"، وبدأ يراقب الريّس مصطفى.
ضحك الريّس مصطفى وقال: "هذه إشاعات كاذبة، وحكايات للتسلية يا بنيّ. ولكنني سأخبرك بما هو أهم. في زمن حقي باشا أحد وزراء بيازيد الصاعقة، كان في أدرنة إسباني يشبه دونار هذا. كان اسمه غومار، وكان يعمل على اختراع قوس ونبل بعيد المدى يشتعل رأسه بمادة حارقة، أي إنه كان يسعى إلى اختراع قوس ونبل أكثر تطوراً من الأقواس والنبال التي نستخدمها الآن. وقد اخترع بكرة جديدة للفّ مشاعل النبال، ومع دوران البكرة يحتكّ السلك الفولاذي بحجر القدح، ويشعل القار الذي تمّ على وضعه رأس النبل. وهكذا، صار من الممكن التسلل إلى أسفل أسوار الأعداء، ومباغتتهم بهجوم ناري. غير أن الجيش تخلى عن تلك الأقواس والنبال بعد فترة، لأن السلك الفولاذي لا يحقق الشد اللازم، والنبال لا تصل إلى المدى المطلوب. أضف إلى ذلك أن القار لم يكن يشتعل دائماً، وكان يوسّخ الإنكشاريين".
قال البيلجكي: "وهم سادة يولون أنفسهم عناية كبيرة".
أُطلقت الضحكات، وقال أحد السائرين في الأمام: "لا يتردد الإنكشاريون بركوب الهودج الذي تخجل والدتنا السلطانة من ركوبه؛ وذلك لكي لا يتّسخوا أو يتأثر مظهرهم".
وعندما انفجرت القهقهات كلها معاً، التفت بعض الإنكشاريين الذين كانوا يتمايلون على صهوات الخيول البنية متكبرين، ونظروا إلى الرجال الضاحكين نظرات جامدة. كان مظهرهم فريداً ومهيباً جداً بأسلحتهم ودروعهم التي تبدو دائماً جديدة.
"المهم...".
رفع الريّس مصطفى رأسه، وألقى نظرة إلى السماء الفضية الباردة. من غير الممكن ألاّ يغار الشباب من الإنكشاريين، فهو أيضاً يشعر بالغيرة منهم، ولكنه لا يظهر هذا. إذ إن لدى أولئك الذين يدعون جنوداً نظاميين جاذبية تجعل الناس يتمردون على تصرفاتهم ونظراتهم المتكبرة. كحّ قليلاً، ثم تابع سرد قصته: "ذات ليلة، فيما كان غومار ذاك يجرّب في ورشته نبالاً تشتعل قبيل وصولها إلى الهدف مات نتيجة انفجار، أو اعتُقد أنه مات؛ لأنهم لم يجدوا جثته. لا بد أنه تحوّل إلى أشلاء صغيرة. وعندما

قرروا إرسال ما تبقى من جسده إلى بلده، وجدوا أن لا أحد يعرف من أين هو. نعم، لم يكن هناك من يعرف أو يذكر متى وكيف جاء ذلك الرجل. الأمر الوحيد المعروف عنه أنه إسباني. ولم يُنظم له سجل لأنه لم يكن عسكرياً.

المهمّ أن أوربان لم يكن ينبس بكلمة واحدة قد تزعج معلمه دونار. فقد كان يخجل منه ويحترمه، ولهذا السبب سرعان ما كان يطيّب خاطره عندما يقدم على ردود فعل حادة. ولكن، كما قلت، مهما ضغطت عليه، لا يمكنك أن تجعله ينبس بكلمة واحدة".

سأل عليٌّ الريّسَ وكأنه اكتشف ثغرة في قصته: "لماذا لا تحكي لهم عن السيد شاهين الذي يعرف غومار ذاك؟ إذ تدب الروح في السيد شاهين الذي يبلغ المئة من عمره حين يتحدث عن غومار، ويصر أنه يشبه إلى حد التطابق دونار رجل أوربان".

سأل الريّس مصطفى: "من أين سمعت بهذا يا علي؟".

"ألا يمكن أن يكون لديّ بعض المعارف مثل حسين الإزميتي يا ريّس؟".

"ممكن... وليكن، ماذا سيحدث؟ إلى أين وصلنا؟ كانت أفران ضخمة تُعد من أجل شواء ذلك الصلصال من الداخل والخارج، و...".

قال الإزميتي بصوت قلق: "لحظة يا ريّس. احكِ لنا عمّا قاله علي آغا أولاً".

بدا وكأن انقباضَ وجهه ناجم عن تلقيه صفعات متتالية على بشرته البيضاء، وليس نتيجة لفح الريح الباردة وجهه.

ردّ الريّس مصطفى محتداً: "ليقل ما يقوله، فلسانه ليس له رباط".

"هل صحيح ما قاله؟".

هذه المرة تحدث خيري البيلجكي، وحلّت على صوته نبرة ريبة لم تُبقِ أثراً من نبرته الساخرة دائماً تلك: "هل هذا صحيح يا ريّس؟ هل يخشى أن إبليسَ المدعو غومار لم يمت؟".

قال الريّس مصطفى: "لنفترض أنه لم يمت كما يُقال. لكن المدعوّ غومار تجاوز المئة منذ زمن، فيما دونار لم يبلغ الخمسين بعد".

خيّم الصمت على المكان لفترة طويلة. بعد فترة، سأل علي حيدر بهدوء: "سيشرفون اليوم على المدفع، أليس كذلك؟".

فرك الريّس مصطفى ركبتيه اللتين كانتا تؤلمانه نتيجة المشي على الأرض الطينية، وقال: "أيمكن ألا يشرفوا عليه؟ هذه مسؤوليتهم. يبدو أنكم لا تريدون أن أحكي لكم ما حصل!".

قال البيلجكي: "أيعقل هذا يا ريّس؟! لا تؤاخذنا. الأمر الذي تحكيه لنا غريبٌ قليلاً. المهم، أكمل سرد القصة أرجوك".
"ليكن هذا. في النهاية، أُشعلت المواقد. لم يكن الاقتراب من المواقد الضخمة حيث يذوب القصدير ويغلي ممكناً. لهذا السبب، صُنعت آلة تشبه الرافعة التي تُحركُ بالبكرات، وكانت القوالب الثقيلة تُلقى إلى النار بواسطتها. ثم أضيف النحاس والبرونز على شكل قطع. كان من الضروري التخلّص من الرغوة المتشكلة على السطح والشوائب الباقية في الداخل، لهذا السبب كانوا بحاجة إلى متطوعين. لم تكن المشكلة الوحيدة هي تلك الحرارة الفظيعة فقط، بل البخار السام الصادر عن غلي القصدير أيضاً، إضافة إلى احتمال انفجارها. لذا، كانت المراجل تُحرّك، والسطوح تنظف، ويتم التخلّص من الرغوة بملاعق ضخمة مصنوعة من خشب الصنوبر. ومن المهم جداً ألاّ تكون قطع المعادن التي تلقى فيها رطبة؛ لأن تبخر الماء المفاجئ يمكن أن يؤدي إلى انفجار. لهذا السبب، كان نخبة أهل الذكر والدعاء يصلّون على النبي في مكان الصب، ويلجأون إلى الله لمواجهة احتمال حصول أي كارثة، ويمنحون القوة للعاملين هناك. وكان الشجعان الذين يدورون حول المواقد على مدى ثلاثة أيام بلياليها مرتدين الدروع والعباءات السميكة يستمرون بتأجيج النار حسب تعليمات أوربان. وكانوا يتصببون عرقاً إلى درجة أنهم سرعان ما كانوا ينهون ماء الشرب الذي يحفظ بارداً في الجرار الفخارية الكبيرة خلال فترة قصيرة. وكان المعدن الذي يتحوّل إلى سائل يُصبّ في القوالب، ثم يتم إغلاق القوالب، وتغطى من الخارج بالرمل الرطب. وفي أثناء ذلك، كانوا يواظبون على الدعاء كي لا يتشقق وهم ينتظرونه حتى يبرد؛ وهنا تكمن مهارة المعلم أوربان. فقد كان يستطيع تحقيق النجاح في التجارب من دون السماح بحصول خطأ كبير. ولكن، هل كان هذا نجاحه هو أم نجاح دونار؟ أنا لا علاقة لي بما حصل بعد ذلك. خلاصة القول، لقد خرج هذا الشيء الضخم الفظيع نتيجة ذلك".

بعد صلاة العصر مباشرة، وُضع المدفع هائل الحجم البالغ طوله 8.20 م، ومحيطه 2.40 م، وقطره من الداخل 65 سنتم موجهاً نحو الوادي الواسع في نقطة قريبة من باب سور أدرنة الرئيس. ولأن آخر كيلومترين من الطريق فُرِشا بالأخشاب، تمكنت العربة من اجتياز المسافة بسهولة بعد أن كانت عجلاتها تغرز بالطين طوال الطريق. كان من الممكن رؤية المدفعيين وهم يتراكضون بين قوائم المنصة الخشبية التي وضع عليها المدفع. وعلى الرغم من البرد الشديد، التصقت القمصان الحمراء والخضراء بالأجساد بسبب التعرق. وخلال فترة إنجاز التحضيرات، انفرجت اللوحة السوداء التي كانت تلف السماء مرتين، وأنارت حزمة ضوء عقيقية الفسحة أمام الباب، والواجهة المكشوفة من السور. سيُنفذ الإطلاق التجريبي صباح اليوم التالي، لذا انتشر المنادون في المدينة لتنبيه الأهالي وإعلامهم أن هناك صوتاً قويًّا سيهزّ أرجاء المدينة في الصباح.

23 كانون الثاني 1453 - قصر أدرنة

كان السلطان محمد خان الثاني يقف أمام المرآة الكريستالية ذات الإطار الأبنوسي المطعَّم بالصدف مفكراً:

"أنت وحيد، وتشعر بالألم نتيجة تسرب البرد من أرض الصالة الواسعة والمبلطة بحجارة مربعة والتي تُستخدم كغرفة تدريب، إلى معدتك عبر قدميك الحافيتين. كما تشعر وأنت عاري الجذع بقطرات العرق وهي تسيل إلى بطتي ساقيك تحت ساقي سروالك العريضتين اللتين تلفّان فخذيك وتمتصان عرقك. ولكنك رغم هذا لا تحرك شعرة وأنت تنتظر انتظام أنفاسك. يدخل موسى - الطالب المتميز في مدرسة القصر والذي يتم تحضيره لوظائف الدولة، والذي كثيراً ما كان يقرأ لك تاريخ روما للكاتب القديم تاسيتيوس ومغامرات الإسكندر الكبير بقلم المؤرخ أريان - الصالة ويتأمّلك بنظراته المتوجسة، ولكنك لا تهتم. في أوقات كهذه، يتجلى أمام عينيك أولئك الذين ينادونك "محمد" الثاني، ويخافون عليك لشدة محبتهم لك الواحد تلو الآخر. أنت تعرف أنهم يرونك مختلفاً، وينتظرون منك أموراً عظيمة. أحياناً يسري في شرايينك شعور بالخوف والخجل يجعل بشرتك البيضاء شديدة الشحوب تكتسي ببقع حمراء وزهرية تلتقطها نظراتك المسمّرة على المرآة.

إنّ تعلمك من علم الحرب أن القوات البحرية أهم عناصر القوة جعلك تبني سفناً حربية في أحواض مركز الدردنيل البحرية، وفي سينوب، وفي

أحواض بناء السفن السرية على شواطئ إيجه طوال شتاء عام 1452. أصبح لديك أسطول لا يستطيع الأعداء تخيله. ولقد كرّمت الناجحين من عمال بناء السفن الطليان واليونانيين الذين جمعتهم ورجالهم الذين دربوهم بمنحهم أراضي واسعة وألقاب نبالة كبيرة، والأهمّ من هذا أنك دعوتهم إلى القصر، وتبادلت الحديث معهم، وارتشفت الخوف والإعجاب المتأججَيْن في عيونهم رشفة رشفة. فقد همس معلم إيطالي وهو يقترب منك بخوف عميق شعرت به بسهولة: mostro questo da salvi ci Dio Mio. لقد فهمت جيّداً ما قاله لأنّ اللغتين الإيطالية واللاتينية من بين اللغات التي تعلمتها؛ ولكنه لم يكن يعرف ذلك. قال المعلم الشاب: يا إلهي، أنقذنا من هذا الوحش. وإذا كنت قد شعرت بالضيق لدى سماعك هذا في البداية، إلاّ أنك شعرت في ما بعد بالفخر من الخوف الذي تبثُّه في قلوب أعدائك كلهم. كان بينهم واحد يوناني يردد من دون توقف: Eleison Kyre، وفهمت أنه يقول باليونانية التي تعرفها جيداً: يا رب، احمنا. كنت تصغي جيّداً لكي تسمع ما يُقال إن تجرأ أحدهم وهمس. كانوا لا يحبونك، ولا يعرفونك، ولا يثقون بك، ولهذا السبب يخافونك أكثر؛ ومع ازدياد خوفهم منك يزداد يأسهم، ويغدون غير موثوقين أكثر، أو يزداد مكرهم.

كان لديك الكثير من أفضل أنواع الأشجار للحصول على الخشب، بالإضافة إلى قماش القنب وأقمشة سميكة أخرى لا يضاهيها أي قماش من أجل الأشرعة، والمعدن من أجل صناعة المسامير والمراسي، والظروف الطبيعية المناسبة لاستخراج القطران والزيت لدهن الأقسام التي ستمس الماء. ولقد نظّمتَ هذا بذكاء وسرية إلى درجة أنك نجحت بحجبه ليس عن أصدقائك فقط، بل عن المقربين منك أيضاً الذين قد يكون لديهم تواصل مع الأعداء.

ولقد اتبعت سياسة انتهجتها روما الشرقية بقلق، فعقدت سلاماً مع المجريين والبندقيين بداية. وهكذا حققت استقراراً وثقة في البلقان لفترة. كما عقدتَ بذكاء صلحاً مع أبناء قرامان، وأمّنت استقراراً مرحلياً في الأناضول. ولكن ما أقلق البيزنطيين أصلاً هو قضاؤك الشتاء الماضي كله في بناء حصن روملي مقابل حصن الأناضول الذي بناه جدك بيازيد الصاعقة، وإشرافك شخصياً على البناء في كثير من الأحيان. لعل ميزة الظُّرْفِ التي لم يتوقعها أحد إلى جانب صفتي الفنان والمتدين في شخصيتك قد تداخلت بشكل لم يتوقعه أحد. انكببت على مخططات الحصن باندفاع، كأستاذ خط ينكبّ على رسم مطبوع ومحاط بأحلام تضج بالألوان. ونقشتَ اسم "محمد" الشريف حرفاً

حرفاً على هضاب البوسفور الخضراء التي تبدو وكأنها خلفية للوحة.
بالنتيجة، لقد رأيت دموعَ أساتذتك المفعمة بالفخر والحب. وهذا يكفيك. نعم، تكفيك دهشة كل مراكز القوى التي اعتبرتك صيداً سهلاً نظراً إلى صغر سنك لدى سماع أفكارك المتجهة إلى تحقيق النتائج الأكيدة. المشهد الرائع الذي يتشكل من ميم حاء ميم دال حين ينظر إليه من الحصن العظيم الذي أمر جدك الأكبر بيازيد الصاعقة ببنائه هو قفل البوسفور، وشِفرته التي تقول بوضوح إن مفتاحه بيدك.
لم تطلب من الإمبراطور قسطنطين سوى مكان كافٍ لبناء قصر صيد واسع قليلاً، ولكن جوابه كان: إذا قبِلَ بالمساحة التي يغطيها جلد ثور فليتفضل! بقيت تسأل نفسك لفترة عمّا إذا كان قسطنطين المشهور بلباقته وتهذيبه قد تصرف هكذا بسخرية لأنه اعتبرك صغيراً في السن، وشعرت بضيق شديد. بعدئذ، رددت عليه بروح السخرية نفسها، فأمرت بصنع خيط من جلد ثور ضخم، وبالنتيجة أحاط ذاك الخيط بأرضٍ مساحتها ستون ألف متر مربع.
ولا تنسَ الموقف الحاد الذي اتخذته من تلك البعثة التي أرسلها الإمبراطور منتهزاً فرصة وجودك هناك للتحقيق لكي يعرف نيتك الحقيقية. فعلى الرغم من أنك لا ترغب بأن تبدو مستبداً أو طاغية، إلاّ أنك اضطررت حينها أن تُظهر له أن القوة بيدك حالياً... هل الأمر هكذا فعلاً؟ هل تضغط على نفسك في بعض الأحيان لكي تكافح ضد تناقضاتك؟ حاولت أن تحافظ على هدوئك لفترة، ولكنك بعد ذلك عدت إلى موقفك الذي أخرس ألسنة خصومك، وقلت: "اذهبوا! اذهبوا إلى إمبراطوركم، وقولوا له إن هذا الحاكم لا يشبه الحكام الذين سبقوه. فالأماكن التي تصلها قدرتنا لا يصلها خياله. وإذا أرسل مرة أخرى مبعوثين من أجل هذا الموضوع، فمن المؤكد أنهم سيفقدون رؤوسهم جميعاً". ستجعلك هذه الكلمات بطلاً بين رجالك، وظالماً بالنسبة إلى الطرف الآخر بالتأكيد.
أنت تعرف أنّ ما يُميّز الرجل العظيم عن الآخرين هو ركضه وراء أحلامه بحب واندفاع. تسمع الذين يقولون من وراء ظهرك: ما زال ولداً يافعاً في العشرين من عمره؛ يحزن، ويريد أن يؤخذ على محمل الجد، ولكنه لا يريد حالياً أن يضيف حلقة جديدة لسلسلة المعارضة المحيطة به. إنك تتهم في سرّك الزمرة التي يقودها الصدر الأعظم خليل تشاندارلي الذي كان الصدر الأعظم في زمن المرحوم والدك ومن حوله الوزراء والسادة الأتراك، بالسطحية والجبن والرجعية. ولكنك تعرف أن السياسة تلزمك بأن تضحك في

وجوههم حالياً من دون أن تنبس بأي كلمة.
من الطبيعي أنك لم تكن تستطيع تقييم ما كان يدور حولك حين جلست على العرش عام 1444، فقد كنت حينها في الثانية عشرة من عمرك، ولكنك على الرغم من هذا كنت تشعر بوجود شيء غير سليم. لم تكن حينها ممسكاً بالسلطة فعلياً بعد، وكذلك الأمر بالنسبة إلى رجليك زاغانوس وشهاب الدين أيضاً. كما أنك لم تكن قادراً على منع الشائعات التي راحت تُحاك حولك، ولم تستطع تحديد الطريقة المناسبة للتصرف لحفظ كرامة رجال الدولة الكبار المتبقين من عهد والدك حين يهانون ويُقال عنهم إنهم محوِّلون دينهم. رأيت محاولة الحروفيين (1) حرق أدرنة، وكادوا أن ينجحوا بهذا، وبقيت طفولتك التي كانت قصيرة في الماضي. وحين عبر جيش صليبـي ضخم نهر طونا (الدانوب) وحاصر فارنا انتبهت إلى أبعاد مواقف الصدر الأعظم تشاندارلي المهينة والمظلمة في أكثر الأحيان. إذ لم يكن هذا الصدر الأعظم يرغب بمشاركتك ومشاركة وزرائك السلطة. كان الأمر بسيطاً إلى هذه الدرجة، وقد تمكنت من فهمه؛ فكل وجه من وجهَي الحقيقة يدمي بشكل مختلف عن الآخر. عندما عاد والدك مراد خان الثاني إلى أدرنة اختار قيادة الجيش وليس قيادة السلطة على الرغم من رجائك المهذب، وهاجم الأعداء بوصفه بطلاً حقيقياً. وبالنتيجة، لقد حقق نصراً كبيراً. كنت حينها تتنقل بين جدران قصر أدرنة البارد بتململٍ وغضبٍ، وأنت تشعر بهمّ فظيع بصفتك سلطاناً ما زال صغيراً. كم شخصاً عاش مثلك وهو يشعر بعدم امتلاكه التجربة والمعرفة الكافية لأنه باختصار لا يزال طفلاً؟
تابعت تعليمك، وتركت طفولتك خلفك سريعاً. اعتكفت على قراءة الكتب ودراستها بعقلك الغض لكي تكون سلطاناً حقيقياً. ولم تبعد العلماء والفنانين عنك لحظة. تعلمت سبع لغات؛ أتقنت ثلاثاً منها كلغتك الأم، وبدأت تقرأ المراجع التي أمرت بترجمتها في زمن ما بلغتها الأصلية. عملت كثيراً إلى درجة إنهاكك نفسك... ممّا دفع أساتذتك إلى الشعور بالقلق من تصميمك هذا المنهك. ولكن، تكفيك معرفة أن آق شمس الدين والملا غوراني يتباهيان بك. بعد ذلك اندلع تمرد بوتشقتبة. في البداية، لم تُرِدْ تصديق زاغانوس باشا عندما لـمّح بأن الصدر الأعظم تشاندارلي هو من رتّب لهذا التمرد. وتساءلت حينها: هل يمكن أن يتمادى إلى هذه الدرجة؟ من يعلم؟ ولكن الحقيقة أن تثبيت سلطتك يعني انهيار عائلة تشاندارلي. لم يتفق خليل تشاندارلي بأي شكل مع زاغانوس وشهاب الدين لاعتقاده أنهما

يحرضان ضده، ولم يكن ينوي تغيير موقفه الحاد منهما على الرغم من كل تدخلاتك من أجل التهدئة والمصالحة.
أخيراً، غضبت كثيراً عندما عاد والدك إلى أدرنة عام 1446 وجلس على العرش، وتراجع الإنكشاريون عن التمرد شكلياً بزيادة نصف فضية على رواتبهم. ولكنك تعلمت كيف تجد الصبر الذي كنت تبحث عنه طوال عمرك. فأعدت قراءة سيرة كل بطل تاريخي عاش حياته بطموح طائش، واستنتجت أن الذين وصلوا منهم هم أولئك الذين انتظروا الزمان والمكان المناسبين. وعندما أرسلك والدك إلى مانيسا مع باشاواته، لم تهدأ خيبة الأمل التي سيطرت عليك على مدى خمس سنوات؛ فقد تعرضت للإهانة والهجران، ورأيت أن السلطة التي امتلكتها في زمن ما - حتى لو كانت لفترة قصيرة - قابلة للانكسار. كانت كل تلك الأمور بمثابة دروس جيدة لك. وكنت دائماً طالباً جيداً ومجدًّا؛ شحذتك تلك السنوات الخمس الطويلة... خمس سنوات من القسوة والغضب، ولكنها مرت بالتدرّب والتخطيط.
وفي تلك الليلة الباردة من شباط عام 1451، شعرت من حالة الفارس التتري المهموم وهو يسلمك الرسالة المهورة بختم خليل باشا تشاندارلي أن شيئاً ما قد حدث. فقد أرسل إليك خليل رسالة يخبرك فيها بوفاة والدك، وطلب منك ألا تأتي لاستلام العرش حتى يتم القضاء على التمرد الجديد. ما إن استلمت الرسالة حتى أدركت أنه يتوجب عليك أن تسافر من دون أن تضيّع أي لحظة، وذلك قبل أن يفرض الأمير أورخان الذي لجأ إلى البيزنطيين نفسه كأمر واقع. أمرت بإسراج حصانك فوراً، وتمنطقت بسلاحك، وسرت قائلاً: "من يحبني، فليلحقني!". فانطلقت حاشيتك كلها خلفك. وبعد يومين، عبرت إلى الشاطئ الأوروبي من الدردنيل. كنت منفعلاً ومهموماً، ولكنك سعيد بشكل غريب. دخلت حدود أدرنة بتصميم رغم المشاعر التي كانت تقبض على قلبك كالملزمة الحديد. استقبلك الناس والوجهاء في الطرقات بعد أن علموا بمجيئك، واكتسى فرسان الجباية وخيولهم باللون الأسود تعبيراً عن حزنهم. شاركتَ في تناول الطعام من مأدبة الجنازة في منبسط كبير منعزل، كما شاركت في حلقة الدعاء والندب على طريقة أتراك آسيا الوسطى. أرسلت وحدات طليعية لتسيطر على مداخل المدينة والقصر ومخارجهما؛ إذ لا يمكن إنكار حقك في هذا. وافقت على استقبال الصدر الأعظم خليل باشا ومن معه قبل نصف كيلو متر من القصر. وعندما بدأ الثلج يهطل على شكل ندف كبيرة، دخلت قصرك، وبدأت البيعة. كان خليل باشا يقف وسط السادة الأتراك مراقباً صاحب السلطة الجديد والضعيف

من إحدى الزوايا. بايعوك، ولكن لم يكن هناك بُدٌّ من المحافظة على مسافة.

قلت حينها: "اقتربوا يا وزرائي!". وأرحت العيون الطافحة بالقلق والخوف بقولك: "لماذا تقفون بعيداً هكذا؟ أنتم ستبقون بوظائفكم التي كلفكم بها المرحوم والدي. أنت الصدر الأعظم مجدّداً يا خليل باشا، فقد أدرت البلاد بشكل جيد جداً خلال الأيام الستة عشر الماضية التي تلت وفاة والدنا حتى مجيئنا.

ولكن معارضة تشاندارلي المستترة لم تتوقف قط. فقد عارض مع الإداريين الأتراك الذين يقفون إلى جانبه مخططات فتح القسطنطينية بشكل خاص. ولعله سيبقى معارضاً... فهو يعرف أيضاً أن البلد لن ينعم بالطمأنينة طالما أن البيزنطيين يعيشون فيه، وتحديداً لأن عنصرَ الفوضى الأمير أورخان ابن جدك محمد تشلبي بين أيديهم. ولعل الباشا قد ربط نفسه بعلاقات سرية تجعله لا يستطيع أن يتصرف بطريقة أخرى، فلم يعد يستطيع أن يخطو خطوة واحدة، أو من يعلم؟ لعله يخاف فقط، وحبه وإخلاصه للدولة والأمة يدفعانه للتصرف بحيطة مفرطة. ولكن، كل شيء يتضح أكثر مع مرور الزمن. ليس الآن، فالأرضية التي تقف عليها الآن ليست قوية كفاية... انتظر... انتظر...

إن السبب الأساسي لنقلك ساعات التدريب إلى هذا الوقت المتأخر من الليل هو عدم رغبتك برؤية وجوههم. فعندما ترى وجه أحد المستسلمين من حولك تشعر بنوع من الملل والتعب يصعب النضال ضده. هل ما تقوم به صائب؟ لماذا تشعر بالقلق من إمكان أن يكون تصرّفك خاطئاً؟

دفنت نفسك في تلك القصيدة الجميلة التي كتبتها باسمك المستعار "عوني" عندما كانت حمرة مساء الأفق الغربي تصفرّ فوق تماوج اللون البنفسجي للغابات. تحاول التغلب على الشعور بالضيق الذي يولّده غروب الشمس في نفسك بالفن، وتطور موهبتك بهذا النوع من التمارين. تسقط بقع ضوء كهرمانية على "الرحلة" المصنوعة من خشب الجوز. وفي أثناء ارتجاف الحبر على رأس ريشتك، تشعر بارتجاف النفس في صدرك الذي يضيق. وعلى الورقة ناصعة البياض الممتدة أمامك تفكر في كتابة أبيات تفضح وحدتك مثل: ليس ثمة أحد لا أحد له، كل واحد له أحد، أنا بقيت اليوم بلا أحد، يا من أنت أحد من لا أحد له... ثم تنهض وبريق الغضب يلمع في عينيك، وتركض إلى غرفة التدريب. تتدرب على الصولجانات، والأقواس الخاصة المشدودة، وسواطير الحرب، والكرات الحديدية ذات السلاسل التي يزيد وزنها

على مئة كيلو غرام. تتوقف عن التدرّب أحياناً، فيبدو جسدك طويلاً وجذاباً؛ أنت القادر على اجتياز الخنادق بزمن قياسيّ لا يستطيع منافستك فيه إنكشاري نخبوي، وتضع وجهك بين كفيك تحت نظرات بعض خريجي مدرسة القصر الذين يقومون على خدمتك.

في ما بعد، تخرج إلى الأزقة متنكراً. تدخل الزوايا الدينية القفرة وتفضفض بهمومك للتعساء جريحي القلوب. تنظر مشفقاً إلى البيوت التي تظهر خلف نوافذها المظلمة ظلال متوجسة وأنت تسير في الأزقة الطينية لساعات، وتنتابك القشعريرة مع ارتجاف الأعشاب النابتة على أسطح السقيفات ذات القباب بفعل رياح أدرنة الباردة وكأنها تتألم. تغلي غلياناً وتفور. ما بك؟ لم أنت هكذا؟ فكِّر بحالات الناس الذين يشعرون بالراحة نتيجة ثقتهم بأنفسهم ونجاحهم. من يعلم إلى أي مدى كان الإسكندر المقدوني منفعلاً عند خروجه في حملة؟ لطالما تخيلت تلك الابتسامة الرائعة التي ظهرت على وجه هانيبعل عندما أنهك جيوش روما، كما كانت عيناك تدمعان وأنت تقرأ عن عظمة أتيلا الذي كان جنرالاً في جيوش روما.

ولكنك تعرف سبب انزعاجك وهمومك. نعم، تعرف السبب... فأنت تشعر أن معارضيك لن يتسامحوا معك كما تسامحوا مع والدك إذا فشلت بهذا الحصار. لا بد لك أن تخشى من أن تصحّ تحذيرات تشاندارلي المستمرة لك من مجابهتك زمرة صليبية أكبر من ذلك الجيش الذي استفز والدك بحصار فارنا عام 1422 وهزمه، وأقوى منه. وها أنت تفكر في عدم استطاعتك الاستمرار بالجلوس على العرش طويلاً فيما لو خسرت؛ ونتيجة لخسارتك مكانتك. ولكن، عندما يسيطر عليك اليأس هكذا، تتذكر حديث الرسول (ص) القائل: "لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش". وعندها، تسيطر عليك أحلامٌ رائعة بأن تكون ذلك الأمير. في تلك اللحظة، تجد قوة مدهشة في قلبك. ها أنت تقف منتصب القامة مجدداً وقد برد جسمك المتصبب عرقاً في الغرفة الباردة، من دون أن تسمع تنبيهات خدمك، ونصائحهم لك بضرورة ارتدائك ثيابك. بعد ذلك، ستنكب مجدداً على خطط الحرب، والخرائط التي أمرت برسمها، وستدفن نفسك في حسابات ضيقة. أنت لا ترى صديقاً قريباً في محيطك؛ عدا وزيرك الذي يدعمك زاغانوس باشا، وصاروجة باشا، وشهاب الدين باشا سيد سادة منطقة روملي، وأحمد بيك طوراخان أوغلو بطل مورة. ولكنك رغم ذلك تخفي الكثير من الأمور في سرّك؛ حتى عن هؤلاء الأصدقاء.

شمس الظهيرة والمطر والثلج في أغلب الأحيان تربّت على ألواح السطح

البرونزية. يتصاعد البخار من الأطعمة المغذية المصفوفة على الصينية المصنوعة من خشب البتولا، ولكنك لا تشتهي الأكل. ساعات الظهيرة هي الأسوأ بالنسبة إليك أصلاً، إذ تشعر بملل ينمو باستمرار. عندما يبدأ أذان العصر، تشعر بالحيوية قليلاً. يثقل قفطانك الثقيل ظهرك المتعرق بالهموم وأنت تروح وتجيء في ممرات القصر الباردة. يشعر جسمك المهيب بأنك تقشعر من البرد، ولكنك لا تهتم. تسمع وقع أقدام على الدرج، وتشك بمؤامرات سرية يحيكها وزراؤك، وتبحث عن أعدائك المفترضين، وتندس بينهم بمهارة وكأنك واثق من صداقتهم.

ولكنك على الرغم من كل شيء ستنسحب من حياتك المليئة بالملل، ومن الزحام الهامس بشك، وستشعر بأنك ستكون نفسك بكل معنى الكلمة قريباً جداً. ولكنك لا تعرف ما إذا كنت تريد هذا فعلاً أم لا. لا تعرف نتيجة اتخاذك من الإسكندر الكبير مثالاً يحتذى أكثر من والدك، ولكنك لا تريد أن تقف بانتظار النتيجة.

كثيراً ما تفكر بذلك المذنّب الذي ظهر فوق القسطنطينية عام ولادتك، وتشعر بأن هذه الإشارة أقوى وأهم من الإشارات الأخرى بكثير. ولكنك تشحذ أسنانك لمحاسبة المرائين جميعاً بعد الفتح. إنك تشك بأن "خليل" باشا تشاندارلي لا يتقاضى رشوة من قسطنطين الحادي عشر فقط، بل من الغلاطيين أيضاً، وأن الخزينة الشخصية التي يخبئها ممتلئة أكثر من خزينتك. وحسب كلام زاغانوس باشا المخلص لك دائماً فإن "خليل" الكبير عثماني مملوكي أو لديك شك في أنه على هذا النحو... كيف تعرف إن كان إخلاص زاغانوس ليس مجرد وهم؟ يمكن أن يكون تشاندارلي تحت قصف اتهامات شديد. يجب ألا يشوّه موقفه منك إلى اليوم منطقك. يمكن أن يكونا مجرد وزيرين متصارعين على السلطة، وفي سبيل ذلك يحرص أحدهما على الإيقاع بالآخر... أو إن الاثنين يحفران لبعضهما أمامك كل من جهته.

إنك صابر. هذا جيّد... هذا جيّد... أنت الآن صاحب ملك دنيوي لم يكتب باسمك، وسيف مغروز وسط التاريخ... وأنتَ تَرى كيف يضعف تأثيرك على الأحداث حالياً، وتدهش. لا تُدهَشْ... يُخفى عنك تأثير الأحداث فلا تخف؛ تمطر ولكنك لا تشعر بالمطر حتى، يأتي الليل ويعقبه النهار، ولكن لهيبك يتكاثف أكثر. حين ذهب علي بيك إفرانوس أوغلو لإعدام الأمير أحمد الصغير، ابن والدك الأخير في سنواته الأخيرة، شعرت بأن روح السلطان الغاضبة والمتألمة والمتهمة تدور حولك طوال الليل. لعلك لهذا السبب، ولهذا السبب فقط تتمسك بخطط الحصار من أجل استعادة توازنك الداخلي الذي

ترنّح إلى هذه الدرجة.
يجب على الذين يحملون أفكاراً أسمى من إدراك الإنسانية الضعيف - مثلك - أن يدركوا أنهم مضطرون لامتلاك صبر يفوق توقعاتهم الشخصية. هل تذكر كيف أدّبك أستاذك الملا غوراني عندما كنت ولداً صغيراً لا يمكن ضبطه؟ كم أستاذاً هرّبت، وأخفت، وضايقت؟ ولكن، عند إمساك أستاذك الخبير بقضيب السنديان الذي استلمه من والدك كنت تضطر للرضوخ؛ ولا سيّما عندما تظهر تلك الابتسامة الممتعة على وجهه. لأن الملا غوراني كان رجلاً صعباً؛ ممّا خرّب ألعابك. وأنت الآن تحضّر نفسك لتخريب لعبة القسطنطينية. جهِّز نفسك، جهِّزها ولا تنس أبداً، لقد صرت راشداً. لا تهتم للتوتر الذي تعيشه، يمكنك أن تنجح... يمكنك أن تنجح...".
التفت السلطان الشاب الذي كان شارداً بعيداً جداً، والذي يبدو في الوقت نفسه صلباً كالحديد، ونادى على الإنكشاريين المناوبين عند الباب. وقف آغا الإنكشارية وشبان الخدمة خريجو مدرسة القصر الذين كانوا يراقبون سلطانهم سراً بإعجاب وخوف صفاً واحداً حين سمعوا نداءه. أحنى الآغا رأسه واقترب، وفور تلقيه التعليمات ابتعد. حين اتجه السلطان الشاب نحو حمامه، كان شباب الخدمة يلحقون به حاملين المناشف من أجل تجفيف العرق الذي كان يسيل على ظهره.

* * *

حين استيقظ الباشا الشيخ على نداء القائد المناوب كانت لا تزال هناك أكثر من ثلاث ساعات على موعد صلاة الفجر. جلب حارس خاص من القصر أمراً سامياً بطلبه. تمتم وهو يعبث بلحيته البيضاء بهدوء: "إنه يعرف... أو يعتقد أنه يعرف فقط، ويريد أن يستدرجني بالحديث". ثم ارتدى بسرعة أجمل ثيابه، وحاول أن يُطمئن زوجته العجوز. "لأنه لا ينام... فهو يتنكر، ويتجول في أزقة أدرنة... يستمع للجواسيس...".
يعرف خليل باشا تشاندارلي أنه لا يمكن أن يكون طلبه في هذه الساعة المتأخرة من الليل علامة خير. ولكن هناك أمراً آخر هو متأكد منه أيضاً: لم يُعدم أي صدر أعظم حتى اليوم. وبينما كان يشعر بغصّة في قلبه خشية أن يكون هو الأول في هذا الأمر، حضّر للسلطان الشاب صينية مليئة بالمجوهرات الرائعة، ووضع عليها عقيقاً أحمرَ وأزرقَ تبدو عليه خطوط مذهبة تجعله يضج بالألوان، ولآلئ بحجم مهول مستخرجة من محار بحر العرب الضخم، وسلاسلَ ذهبية وعقوداً، ودبابيسَ زينةٍ رائعة، وأحجاراً كريمة ملونة، وسبحاتٍ فيروزية، وأفضلَ العلب الخشبية المطعمة

والمملوءة بنقود الدول الأجنبية الذهبية، ذات الأغطية الكريستالية.
كانت الممرات المظلمة تنار بمشاعل يعبق زيتها برائحة عطرة، وهي طويلة وقاسية. عبر الصدر الأعظم الشيخ طريق الخلوات الذي قطعه الحرس مرتين نتيجة ارتباكه وثقته أنه ذاهب إلى الموت. عبروا من أبواب ذات أقواس على عقدها كتابة غير واضحة تماماً في العتمة الخفيفة التي تخيم على أعماق قصر أدرنة الذي توسع كثيراً في السنوات الأخيرة. كان السلطان يرتاح ليلاً في طرف الخلوة الواسعة ذات القبة. أُدخل الصدر الأعظم إلى غرفة واسعة نوافذها مفتوحة على مصاريعها رغم البرد الشديد في الخارج. تأمّل غرفة المكتبة المفروشة ببساطة، فارتجف قلبه العجوز من المنظر المهيب للمجلدات المصفوفة على الرفوف، وسيطر عليه خشوع عميق، وقال لنفسه: "قرار الموت سيصدر في هذه الغرفة. أصبحت جاهزاً للموت في مكان تحضرُ فيه أرواحُ فلاسفة وشعراء وعلماء كثيرين".
كان ثمة موقد تحولت ناره إلى رماد منذ زمن في إحدى زوايا الغرفة. وبجانبه مباشرة صينية خشبية صغيرة عليها إبريق ماء وكأس زجاجية. تعلقت عينا الباشا بالخرائط المفتوحة على طاولة إيطالية ضخمة مصنوعة من خشب الجوز، وكانت الخرائط تصدر حفيفاً بفعل تلاعب الريح المجمِّدة بها. قضية روما الشرقية هذه المرة حقيقة صعبة.
وقف قرب العتبة مطرق الرأس حتى أذن له موظف التشريفات بالدخول. وفور خطوه إلى الداخل، رأى السلطان أمام النافذة ملتفاً بقفطانه السميك. كان جالساً على كرسي من طراز بندقي. تقدم الصدر الأعظم بخبرة كبيرة وهو محني الرأس، واقترب من السلطان بهدوء، وقبّل طرف قفطانه، ولم ينهض هذه المرة من حيث يجلس على ركبته إلاّ حين لامس السلطان كتفه بهدوء. وعندها، تراجع عدة خطوات إلى الوراء.
"أشعر بالنعاس إذا أغلقت النوافذ، وأبرد إذا فتحتها، ولكن ذلك على الأقل يحول دون نومي".
"ولكن، يمكن أن تضرّوا صحتكم يا سلطاني".
"لا أعاني من أي مشكلة صحية؛ باستثناء القليل من الصداع، وألم في أنفي".
"انتبهوا إلى أنفسكم رجاء. على الأقل لا بد لكم من النوم من أجل صحتكم. أعرف أنكم لا تنامون في الليل".
"يجافيني النوم غالباً... وإن شعرت بالنعاس فأنا لا أرغب كثيراً بالنوم. لذا، أغفو قليلاً قبل انبلاج الفجر، وهذا كل شيء".
في هذه الأثناء، وضع الحراسُ الصينيةَ الضخمةَ التي وضعت عليها هدايا

الصدر الأعظم عند قدمي السلطان، وانسحبوا.
لم يتفوّه محمد خان بكلمة، وراقب النور المتسلل ببطء إلى الظلام في الخارج، ثم سأل مشيراً إلى الصينية: "ما هذه؟".
قال خليل باشا: "تقضي العادة بعدم المثول في حضرة السلطان عند الاستدعاء في وقت غير عادي من دون هدايا".
دخلت ريح باردة من النافذة، فشعر الباشا بالبرد، واصطكّت أسنانه.
"لا أريد منك هدايا يا باشا، بل أريد منك اسطنبول. وحينئذ، سأعطيك أضعافاً مضاعفة مما تحمله هذه الصينية، وستحظى بدولة لم يتخيل أجدادك عظمتها".
شعر خليل الكبير أنه يجب عليه أن يؤيد فكرة السلطان هذه، التي يتمسك بها بكل قوته. لذا، قال بصوت قوي: "ستكون المدينة لكم يا سلطاني. لن تصمد هذه المدينة بعون الله أمام قدرتكم. سنكافح - أنا وعبيدك الآخرون - بأرواحنا ودمائنا حتى النهاية".
نهض السلطان من أمام النافذة قائلاً: "أعرف مخاوفك، وما تريد قوله من دون أن تستطيع ذلك. ولكن، عليك أن تفهمني. هذا وقت الوحدة يا خليل الكبير".
كان ثمة منادٍ يصرخ داخل الصدر الأعظم قائلاً: "قل شيئاً، قل شيئاً لتكسر هذه البرودة في قلبك. ألا ترى أن هذا الشاب قد تبنى هذه الفكرة وتعلّق بها؟ لماذا تعتقد أنه استدعاك إلى هنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ لديه علم بكل شيء... لن يتراجع، وعليك أن ترى أنه لن يتراجع. إنه يكسب وقتاً، وعليك أن تكسب وقتاً. عليك أن تحول دون وقوع كارثة محتملة تحوم فوق رأسك... إنّ استدعاءه لك إلى هنا هو الإنذار الأخير... فهو يقول: سأنسى كل شيء إذا أخذت المدينة. ولكن، في حال الفشل ستدفع ثمن علاقاتك السرية بالتأكيد...".
تحدث الصدر الأعظم بهدوء: "لن يتعايش الناس معاً يا سلطاني؛ حتى لو فتحت المدن أبوابها للأزهار والأخوّة وليس للأسلحة والأعداء. ستفهمون هذا أكثر مع تقدمكم بالسن".
قال محمد باسماً: "ما أغرب هذا! طرحت موضوعاً مشابهاً في مجلس يضم أساتذتي وعلماءنا الأجلاء، فقال حضرة آقبيق بأن الجشع موجود في نفس الإنسان، وقد خالفه حضرة آق شمس الدين والملا غوراني الرأي، وقالا إن الإنسان بالتعليم يمكن أن يتخلص من جشعه ومشاعره السيئة. وهذا وضع يجعل تعليمنا ومحيطنا مؤثرين على مسيرتنا نحو ما يقودنا إليه قدرنا.

يقول الملا غوراني إنه ثمة مخاتلة في حسن نية الناس ومشاعرهم، وإنهم أقرب إلى الخطأ من الصواب، أما حضرة آق شمس الدين المعروف بقلبه الرائع فيدعي أن جوهر الإنسان أقرب إلى الطيب والجمال، وضرب أمثلة جميلة على هذا".

بعد أن فكّر خليل الكبير لفترة قال: "إذا كان الأمر هكذا، فلماذا يبحث الإنسان عن عدو له بشكل دائم؟ لماذا لا تنتهي الحروب بأي شكل؟ ولماذا بعد إراقة الدماء يتمّ الادعاء بإزالة الظلم يا سلطاني؟".

كان محمد منتبهاً إلى الجانب الموجه إليه من هذه الكلمات. وعلى الرغم من هذا، قال بنبرة مفعمة بالتسامح: "لأن الإنسان يخاف يا صدري الأعظم. فهو يخاف فقط، وينظر إلى الآخر نظرة توجّس وخوف. إنه يخاف كثيراً من كل مكان، وكل شخص، وكل شيء. وفي النهاية، يبدأ بالخوف من نفسه، ويغدو ظالماً. يقول القدماء: الخوف أقوى من المنطق. وبقدر ما يكون خوفنا أقل، يسيطر علينا شك أقل، ونكره أقل. ألم تفكر مطلقاً في سبب كون أحباب الله باسمين بشكل دائم يا باشا؟".

"لأنهم لا يخافون غير الله".

"نعم، إن هذا الأمر هو ما يجعلهم يمتلئون بالطمأنينة. ولهذا السبب تراهم ينظرون إلى محيطهم بعين الرحمة. فهم يحبون الخالق لخلقه، ولهذا تفتح أبواب الحكمة لهم مثل مولانا. أحياناً أستغرب أفكاري التي تحلل كل هذا التعقيد في داخلي. لستُ أنا من يدفع نحو هذه الحرب يا باشا، فأنا أشعر بأنه ليست لدي أي حيلة حيال ما يجري. أقول لنفسي: مهما حاولت فلن أتمكن من منع ما سيحدث. في مثل ذلك الوقت، أشعر بأنني مجرد لعبة بيد القدر، ومجرد أداة بسيطة لا قيمة لها. لن يتوقف الدم الجاري في العروق يا باشا... لن يتوقف...".

قبل مرور زمن طويل، كان الباشا يقود حصانه باتجاه قصره، وهو يشعر برعشة برودة في ظهره.

1 الحروفيون: تيار ديني يعتمد على استنباط معانٍ من إحصاءات أحرف القرآن الكريم... (م).

الفصل الثاني
الإمبراطور المستاء

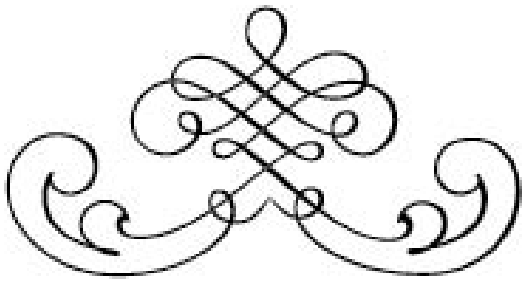

I

"يا عثمان، اعرف ماضيك جيداً لتخطو إلى المستقبل بقوة.
لا تنس من أين أتيت، لكي لا تنسى إلى أين ستذهب!".
الشيخ أديبالي
20 كانون الثاني 1453

المطر اليوم يشبه ألماً خفيفاً في القلب. ويبدو الضباب وكأنه يلفُّ الشمس كشبكة عنكبوت فضية اللون تحمل مليارات قطع الألماس البارقة. تلفُّ أعظمَ مدينة في العصور الوسطى برودةٌ مشبعةٌ بالرطوبة، ورائحة اليود المتصاعدة من البحر، ورائحة الدخان المنبعث من المداخن. أما أياصوفيا التي تبرز وسط المدينة الضبابية فهي برّاقة كما كانت دائماً. أنجز هذا المعبد الرائع الذي يُعتبر أكبر تحفة فنية في العصر بأمر من الإمبراطور فلافيوس بطرس سباتيوس أيوستينيانوس خلال ست سنوات فقط. وتعتبر هذه الفترة قياسيّة؛ إذ انتهي من بنائه عام 537. يعني اسمه باليونانية "العالَم المقدس"، وقد بني على مساحة 16,200 متر مربع. كانت القبة بارتفاعها البالغ 55.60 متراً، وقطرها البالغ 30.31 متراً مميّزة لفترة طويلة.

كان الجغرافي الإيطالي أندريا روسيتي مبعوث البابوية يرافق قسطنطين الحادي عشر باحترام مفعم بالهم، ويحدثه عن سياسة المدن الإيطالية في الفترة الأخيرة. ولكنه لم يفعل شيئاً حتى هذه الدقيقة سوى أنه أحزن الإمبراطور الذي كان ينتظر بشارة مساعدة البابا نيكولاس الخامس له.

بعد فترة، قال الإمبراطور: "محمد الثاني لا يشبه والده. إنه ينهج ضدنا سياسة تصادمية لم نشهدها لدى السلطانين السابقين. وهو يعطي أوروبا تسهيلات تجارية، ويمد لها يد السلام معتقداً أنه يخفي نيته الحقيقية".

كان الرداء المخملي الأحمر المطرز الذي يتدلى حتى جزمة الإمبراطور الجلدية التي طرّز عليها نسر ذو رأسين - وهو شعار الدولة البيزنطية - يمنح الإمبراطور هيبة مؤثرة، فيما كان يمسك حزامه الجلدي الناعم البنفسجي بحركة ظريفة. أمّا نبرة صوته الراقية فتدعم حركته التي تقوّي الشعور بالأصالة الذي يتركه في نفس مخاطبه.

اعترض روسيتي وهو يمسك طرف قبعته العريض؛ تلك القبعة التي لا يجرؤ على اعتمارها في حضرة الإمبراطور قائلاً: "لا يا جلالة الإمبراطور. على العكس، إنه يريد أن تُفهم نيته، ولكنه يقيّد أيدي أعدائه؛ حيث يضع من يتحرك أولاً في رأس القائمة".

ونظراً إلى اعتقاد روسيتي أنه من الممكن أن يكون قد تمادى كثيراً، توقف

لحظة، وكحّ بصوت خفيف. كان الحفيف الصادر عن جزمته المصنوعة من جلد الأفعى أعلى من المألوف. وشعر بأن ياقة قميصه القطني الأصفر مزدوجة "الكشكش"، وسرواله الأزرق الداكن قد ابتلاّ تماماً بالمطر الذي راح يصفع وجهه بفعل الرياح.

تمتم الإمبراطور: "إنه مجنون تماماً...". سَمِعَ الجوقة تبدأ بنشيد ديني جديد عندما كان يدخل من باب الردهة ذي القوس المرتفع. نَظَرَ إلى جدران كنيسة أياصوفيا الهائلة الملتهبة تحت أشعة الشمس الحمراء أسفل القبة الرائعة، ثم قال وكأنه قد أُخذ للحظة بروعة الإنشاد: "الدور على روما ذاتها".

قال روسيتي بثقة مرفقة بابتسامة: "لا أعتقد أنه يجرؤ على هذا يا سيدنا". ثم أضاف بصوت لم يتخلص تماماً من نبرة المفكر: "لا يمكن أن يكون مجنوناً إلى درجة أن يواجه العالم المسيحي كله؟".

التفت الإمبراطور نحو روسيتي، وتحدث بموقف سلطوي: "إذا سيطر على القسطنطينية فبإمكانه أن يتمدد إلى حيث يريد يا سيد روسيتي؛ بما في ذلك روما. أرجو أن تنقل هذا الكلام شخصياً لقداسة البابا نيكولاس الخامس، إضافة إلى الرسالة التي سأحمّلك إياها. أنت هنا بصفتك الممثل الخاص للبابا، وقداسة البابا يعرف جيداً كم أعطي أهمية لإنهاء التحزب بين المذهبين، وما أبذله في هذا السبيل. في 12 كانون الأول عام 1452 حققنا الوحدة بين الكنيستين، ولكن المساعدات المنتظرة لم تصل بعد. لم ينتقل الأتراك إلى الهجوم الفعلي بعد، ولكن حالة الحرب قد أُعلنت بشكل متبادل. أما الجانب الذي أريد أن أتوقف عنده، فهو أن هذا الفراق مع كنيسة روما المقدسة يجب أن ينتهي في الأنفس بعد أن أنهي على الورق. لقد أخذ قداسة البابا على عاتقه مسؤولية المساعدة الكاثوليكية الكبرى التي سيتم إيصالها إلى مدينتنا. وكان من المفترض أن يقوم السيد جان هونياد المحترم نائب ملك المجر بالتواصل مباشرة مع قداسة البابا من أجل هذا الموضوع... هل رأيت يا سعادة المبعوث؟ قبلت أن أبدو بعيون أبناء شعبي مرتداً من أجل إنقاذ مدينتي".

قطّب روسيتي حاجبيه بشفقة قائلاً: "رجاء يا سيدنا".

تابع الإمبراطور: "مع أن محاولة المساعدة الوحيدة التي تمّت حتى اليوم هي دخول سفينة تجارية بندقية تحت قيادة القبطان المضحي البطل ريزو. ومع الأسف، انتهت بكارثة على بحارتها جميعاً. إذ فتحت النار عليها من أحد المدافع الحديثة الرهيبة التي تمّ وضعها في حصن الأناضول، فغرقت

السفينة من جرّاء ذلك وكذلك بحارتها، كما تمّ إعدام قبطانها الذي نجا من الغرق بأعجوبة، بالإضافة إلى بعض الأشخاص الآخرين".
خيّم على المكان صمت قصير، وتوقف هطول المطر، ولكن الضباب ازداد كثافة، واختلطت أصوات الجوقة المنشدة مع زقزقة مجموعة من العصافير التي كانت تقف على حافة البِركة ذات النافورة التي كانت على شكل أسد. خطا الإمبراطور عدة خطوات نحو الداخل، ثم توقف.
"إن قداسة البابا قد أرسل في شهر تشرين الثاني الماضي رئيس أساقفة روسيا السابق كاردينال بولندا، قداسة الأب إسيدورة الحائز على مكانة هامة في مجلس فلورنسا إلى القسطنطينية ببادرة حسن نية؛ من أجل المصالحة والوحدة. في البداية، سار كل شيء بشكل جيد جداً، ولكننا هذه المرة لم نستطع منع الانقسام الحاصل حالياً. فالآن، يُقيم مؤيدو الوحدة قدّاسهم في أياصوفيا كما ترى، أما المعارضون فيشاركون زعيمهم جورج شولاريوس غينياديوس القداس في كنيسة بانتوكراتور ويلعنون الوحدة؛ علماً أننا نعيش أيّاماً نحن في أمسّ الحاجة فيها للتكاتف مع بعضنا. وأنا الآن أشعر بالألم الناجم عن الاختلاف بالرأي؛ حتى مع أصدقائي المقربين. هل تفهم صعوبة الظروف التي أعيشها يا سيد روسيتي؟ أنا إمبراطور المدينة الأكثر أهمية بالنسبة للمسيحية وشرق روما المنقسمة، ولكنْ، لا أحد يسمع نداء استغاثتي. وبالإضافة إلى ذلك، أجد نفسي مضطراً لمشاهدة عالم غربي يؤيد الاتفاق مع السلطان. أنا فعلاً بغاية الدهشة. من المحتمل أنك حتى أنت لا تستطيع فهم أن سقوط القسطنطينية المقدسة هو في الحقيقة سقوط الحضارة الغربية. من جهة أخرى، إن الحصار يضيق أكثر فأكثر من يوم إلى آخر. ولقد نقل إليّ جواسيسي أخبارَ الأسطول الضخم الذي بناه الأتراك. أريد أن أذكّر مرة أخرى أنني لا أشكك بحسن نية قداسة البابا المحترم الذي يستغل هذا الوضع، والذي وعدني بأن يُقدّم لي المساعدة التي أحتاج إليها بفضل وحدتنا مع كنيسة روما في هذا الوقت الذي تقيّدت فيه يداي ورجلاي. أنا قبلت بهذا مغامراً بما سيحدث لي. حبذا لو كان كل شيء سهلاً كما يبدو من بعيد يا سيد روسيتي، ولكنه ليس كذلك؛ فالغالبية العظمى من شعبنا ورجال الدين لدينا يلتفون حول غينياديوس الذي كان كاتب الإمبراطور السابق إيونس الثامن، وكبير قضاته، وصديقه المقرب. للأسف، إن تأثيره على الشعب والنبلاء أقوى من تأثيري، وليس بوسعي القيام بأي شيء من أجل الحيلولة دون هذا. لقد أعلنوا أنني خائن لوطني وديني. والجموع التي تقف خلفه تثق به هو وليس بي. وذاك السلطان

الشاب يراقب حالتنا هذه ويضحك من كل قلبه، هل تفهمني؟ ألا ترى الاستراتيجية التي ينتهجونها بذكاء؟".

مع بدء الجوقة بنشيد جديد، ظهرت نديمات شابات يرتدين أثواباً حريرية بيضاء طويلة وهن يرتجفن من شدة البرد، وذلك من أجل استقبال الإمبراطور وضيفه. لمعت للحظة القشرة الذهبية لروابط الباب الفولاذية تحت ضوء الشمس الشاحبة، وكأنها انعكاس لزمن مضى؛ ممّا جعل قسطنطين يفكّر في أيامه العظيمة.

تكلم روسيتي وهو يشعر بالشفقة على هذا الرجل القوي، وفي الوقت نفسه بأنه محاصر باليأس: "يا جلالة الإمبراطور، أنا مدرك صعوبة الظروف التي تعيشونها، ولكنني لا أستطيع سوى نقل تمنياتكم. قداسة البابا نيكولاس الخامس شخص صادق وحسن النية، ولا يليق بدمه النبيل أن يقصد استغلال وضعكم. أنتم محقون بقولكم إن قبولكم بالبابا ليكون السلطة الوحيدة على المسيحيين قد وضعكم في موقف صعب خلال فترة قصيرة؛ ولا سيما في ما يتعلق بالسياسة الداخلية، ولكن الشعب سيتفهم هذا. الشعب يريد خبزه يا صاحب الجلالة، ويفكر قبل كل شيء بأمنه الشخصي وأمن أسرته، ووضعكم...".

"يا سعادة السيد روسيتي، كنت سأفهم الأمر لو أن القضية مجرد قضية سلطة، ولكنها أخطر بكثير. فالقبول بالبابا ليكون السلطة الوحيدة يعني القبول بعقيدة الكنيسة الكاثوليكية، ولقد اضطررنا للرضوخ لهذا. نحن أيضاً نقبل أن المسيح رسول الرب وله جانب رباني، ولكننا نرفض الإيمان بأن الروح القدس يأتي من الأب والابن معاً، وأن المسيح يحمل صفة الخالق. ومن هنا تنبع المشكلة الحقيقية. فمنذ قبولي البعثة البابوية في شهر تشرين الثاني، بدأ شعبي ينظر إلي باعتباري مهرطقاً. كن معي يا رب. يؤمن الذين يرون الوحدة كفراً بأن أمنا مريم وملاكاً مكلّفاً ظلاً يتخبطان فوقنا حتى اللحظة الأخيرة. هل تصدّق هذا؟ نعم، هل تصدق يا سيد روسيتي أنهم رموا كهنتي الذين برهنوا على العكس بالحجارة؟ عُجنت الروح البيزنطية بالخرافات، ونحن بحاجة إلى يد حامية إعجازية تمتد من خلف العصور لتغيير هذا".

كانا في الردهة الرطبة التي رصفت على جدرانها الحجرية أحجار فسيفساء مربعة الشكل. أشارت جلجلة الأجراس من بعيد إلى وجود حركة في الميناء. ترى، هل جاءت مساعدة جديدة أم خبرٌ يتعلق بالأتراك وأسطولهم الذي بدأت حكاياته تنتشر من يوم إلى آخر؟

في تلك الأثناء، قال روسيتي: "الانقسام يجلب الدمار دائماً يا جلالة الإمبراطور".
"إن معرفتي هذه الحقيقة هي التي دفعتني للمراهنة برأسي يا سعادة المبعوث. ولكنك تعرف جيداً أيضاً أن هذا الحقد كله قد تبرعم في أثناء الاحتلال اللاتيني".
هرب روسيتي بعينيه، وكأنه ساهم في تلك القضية المشؤومة التي وقعت قبل مئتين وتسع وأربعين سنة.
"أدان البابا إنوسنت الثالث ما جرى في أثناء الحملة الصليبية الرابعة من بربرية لم يُر لها مثيل، واعتبره انحرافاً عن هدف الحملة رسّخ العداء ضد الغرب واللاتينيين. لا بد أن عبارة كبير وزرائي ميغادوك لوكاس نوتاراس الشهيرة: أفضّل رؤية لفة تركي على رؤية قبعة كاردينال في القسطنطينية؛ قد تناهت إلى مسمعك. ولكن عدوّنا الآن لم يعد ذلك العدوّ الذي كان في الحصارات الاثنين والعشرين السابقة".
نهض إسيدوروس الذي كان يدير القداس ومعه الجماعة كلها. استقبله ألكسيوس كريتوفولوس أحد نواب بطرك المنفى جيورجيوس عند مدخل الخلوة الإمبراطورية الواسعة المغطاة بالستائر الحريرية. وهناك، خلع الإمبراطور رداءه وجزمته، ثم ارتدى رداء كتانياً أبيضَ، وانتعل نعلين بسيطين عاديين. وفي أثناء تقدمه في الصالة على الأرضية الرخامية باحترام، ركع بخشوع أمام كل أيقونة من الأيقونات التي يحملها الكهنة، وقبّل إطاراتها الذهبية والفضية المرصعة بالأحجار الكريمة. دخان البخور ورائحته العطرة والجو اللاهوتي من حوله جعلت الدموع تتلألأ في عينيه، ممّا زاد انفعاله. وعندما شرب من الخمر الصافي وأُخذ بالحال كالآخرين، أجهش بالبكاء، ودعا أمام أيقونة العذراء والأيقونات الأخرى. ومع إفراطه في احتساء الشراب شعر بأن قبة أياصوفيا العظيمة ترتفع أكثر؛ وكأن الروح قد دبت بلوحات الفسيفساء الموشاة بماء الذهب، وخرجت منها رسوم الملائكة، وبدأت تدور حول العذراء والمسيح الطفل. حدثت بعض الزلازل الخفيفة في أثناء القداس، ولكن لم يشعر بها أحد غير الحراس الذين كانوا يقفون عند الباب.
كان صوت القيثارات، وجلجلة الأجراس متناغمين مع صوت الماندولين وإيقاع طبل خفيف ينبعث من الأعماق، فيما كان المنبر الحجري المزخرف تحت الجدار الغربي حيث يقع المذبح المهيب والصليب الذهبي الضخم يرتجف قليلاً. أمّا الجوقة المؤلفة من مئات الشباب والصبايا الذين جلسوا على مقاعد متقابلة أمام المذبح فكانت ترتل بوجدٍ شديد. نعم، كان الانعتاق

قريباً؛ إذ بدت الشرفة خفيفة الظلمة المرفوعة على أعمدة رخام سيلانيكي وكأنها تبكي. أليست هذه معجزة؟! أمّا الأعمدة الرخامية البيضاء الأخرى وتيجانها الكورنيت فقد رسمت ظلَّ شيءٍ رهيب. صار هناك جو خشوع داخل الكنيسة. وعلى الرغم من أن أندريا روسيتي كاثوليكي، إلاّ أنه أمسك بالصليب المتدلي على صدره بقوة وشارك بالقداس من دون أن يُدرك، وهو يصب دموعَ الفرح والطمأنينة. وكلما بكى أفرط بالشرب أكثر.

II

عندما كانت أشعة الشمس الأخيرة تنير البهو المطل على الخليج متسللة عبر النوافذ ذات الأقواس، قال الإمبراطور: "ها هو". وقدم لروسيتي نسخة من المنشور المجلوب له، والموسوم بتوقيع غينياديوس. "كان معلقاً على باب بانتوكراتور. أيها المساكين الخارجون عن الطريق المستقيم، لقد قطعتم أملكم من الرب ووثقتم بقوة الفرنجة. سنفقد ديننا أيضاً مع زوال هذه المدينة قريباً. يا ربنا الرحيم، أنا بمنأى عن هذا الانحراف، وبريء منه، وأنت شاهد عليّ. أيها الشعب، أدرك ما تفعله، ولا ترضخ للعبودية وتبتعد عن الإيمان الحقيقي. ما يحصل اعتراف واضح بمعصية الرب. آه ممّا سيحل بكم يوم الحساب!".

قال الإمبراطور هو ينظر إلى الخليج: "أنا"، وتنحنح قليلاً ثم تابع: "أنا الآن رجل رحيم يريد أن ينسى كل هذا. يمكن أن تشهد حياتي تأجيلاً، ومأساة لا تنتهي، ويأساً، ولكنني لا أغيّر موقفي الحازم في أي وقت يا روسيتي. هل ترى أن جهودي كلها وحسن نيتي تكفي من أجل إنقاذ مدينتي ؟ ما رأيك يا روسيتي؟".

قطّب الإمبراطور جبينه، ونهض ببنيته القوية ووقف أمام المبعوث. كان في التاسعة والأربعين من عمره، ولكنه يُظهر حيوية غير متوقعة ممن في مثل عمره. أنهكه قليلاً ما عاشه في الفترة الأخيرة، وتسلل الشيب إلى شعره، ولكن هذا تفصيل تافه لا تستطيع أكثر العيون دقة تمييزه.

في أثناء بحث روسيتي عن إجابة مناسبة، قال الإمبراطور: "أنا سأجيبك. نبلائي وأفراد رعيتي وأنا ننتظر تلك المساعدة الكبيرة من الغرب من دون جدوى. لعلني أستطيع إقناع بعض نبلاء أوروبا ببعض الوعود التي لن يكون صعباً عليّ الوفاء بها، وسأفعل هذا. نعم يا روسيتي، هذا كل شيء...".

غطى وجهه بيده، وفرك عينيه عدة مرات، وأشار إلى تاجه الموضوع في صندوقه الكريستالي؛ ذاك التاج المصنوع من الذهب الخالص والمجوهرات التي لا تقدر بثمن الذي يعكس أشعة الشمس، وينثرها حوله: "أترى هذا التاج؟ إن القوة العظيمة التي يمثلها والتي تربطني بشعبي تمسك بجسمي وروحي بقوة كبيرة، وتحرق روحي بشكل سيئ جداً. ولكن، ليس ثمة من يسمع صوتي. ترك المسيحيون إخوتي الأعزاء للموت. نجحنا حتى اليوم بأن ننبعث من رمادنا كطائر العنقاء، ولكن سقوطنا هذه المرة سيكون السقوط الأخير؛ إذ يشيح الزمن وجهه عنا. لقد رأوا بقرة تلد في الأرض الخاوية

خلف كنيسة كل القديسين، وكان العجل الذي ولدته برأسين يا روسيتي، حباً بالله، إنه برأسين!! والغربان تنعق حتى الصباح في حديقة القصر. كل الثقافات تعرف معنى هذا. إذا اجتمعت هذه الطيور في مكان ما، فثمة احتمال كبير بأن تخرج جنازة من هذا المكان... وماذا عن تلك الأفعى التي ماتت وهي تحاول ابتلاع نفسها بجانب تمثال الثور البرونزي في فورم تاوري... وفي قرية صغيرة على الشاطئ المقابل لشاطئ قصر بلاخرنائي بدأت امرأة حامل بتقديم تكهنات حول وقوع كوارث. وعلى الرغم من أنها لم تقل شيئاً منطقيًّا حتى اليوم، إلاّ أنّ هناك العشرات الذين يشهدون على صحة ما تقوله...".

"أرجوكم يا جلالة الإمبراطور، أنتم الذين كنتم تشتكون من شائعات الشعب البيزنطي".

ظهرت ابتسامة ألم على وجه الإمبراطور وقال: "ولكنني واحد منهم يا روسيتي. أنا أيضاً بيزنطي".

"إذاً، لقد فقدتم سيطرتكم على نفسكم...".

"هل تريد أن أخبرك بما أقوله لمبعوثي محمد الذين يرسلهم إليّ كل فترة؟ يريد مني أن أسلمه المدينة سلمياً لكي لا تخرب المدينة بما فيها من روائع، وذلك مقابل وعد منه بعدم المساس بي وبعائلتي ونبلائي. يقول إنه سيكون حامي الأرثوذكسية، والمدافع عنها، وإنه سيحمينا من ضغط كنيسة روما. وبهذا يريد أن يكسب قلوب الناس. وصل إلى أذني أنه يلعب لعبة مشابهة مع روما، هل تعرف هذا؟ فهو يَعِدُ الكاثوليك بسحق الأرثوذكس، وإنقاذ روما من انفصال الكنيستين المستمر منذ قرون إذا لم يتدخلوا. يقول إنه سيستضيفنا في إزنيك؛ المكان الذي اضطر أجدادي للإقامة فيه حوالى ستين سنة في أثناء الاحتلال اللاتيني. من الممكن أنه يقول الحقيقة. ولكن، هل تعرف ما كان جوابي؟ قلت له: هذه المدينة ليست لي لأسلمك إياها. هذه المدينة مجرد أمانة لدينا، وهي لأولادنا. كلّف تأسيس هذه المدينة شعبنا الكثير من الدماء، وهي ملكة مدن العالم. سأدافع عنها حتى آخر قطرة من دمي، ولن أسلّم هذه المدينة ليديك البربريتين، وسأدافع عن ديني. أعرف أنه توقّع هذا الجواب، ولكن على الرغم من هذا خاب أمله".

جلس قسطنطين على الأريكة أمام النافذة بجانب روسيتي من دون أن يمحو ابتسامته عن شفتيه وتابع: "محمد رجل متعلق بالفن والعمارة. يقولون إنه يكتب قصائد باسم عوني المستعار، وحتى إنه شاعر كبير ولديه ديوان. إن رجلاً مثله بهذه الصفات لا يمكن أن تكون لديه رغبة بنهب

المدينة وتخريبها. ولكن، إذا فقدنا هذه المدينة، فلا أحد - وأنا الأوّل - سيهتم بما سيحدث بعد ذلك يا روسيتي".
عقد روسيتي حاجبيه، وهز رأسه إلى الجانبين قائلاً: "لا أثق أنكم تقولون هذا من قلبكم يا صاحب الجلالة".
خيم صمتٌ قصير. وعندما تحدث الإمبراطور بعد مرور فترة من الزمن بدت على وجهه آثار التعاسة واليأس: "أنا مدرك أنني سأموت هنا بعد فترة قصيرة يا سعادة المبعوث. سأموت، ولكن سيفي سيكون بيدي، وذِكْرُ ربي على لساني، وأصحابي بجانبي. سأموت وضميري بغاية الراحة، وسأشاهد روحي وهي تصعد إلى السماء. هذا ليس قدراً سيئاً يا روسيتي، فأنا لم أرغب في أي وقت بأن أموت على سريري بهدوء، منتظراً عزرائيل. وشعبي يتوقع مني هذا وليس العكس. سأموت سعيداً وبشرف وأنا أدافع عن مدينتي وديني".
أحنى أندريا روسيتي رأسه بهدوء، وشعر بأن الفرصة التي كان يتحينها منذ فترة ليطرح السؤال قد حلت: "هل تعتقدون أن الأمير أورخان ما زال ورقة رابحة بيدكم حتى الآن؟".
قال الإمبراطور: "أغلقت هذه القضية قبل سنتين". وضحك مصدراً صوتاً مزعجاً قبل أن يتابع: "وضعُ أورخان أصعب من وضعنا بكثير. إذا سقطت المدينة، فسيسقط رأسه أولاً. وهو أيضاً مدرك لهذا، ويحضّر نفسه بكل ما أوتي من قوة مع مجموعة صغيرة تتألف من مئة وخمسين شخصاً".
"أما زال محمد يدفع مصاريفه؟".
"نعم. ولكن مطالبتنا بزيادة المخصصات له في الفترة الأخيرة لم تفد، بل قوبلت بغضب شديد؛ لأننا ارتكبنا خطأ وهددنا بإطلاقه إذا لم تزد المخصصات. كان علينا أن نصغي لنصيحة الصدر الأعظم. ارتكبنا خطأ استراتيجياً حين طمعنا بالحصول على القليل من نقود العثمانيين، فقوّينا بذلك الورقة التي بيد السلطان أمام معارضيه. كان هناك عدة معارضين يجد محمد صعوبة بإقناعهم أن البيزنطيين يشكلون تهديداً لدولته، وها قد انتقلوا الآن ليقفوا في صفّه. رغم أنه كان بوسعنا نهج دبلوماسية لَبِقَة - على الرغم من كل السلبيات - بمساعدة خليل تشاندارلي. وإثر تهديدنا فار السلطان غضباً، وأثبت صحة رؤيته المؤيدة للحرب. أنا أيضاً أريد أن أثق بهونيادي المجري، أريد هذا كثيراً، ولكن لدى هذا الرجل جانباً متذبذباً على الرغم من قوته كلها. فهو يحبّ أن يقف إلى جانب القوي مهما كانت الظروف، وأكره أن يعرف محمد نقطة ضعفه هذه، وأن يُفسد لعبتنا.

ومقابل صعوبة وضعنا هذا، فإن إقناعي المقاطعة الجنوية في غلاطة بتقديم المساعدة السرية أمّن لنا إمكانية التقاط أنفاسنا قليلاً. على الأقل، أنا مسرور لتمكني من استخدام الورقة المسيحية التي بيدي معهم. فحاكم مقاطعة غلاطة السيد أنجيلو لومينيللو مسيحي جيد، وصديق صادق. إنه مضطر لإقامة علاقة جيدة مع العثمانيين من أجل مستقبله، أنا أتفهم هذا. مهما كانت العلاقات بينهما نابعة من سياسة غض الطرف المتبادلة إزاء التطورات المرحلية، فهما يستفيدان من دبلوماسية دقيقة تجعل الطرفين لا يحتاجان إلينا".

تحدث روسيتي بموقف المفكر: "أنا أعرف لومينيللو. فقد عمل منذ تسلم الإدارة على إرضاء الطرفين. إنه شخص حسن النية، ولكنه مضطر الآن لتحديد موقفه. أنا واثق أن حياته قد تحولت إلى كابوس حقيقي".

"بعد فترة سنضطر لتسلم غالبية المساعدات عن طريق غلاطة يا روسيتي. فعند بدء الحصار بشكل فعلي، ستضيق حلقة الحبل حول رقبتنا تدريجياً. إن شحن الخمر، واللحم المقدد، والقمح، وزيت الزيتون، ومواد البناء، والبقول، وإدخالها إلى المدينة سراً يتم بجهود السيد لومينيللو غير العادية؛ لأن العثمانيين يضعون أيديهم على هذه القوافل عندما يقبضون عليها. ولكننا لم نشهد أي مشكلة بنقل الأحمال التي تنـزل رسمياً إلى غلاطة عبر الخليج. وقد وعد لومينيللو المحترم بألا يُنـزل جنـزير الخليج في حال شن هجوم. لن تكون لدى محمد فرصة إنزال الجنـزير الذي يغلق الخليج كما حدث في الاحتلال اللاتيني عام 1204. يمكن أن يُحبط شبابه وجرأته بعض المداخلات".

سأل روسيتي: "هل تثقون بلومينيللو إلى هذه الدرجة فعلاً؟".

نظر الإمبراطور إلى مخاطبه بتعبير ينير ملامح وجهه الباسم وقال: "أنا مضطر للوثوق به". ثم بدأ يروي وكأنه يستعيد أيام الكارثة تلك، ويرغب في حفرها في عقل مخاطبه جيداً: "في الخامس من تموز عام 1204، أسست الوحدات الصليبية وأسطولها موقع قيادة شمال شرق الخليج قرب غلاطة. كان سبب وجودها هناك أن ابن شقيق ألكسيوس الثالث قدم وعوداً كبيرة مقابل إسقاط عمه وتتويجه إمبراطوراً. كانت غلاطة في ذلك الوقت محايدة لأنها مجرد مركز تجاري فقط، ولا تملك أسواراً تدافع عنها، وكان الجنـزير الذي يدافع عن الخليج في المكان نفسه أيضاً. كان طرفه مربوطاً بنظام بكرة داخل قلعة ضخمة في طرف غلاطة. بفضل هذا النظام، كان من الممكن إنزال الجنـزير ورفعه بسهولة. قرر الإمبراطور ألكسيوس

الثالث أن يقود شخصياً الوحدة البيزنطية التي تدافع عن هذه القلعة. ولكن الفرسان الصليبيين المدرعين شتتوا الوحدات البيزنطية المدافعة عن القلعة خلال فترة قصيرة وجعلوها تتقهقر. وتمكن الإمبراطور من الهرب بصعوبة. ولم يستمر الدفاع البطولي لمن كانوا داخل القلعة أكثر من أربع وعشرين ساعة، إذ لم يكن من الممكن أن يصمدوا أكثر من ذلك. وبسيطرة أولئك البرابرة على طرف الجنـزير فتحوا مدخل الخليج. يُقال إن دوق البندقية البالغ من العمر ثمانين عاماً؛ ذاك الغراب العجوز إنريكو داندولو قفز وحده إلى الشاطئ على الرغم من حمله راية سان ماركو، وحمّس جنوده. كانت القسطنطينية غنيمة رائعة بالنسبة للكثير من البرابرة الذين تسلّحوا وعزموا على النـزول إلى شواطئ مصر من أجل إنقاذ المسيحية. هجموا في اللحظة نفسها على أسوار الخليج التي كانت ضعيفة في تلك الفترة، وعلى القوس التي تصل بين أسوار البر وأسوار الخليج، والتي كانوا يعرفون أنها ضعيفة في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة قرب قصر بلاخرنائي. ضعفت المقاومة التي استمرت حتى السابع عشر من تموز بسبب ذاك الهجوم الكبير الأخير. فقد هجم الصليبيون اللاتينيون من البر، والبندقيون من البحر واحتلوا أبراج السور الواحد تلو الآخر. كانت سفن البندقية مسلحة بالمدفعيات الخفيفة والمنجنيقات. كما سهّلت الحبال المشدودة بين أعمدة السفن، والسلالم التي تصل إلى ذرى الأبراج، والمساطب التي ترفع بنظام البكرات عملهم. اقتربت السفن من الأسوار كثيراً؛ على الرغم من جهود الدفاع الكبيرة. ولم تستغرق سيطرة الجنود على الأبراج والأسوار وقتاً طويلاً. إنها المرة الأولى التي تسقط فيها القسطنطينية، وعلى يد المسيحيين أيضاً...".

هز الإمبراطور رأسه إلى الجانبين، وركز نظره على نقطة بعيدة في البحر الذي هبطت عليه زرقة الليل الداكنة. وبعد فترة، تابع الشرح: "قبل مرور وقت طويل أدرك الجيش الصليبـي الذي قضى ذلك الشتاء بهدوء وسكينة أن ألكسيوس الرابع لن يستطيع أن يفي بوعوده التي قطعها لهم. وحين حل شهر نيسان، لم تُعطِ المماطلة نتيجة كبيرة، وبدأت المجزرة الرهيبة وعملية النهب الواسعة. فقد أُحرقت المدينة كلها تقريباً، ونهبت الكنائس جميعها بما فيها أياصوفيا. وجعل البرابرة اللاتينيون حيواناتهم تسير على الأرض الرخامية النظيفة التي لا تقدر بثمن في أياصوفيا من أجل تحميل الغنائم والأمانات المقدسة من هناك بسهولة. وعندما كانت حوافر الحيوانات تنزلق على الأرض الرخامية كانوا يضربونها بالسياط إلى درجة القتل،

ويلكزونها برؤوس السيوف، من دون أن ينجحوا. دنست دماء الحيوانات وروثها معابدنا؛ بقدر ما دنّستها نيتهم السيئة وسوء سلوكهم. أُنهكت القسطنطينية ملكة المدن وأياصوفيا التي تمثل قلبها وروحها، واغتصبت راهباتنا اللواتي عشن حياة الأديرة في غاية النظافة، وأُضفن إلى قائمة الغنائم. نُفي أجدادي، وأهينوا، وقُتلوا... ولم تعد القسطنطينية كما كانت قط. يعتقد الأتراك أنهم عندما يحتلون المدينة سيجدون مدينة عظيمة وغنية كتلك التي وجدها اللاتينيون. أتمنى ألا يجدوا الفرصة لإدراك مدى خطئهم".

III

26 كانون الثاني 1453

على الرغم من كل السلبيات، عاشت القسطنطينية الحدث الأسعد يوم 26 كانون الثاني بدخول سفينتين ضخمتين الميناء الإمبراطوري عندما كانت الريح الباردة المحمّلة بالثلج تصفع الأسوار. تم الحصول على هذه المساعدة بمبادرة شخصية من حاكم غلاطة. عبرت السفينتان من قلعة تشنق بدون مشكلة نظراً لوجود الإذن اللازم لديهما. وقد غض السلطان الطرف عن الأمر لأنه لا يريد أي مشكلة مع غلاطة حالياً. وفي أثناء تربع قسطنطين الحادي عشر في خلوته الخاصة في الميناء الإمبراطوري، استقبل كبير وزرائه ميغادوك لوكاس نوتاراس ومدير مراسمه جورجيوس سفرانتزيس الجنرالَ الخبيرَ الذي كان يقود السفينتين جيوفاني جيوستنياني لونغو.

اصطحب جيوستنياني معه سبعمئة جندي نخبوي بكامل تسليحهم. أربعمئة منهم جنويّون قضوا حياتهم بحروب البر والبحر وأصبحوا كالحديد. أما الثلاثمئة الآخرون فهم من مجرمي جزيرة المسكة العسكريين الزائغة عيونهم. وعد قسطنطين الجنرال جيوستنياني بأن يعطيه جزيرة ليمني ذات القيمة العالية إذا نجح بالدفاع عن المدينة، فوافق هذا الأخير. وقد جاء أيضاً الإخوة الإيطاليون الجنويّون أنطونيو وباولو وترولیو بوتشياردو ومعهم وحدة مؤلفة من مئة شخص. غدت بطولات هؤلاء الإخوة ورغبتهم في خوض الحرب أسطورة في منطقتهم. ومن يرى رجالهم وتسليحهم الكامل يرتعد قلبه. وبالإضافة إلى هؤلاء، انضمّت إلى خطوط الدفاع مجموعة كتلونية صغيرة من جنوب فرنسا، وقوة عسكرية صغيرة من طليطلة بقيادة النبيل المثالي دون فرانسيسكو. كان دون فرانسيسكو مسيحياً متعصباً، وإقطاعياً قاسياً، ومبادراً زائغ العينين. كان يتباهى بأن كلَّ رجل من رجاله يساوي عشرة رجال، كما كان معروفاً بأنه خبير سلاح جيد.

وإذا كانت هذه التطورات قد بعثت القليل من الأمل في نفس الإمبراطور، غير أنه من الواضح أنه لم يكن مخطئاً في توقعه الأول. إذ ستُدفن أوروبا بالصمت من جديد، وستتجاهل طبول الحرب. ارتدى الإمبراطور درعه المؤلفة من لوحات برونزية لامعة تحمي صدره وذراعيه وساقيه، وامتطى حصانه الأبيض الأصيل المغطى بدرع خفيفة من السلاسل الحديدية، وخرج مع وحدة حراسته لتفقد تحضيرات الدفاع. كان مسروراً من الأعمال التي تتمّ؛ على الرغم من محدودية الإمكانات بين يديه.

يبلغ طول الأسوار اثنين وعشرين كيلومتراً، سبعة كيلومترات ونصف منها

على البر، وأربعة عشر كيلومتراً ونصف الكيلومتر على شواطئ مرمرة والخليج، وتتألف من عدة خطوط. في مقدمة الدفاع خندق بعرض عشرين متراً، وعمق عشرة أمتار. وثمة سور أمامي يتراوح ارتفاعه بين خمسة أمتار وسبعة، ويقع خلف الخندق. وعلى هذا السور سيقدم العثمانيون خسائرهم البشرية الكبرى. أما في الخلف، فهناك الأسوار الأساسية التي يبلغ ارتفاعها خمسة عشر متراً. يتفوق الرابضون هناك على مهاجميهم بالرؤية المرتفعة التي تمكنهم من كشف ما يتواجد خلف الخندق وأمامه، وداخل السور الأمامي وخارجه، وأسفل سورهم، كما يمكنهم موقعهم هذا من توجيه ضربات مؤثرة ومسددة جيداً بسهولة. المسافة بين السورين تبلغ عشرين متراً. أما الأقواس والنبال والأنظمة التي تنثر النار الرومية من الأبراج البالغ ارتفاعها خمسة وعشرين متراً فكافية لتحويل المسافة بين السورين إلى جهنم. وتعتبر النار الرومية سلاحاً كيماوياً حارقاً مكوّناً من مزيج القار والكبريت والصمغ والكلس ونترات البوتاسيوم، وتتأجج النيران أكثر عند محاولة إطفائها بالماء لأن هذه النار تتمتع بخاصية الانتشار في الماء، وتعتبر من أكثر الأسلحة تأثيراً.

وعندما كان عدد جنود الإمبراطورية أكثر، كان يتم وضع خطين دفاعيين من الجنود أمام الخندق، فيحارب المهاجمون في هذا الجزء حتى النهاية لأنه ليس لديهم خيار سوى القتال أو الغرق في مياه الخندق العميقة، وكان أغلبهم يقعون ضحايا النار الرومية التي تفتك بهم.

كما أن موقع المدينة يساعد في الدفاع عنها. إذ ليس ثمة نقطة ضعف فيها سوى الرأس الشمالي الغربي بين المياه المفتوحة والخليج. حيث إن المحاصِرين يستحيل عليهم الثبات في الرأس الذي تدخل فيه المدينة إلى مرمرة بسبب التيارات. ومهما كانت السفن ضخمة فهي لا تستطيع الاقتراب من الشاطئ لتتخذ منه مكاناً مناسباً للإنزال أو الهجوم. ولم يحدث هجوم ناجح من هذه النقطة منذ ألف عام. ولم يتعرض الجدار الممتد بشكل متواصل على طول الشريط الساحلي، والمؤلف من 188 برجاً، ويتبعه ميناء صغير، وارتفاعه 15 متراً، لضرر جدي من هجوم أي جيش باستثناء هجوم العواصف المفاجئة والتيارات البحرية القاسية. في الحقيقة، إن الظروف الطبيعية القاسية، والتيارات البحرية القوية نتيجة إحاطة البحر بالقسطنطينية من جهاتها الثلاث أكبر عدو للمدينة حتى اليوم. هبت ريح باردة ورطبة من الشمال في أثناء إصلاح السور الذي تهدم بفعل جبال الجليد التي دخلت من مرمرة، واعتبر العمال المتطوّعون الذين ماتوا حينئذ قديسين.

تتقدم التيارات القوية نحو الشمال، وتلتقي التيارات النازلة من الشمال عبر البوسفور عند رأس المدينة؛ إلى أن يلتقي البحر مياه الخليج الهادئة، وعندها تصبح المياه هائجة وتُصعّب الأمور على السفن خفيفة الوزن.
أما في مياه الخليج الموثوق بها والهادئة فيرسو أسطول الإمبراطورية. وتحمي الأسوار الممتدة على طول خمسة كيلومترات ونصف الكيلومتر في هذا الجزء 110 أبراج. مدخل الخليج مغلق بجنـزير منذ حصار العرب عام 717. ويشكل الجنـزير البالغ طوله 300 متر، وطول كل حلقة من حلقاته الحديدية الغليظة خمسين سنتيمتراً متراس الدفاع المنيع، وأهم مواقع الدفاع حساسية؛ لأن الأسوار اخترقت من هذا الموقع في أثناء الاحتلال اللاتيني. لا يمكن لأي سفينة ثقيلة الأحمال أن تتجاوز العائق الذي يشكله الجنـزير المثبت على سطح الماء والمدعوم بأخشاب الكستناء والطوافات؛ حتى لو كان مقدمها مدعّماً بالفولاذ. كثّف الإمبراطور أعمال الصيانة لهذا الجنـزير لأنّه يشعر بقلق كبير حياله. لم تعد أسوار المدينة البرية عظيمة وقوية كما كانت سابقاً، ويرجع سبب ذلك إلى الانهيار الاقتصادي والحصار المتكرر لها على مدى قرون. ولكن، لا يزال القادمون إلى المدينة من الشرق يرون جدار اللهب الأحمر كخط الأفق، والأبراج القريبة من بعضها كلوحة جميلة تحمل آثار الماضي الرائع وتثير القشعريرة في الأجسام.
لم يستطع أحد حتى أتيلا أن يفرض الاستسلام على السور البري الذي أمر ببنائه الإمبراطور ثيودسيوس بريفيكتوس أنثيموس الثاني، وانتهى بناؤه عام 413. كان قسطنطين يخرج ليتجول خارج السور أحياناً، ويفكر بالأمم البربرية التي لوثت بدمائها السافلة كل سنتيمتر منه، فتظهر على شفتيه ابتسامة مبهمة. ولكن هذا الحصار المقترب سيكون حصار المسلمين الحادي عشر للمدينة، وهو يدعم آمالهم المتكررة في كل مرة بتحقيق هدفهم، ويقوّي اندفاعهم. يشعر قسطنطين بأن انفعالهم هذه المرة يتجاوز انفعال الأمم البربرية التي لا هدف لها. ولو أنهم يسعون للحصول على الغنائم فقط، لكان الخوف منهم أقل.
إنه يربط في سرّه بين هؤلاء الذين يهرعون منذ قرون بتصميم لا يلين لتحقيق نبوءة رسولهم التي يؤمنون أنها ستتحقق بالتأكيد، والصليبيين الذين يسيرون نحو القدس عبر العصور أيضاً. للأسف، إن القسطنطينية بالنسبة للمسلمين غدت كالقدس بالنسبة للصليبيين.

* * *

خلال الوليمة التي أقامها الإمبراطور على شرف القائد الكبير جيوستنياني ليلة

وصوله في 26 كانون الثاني، كان الموضوع الأساسي الذي تمت مناقشته طويلاً هو المسافة التي قطعها الأتراك في تقنية المدافع.

فقد اكتسب العثمانيون تجربة كبيرة في مجال المدفعية خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر، ونجحوا بربط هذه التجربة مع التقدم التقني. عام 1422 حاصر مراد خان الثاني والد محمد الثاني القسطنطينية، ولكن مدفعيته لم تكن مؤثرة. وفي أثناء حصار شبه جزيرة بيلوبونيز عام 1446، دُكّت أسوار هيكساميليون التي تبعد عشرة كيلومترات وسوّيت بالأرض بواسطة تقنية أكثر تطوراً. الجانب المدهش أكثر في الأمر أن جيش مراد خان تمكن من امتلاك الخبرة والعلم بتأسيسه ورشات صب مدافع مؤقتة، ليتم استخدامها في ميدان المعركة. وهكذا، تم حلّ جزء كبير من مشكلة النقل التي تبطئ سرعة الجيش.

كان تجفيف نترات البوتاسيوم والكبريت والفحم التي تترطب في أثناء النقل من أجل تأسيس مربض مدفعية مؤثر بالنسبة للجيوش الأوروبية يمثل مشكلة كبرى. وفي أكثر الأحيان، لم يستطيعوا الحيلولة دون وقوع الحوادث نظراً لعدم توفر المهارة اللازمة في أثناء تحضير خلطة البارود. وكانت المشكلة الكبرى تكمن في عدم قدرة سبطانات المدفعية على تحمّل خلطة البارود المؤثرة. فهناك ضرورة لأن تكون السبطانة - وحتى المدفع كله - مصنوعة من البرونز، ولكن هذا يزيد الكلفة كثيراً. لذا، يتفوق العثمانيون عليهم في هذا الموضوع؛ نظراً إلى امتلاكهم أرضاً غنية تؤمن لهم النحاس والقصدير ونترات البوتاسيوم بسهولة. كما أن قدرة الجيوش العثمانية على تحديد نقاط الدعم والتزويد والنقل بسرعة، واقتران هذا بالتقنية الجديدة المتطورة، جعلا خوف الأوروبيين من العثمانيين يفلت من عقاله. كانت المدينة بالنسبة إلى العثمانيين تعني العدوّ الذي يجب أن يُقهر، ممّا كان يؤجّج الخوف الرهيب من الإنكشارية في نفوس أبنائها.

وقع هرج ومرج خارج كنيسة بانايا في هاكوبراتيا (سوق النحاسين). إذ شعر الناس بغضب مجهول السبب وهم يهرعون من الأزقة الفرعية إلى الشارع الرئيس الذي تذكّر أعمدته الرخامية بماضٍ عظيم وعريق، ولكن الجميع كانوا شبه متأكدين من أن رجال الدين الكاثوليك سبب هذا الغضب، وليس كهانة مخيفة حول الأتراك، أو بداية حصار يخشى منه.

كان ذلك الغضب متغلغلاً إلى أعمق الزوايا المظلمة للأبنية الخشبية الواقعة على الطرق المغبرّة في الأحياء الداخلية. وكان المارة يتحرّكون يميناً ويساراً كالنمل الذي ينقل طعاماً إلى أوكاره؛ فيوقفون بعضهم بعضاً أحياناً، ويطرحون أسئلة، ويتلفتون حولهم وعلى وجوههم تعبير قلق؛ وكأنهم يحاولون تقبّل ما سمعوه.

في الحقيقة، صحيح أن رجال الدين هم سبب المشكلة. إذ ينتشر بسرعة خبر ما حل بأسقف من فريق الكاردينال الوسيط إسيدورة. فقد ضربت مجموعة من رجال الدين الأرثوذكس الأسقف الذي ناقشها في اجتماع لتبادل الرأي في النصف الثاني من يوم ثلجي. إثر هذا، تبدد جو الصلح المصطنع بين اللاتينيين والأرثوذكس فوراً، والتفّ جمع غاضب حول رجال الدين المجتمعين في أرض خاوية مغطاة بالثلج خلف الكنيسة.

كان الأسقف سيرغو رومانللي يحاول تهدئة الثائرين بالقول: "كلنا مسيحيون"، وينظر خلسة بطرف عينه باتجاه أياصوفيا. كان ينتظر بقلق عودة مساعده الذي أرسله طلباً للمساعدة، ويفكر بأنه لن يستطيع لمس كل تلك الذهبيات التي أخذها من السلطان إن لم يحضر مساعده قريباً. كان يتوجب عليه أن يطلب من السلطان الشاب أن يدفع له مبلغاً أكبر؛ خاصة لو عرف أنه سيعرض حياته للخطر على هذا النحو. ولكن الرب يعرف أنه يدفع...

كان وجه الأسقف المربع الذي تلقى الضربات، ولحيته البيضاء، ولفة عنقه الحمراء الخاصة بالمراسم، وجبته السوداء تزيده هيبة. مد أحد الكهنة يده إلى لحيته يريد شدها ونتفها وكأنه منـزعج من منظره هذا، فلم يخرج صوت من فم الرجل المسن على الرغم من أن الدموع تدفقت من عينيه ألماً. ولكن، ما إن قال لهم: "خبئوا غضبكم للأتراك، ولا تفرغوه على أخيكم". حتى هرع شخص ضخم من وسط الزحام يبدو عليه أنه حدّاد، وقال له: "الأتراك ليسوا ظالمين مثلكم!".

سأل كاهن آخر من الكهنة: "وهل هناك من لم يسمع عن المكان الذي

جئت منه؛ حسب قول رئيس وزراء إمبراطورنا لوكاس نوتاراس يا حضرة الأسقف؟ نفضّل رؤية لفة تركي على رؤية قبعة لاتيني في المدينة... هل نسيتم ما فعلتموه بنا؟ لم ننس كيف نهبتم مدينتنا الجميلة هذه، ودنستم كنائسنا النظيفة وعذراواتنا الطاهرات. إذا كانت هذه المدينة على عتبة البؤس، فأنتم سبب ذلك... والآن، تأتون إلى مدينتنا، وتدخلون دنس انحرافات كنيستكم إليها، وتفرضون علينا عقيدتكم بوقاحة... من تعتقدون أنفسكم؟ لستم أنتم أو الإمبراطور المتذبذب من يحدد قدرنا، بل الله ذاته. ونحن لا نريد مساعدتكم...".

كرر الجمع: "نحن لا نريد مساعدتكم". وشتم أحدهم الإمبراطور والكاثوليك بكلمات نابية.

قال الأسقف بهدوء: "ولكن، أنتم الذين دعوتمونا يا إخوتي. أليس هذا وقت وحدة المسيحيين؟ أليس من الضروري أن نترك هذا الجدل خلفنا؟ سقوط القسطنطينية يعني سقوط أوروبا كلها؛ وبالتالي سقوط المسيحية".

"إذا كانت كارثتنا ستغدو كارثة الكاثوليك أيضاً، فلماذا لم يسرع كبيركم؛ ذاك البابا الذكي لتقديم يد العون؟ ماذا ينتظر؟ إذا كان يعتقد أن هناك كارثة كبيرة على وشك أن تحصل فلماذا لم يرسل إلينا جيشاً كبيراً؟". طرح هذه الأسئلة رجل أقرع ربع القامة في العقد السادس من عمره يخيف الجميع بمواقفه الحادة. لم يكن يبدو عليه كثيراً أنه مدني، وكان ثمة بريق وحشي جرماني يحمل تعبيراً مهدداً في عينيه الخضراوين.

فور وقوف رومانللي أمام هذا الرجل أدرك أنه أمام الرجل المناسب؛ فبفضله يستطيع تطبيق ما في رأسه بنجاح. في هذه الأثناء، كان الجميع يهدرون أكثر بصوت واحد: "لا نريد مساعدة الكاثوليك...". وكان ثمة هتاف يعلو وسط الحشد يذمّ الكاثوليك ويندّد بهم قبل أن يضيع وسط الهدير المرتفع.

رفع الأسقف يديه لكي يسكت المحتشدين وتكلم: "يدرك البابا ما يحدث يا إخوتي. وهو يحترم عقيدة الأرثوذكس أيضاً... دعوا الماضي في الماضي، ولينته الفراق بيننا...".

نخر الأقرع وتعبير ساخر مرتسم على وجهه الممتقع بالحمرة: "ما الذي يعرفه الكاثوليكي عن احترام العقيدة؟ ألا تستغلون وضعنا هذا الآن؟ اعرفوا أن هذا الشعب لم يوافق على وحدة الكنيسة، ولعن من يدعمها. كلنا نعرف جيداً، ونثق في أعماق قلوبنا أن الأتراك إذا تجاوزوا هذه الأسوار فستنـزل والدتنا العذراء ومعها ملاك مقدس إلى مدينتنا، وسيساعداننا على

اقتلاع البرابرة الظالمين من جذورهم...". رفع الرجل قبضته، ولوّح بها في الهواء، فحصل على دعم المحتشدين قبل أن يتابع: "وعندها، لن نكتفي بذلك، بل سنسير إلى روما، وسنضع رأس البابا المنحرف نيكولاس الخامس على رمح، وسنجوب به العالم المسيحي كله، بالإضافة إلى الرمح الذي يحمل رأس محمد".

أرعد الأسقف بصوته الجهوري المعتاد على الخطابة: "لا تظلموا البابا. فإمبراطوركم هو الذي لم يقبل بهبات البابا مقابل اعتباره حامياً للأرثوذكس. ولهذا السبب، يريد إمبراطوركم أن يُزكي كرهكم للكاثوليك لتحقيق مآربه الخاصة".

ألقى الأقرع نظرة على المحتشدين وقال: "نحن لا نشك بأن إمبراطورنا عاشق للعرش، ويمكنه أن يرتكب أفعالاً بغاية السفالة لتحقيق مآربه الخاصة يا حضرة الأسقف".

حمل صوت الأسقف شيئاً من الإدانة وهو يقول: "لو استطاع إمبراطوركم أن يكسب دعم البابا من أجل القسطنطينية فسيكون قد وجد حليفاً قوياً يقف إلى جانبه ضد مؤامرات القصر البيزنطي والتركي معاً".

مد الرجل الأقرع قامته، وأمسك بذراع الأسقف، ثم لواها خلف ظهره، وأركعه إلى مستوى ركبتيه: "تقول إن الإمبراطور لا يفعل شيئاً سوى أنه يحمي مصالحه؛ حتى لو كان ديننا ثمن ذلك. ونحن نقول لك إننا نعرف هذا. لسنا بحاجة لباباكم المهرطق، ولا لإمبراطور تاج الصفيح الذي لدينا. القسطنطينية لنا، وستبقى لنا، ونحن سنتحمل مسؤولية الدفاع عنها".

وما إن أنهى كلامه حتى وجّه إلى بطن رجل الدين المسن ركلة قوية، فجحظت عينا الأسقف مع اندفاع الهواء من فمه، واتكأ بيديه على الأرض منحنياً إلى الأمام؛ فاتسخت جبته الطويلة وعباءته وكماه التي كانت نظيفة جدًّا سابقاً بالثلج القذر، وصارت رطبة. شعر الأسقف أن الطين يلوث وجهه، ولكنه كان بحاجة إلى بعض الوقت لكي يستعيد أنفاسه، وكان يخشى أن يزداد غضب الناس خلال لحظات اليأس تلك.

نجح الأسقف بطريقة ما بأن يصرخ قبل مرور وقت طويل: "اسمعوا، بداية..." وتمكن من النهوض على ركبتيه الضعيفتين بصعوبة، وشعر أنه لن يتحمل اللكز والركل لفترة طويلة. من الواضح أن الخوض بهذا الأمر كان خطأ كبيراً، ولكن المبلغ الذي عرضه السلطان لم يكن من الممكن أن يقاوم. فبفضل هذا المبلغ سيرتاح أفراد عائلته من بعده؛ وصولاً إلى أحفاده. وهو لن يوسع ورشة ابنه للأحذية بفضل هذا المبلغ فقط، بل سيفتح له ورشة

أحذية جديدة. أضاف من عزم الروح: "كل لاتيني ظلمكم في ذلك الوقت نال جزاءه. ومن ظلموكم لم يستفيدوا من أي غنيمة أخذوها من هنا. وباستثناء الأمانات المقدسة التي وضعت الكنيسة يدها عليها، لقد فقدوا كل شيء أخذوه بألف مصيبة ومصيبة خلال فترة قصيرة. ولقد سمع العالم المسيحي كله بالمصائب التي حلّت بهم. وحينئذ أدركوا هول ما ارتكبوه وشعروا بالذنب، ولكن بالتأكيد بعد أن حدث ما حدث وفات الأوان. فقد أصيبوا بأمراض لا دواء لها، وعاشوا مصائب عائلية، وفقدوا إيمانهم وعقولهم، وانتحروا ليتدحرجوا إلى قعر جهنم التي لا قرار لها. بالنتيجة، لم يستطيعوا استعادة توازنهم بأي شكل. بعد ذلك، بدأوا يفكرون بسبب كل المصائب التي حلّت بهم؛ وحينئذ حل عليهم ثقل الذنب الذي ارتكبوه. فاتهموا بعضهم بعضاً، وتولّدت العداوات بينهم، وبدأت صراعات لا نهاية لها؛ سفكوا خلالها دماءهم، وندموا كثيراً. ومنهم من حملوا الغنائم التي حصلوا عليها مشحونين بالغضب من البندقيين الذين دفعوهم إلى ارتكاب تلك الأعمال اللعينة، وأحرقوها أمام منـزل البابا. حينئذ، اضطر البابا إنوسنت للاعتذار عن الظلم الذي ارتكب كله. في الحقيقة، لقد اعتذر على الرغم من أنه ليس مذنباً؛ فهو لم يكن يعرف أن الكلب العجوز داندولو الذي غيّر وجهة الحملة قد اتفق مع المعارضين في القصر البيزنطي".

سدد كاهن أرثوذكسي لكمة على ذقن الأسقف وقال: "اخرس يا غراب!".

وصل رومانللي إلى قناعة تامة بأنّه ينبغي له أن يتصرّف بسرعة وإلاّ فسيقطّع وسط هذا الجمع. يجب أن يقول شيئاً مرتبطاً بالإشاعات السائدة، ويدهش الناس ويشوّش عقولهم تماماً، وينقذ حياته. حرك شفتيه الداميتين اللتين تؤلمانه بصعوبة وقال: "أوروبا كلها عرفت أن إمبراطوركم سيستخدم الأمير أورخان لتمكين سلطته عليكم. إذا تأكدت الهزيمة، فسيجعل الأمير أورخان والياً عليكم مقابل استسلام المدينة. سيكون هذا شرطه الوحيد للاستسلام. سينسحب إلى بيلوبونيز، ولن يجد صعوبة بتعيين أورخان والياً عليكم لأنه ينحدر من سلالة السلطان نفسه. وهكذا، ستستمر علاقته بالقسطنطينية. أصبحتم الآن تفهمون الأمر أكثر، أليس كذلك يا إخوتي؟ لا يطمح إمبراطوركم سوى بإطالة عمر سلطته وسلطة عائلته".

عند ذكر اسم الأمير أورخان خيّم الصمت للحظات، وسرعان ما لف المكان. مهما أنكروا، فهذه آخر ضربة وأقسى ضربة يمكن أن توجه لإمبراطورهم الذي يتعلقون به سراً. في تلك الأثناء، ظهر ميغادوك لوكاس نوتاراس بهيبته كلها تاركاً خلفه ستارة الشمس ومعه نخبة من الجنود، وشق الجمع إلى

نصفين وهو يتقدم. قال رومانللي الذي كان ينتظر هذه الدقيقة من أجل زرع آخر بذوره: "تعالوا يا إخوتي، توحدوا فعلاً حول البابا والكنيسة المقدسة. لا تصدقوا الكذب الذي ينشره غينياديوس في كنيسة بانتوكراتور. اقبلوا الحقائق الكونية الكاثوليكية من أجل سلامتكم وسلامة مدينتكم الجميلة لتحقيق الخلاص اللانهائي، وليس من أجل إمبراطوركم وألعابه القذرة".

قال الحداد بحدّة: "نموت ولا نبيع ديننا".

ظهر الأقرع بجانب العجوز، ومن الواضح أنه اعترف به قائداً. فقد كان يراقبه بطرف عينه لرصد أي إشارة تجعله يبدأ الحركة. وفي تلك اللحظة، حدث ما حدث، ووجد سيرغو رومانللي نفسه فجأة على الأرض مجدداً، ولم يحاول صدّ الضربات المنهالة عليه من جميع الاتجاهات. كان يسمع هدير الجمع الغاضب، ويحاول قدر المستطاع منع الأيدي الغليظة من نتف لحيته وشعره وتقطيع ثيابه. وبعد مرور زمن طويل، وفيما كان على وشك فقدان وعيه، رفعته يدان قويتان، ووضعتاه على سرج حصان احتياطي كان ميغادوك قد جلبه معه. فرّق جنود نوتاراس الناس والكهنة، وأنقذوه. أخذ المنديل المعطر الممدود إليه لكي ينظف الدم عن وجهه وعينيه، وفكر بأنه استحق النقود التي أعطاه السلطان إيّاها، كما خطا خطوة إيجابية جداً من أجل مستقبل المسيحية الحقيقية، وقرّب هؤلاء المنحرفين الرافضين لكنيسة روما خطوة من العقوبة التي يستحقونها.

شعر براحة ضمير كبيرة جعلت دمعتين تتسللان إلى خديه. سمع كلمات نوتاراس المرضية للقلب، ولم يغيّر موقفه الحزين. كان يأمل أن يعتبر البابا هذا الهجوم موجهاً له شخصيًّا، وأن ينفد صبره. ربما سيحصل على وسام البابوية، ولِمَ لا؟

قبل رومانللي اعتذار ميغادوك نوتاراس، وشعر سراً أنه لا يمكنه إلا أن يعجب بذكاء السلطان محمد الثاني. ثمة أمر مميّز لدى ذلك الشاب؛ فبالقوّة والسلطة التي لديه يمكنه أن ينجح بأمور لا تخطر ببال الأوروبيين. طبعاً، إنّ فكرة توجهه نحو روما كما يدعي البعض فكرة فظيعة جداً. ولكن الأسقف العجوز لا يضع احتمالاً بأن يعتزم السلطان على القيام بشيء كهذا. وإن حصل ذلك، فسيجابه حينها من سمح له بتحقيق هدفه متخلياً عن قسطنطينية كل المسيحيين؛ فهو لا يستطيع تحمّل أمر كهذا.

الفصل الثالث
الحـصــار

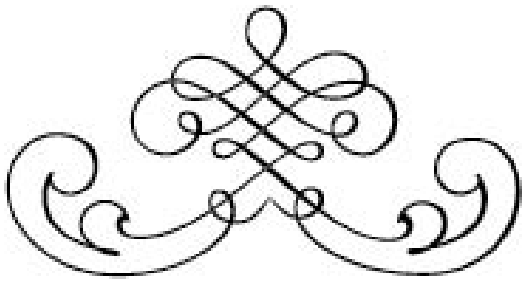

I

"لا ضرورة لكي تخرج من بيتك. لا تنهض من أمام طاولتك، واسمع.
لا تسمع، بل انتظر فقط. لا تنتظر، اصمت، وكن وحدك بالتأكيد. سيأتيك العالم مقدماً نفسه إليك لكي يُسقط قناعه.
ليس أمامه غير هذا؛
وسيلهو أمامك حتى يفقد نفسه".
فرانس كافكا
(أفكار حول الذنب والألم والأمل والطريق الصحيح)
17 آذار 1453 - روما - الفاتيكان
"في تموز من عام 1053 أرسلت كنيستنا المقدسة بعثة يشارك فيها مورموتيرسلي هومبرت إلى القسطنطينية. قدّم هومبرت وثيقة العزل، واعتُبرت الكنيسة الأرثوذكسية منفصلة تماماً عن الكاثوليكية. وقبل مرور زمن طويل، أرسل بطرك القسطنطينية وثيقة عزل مشابهة إلى روما، وبهذا أعلن كل من الكنيستين الكنيسة الأخرى مهرطقة. وهكذا، زرع نهب القسطنطينية عام 1204 غضباً وحقداً بين الكنيستين لا يمكن أن يهدأ. والأكثر إثارة للقلق أن الغضب والحقد صارا بين الشعبين...".
التفت البابا توماسو بارينتوسللي المعروف باسم نيكولاس الخامس إلى الكاردينال لوغي بدريتّي، ثم نهض من أمام طاولته الفخمة المصنوعة من خشب الورد. كان ثمة تعبير تشاؤم على وجهه البيضاوي حاد الملامح. لم يبتسم، بل ذهب إلى النافذة ذات القوس المرتفعة المطلة على الباحة الواسعة المبللة بالمطر، ونظر إلى الخارج. بدا له وكأن قصر القديس جون لاتيران يغط بنوم عميق اليوم؛ إذ لم يكن من الممكن أن يشعر أحد بالخدم الذين يتحركون كالظلال على طول الخلوات ذات الرسوم الضخمة. قطب البابا جبينه وفكر في سرّه: إنني شارد جداً. كان مرتدياً قميصاً قطنياً طويلاً أبيض منسوجاً في إنكلترا، ورداءً خمرياً من الساتان بطانته سوداء، ومعتمراً قبعة مطرزة بخيوط الذهب، وشاعراً بالتعب بعد انتهاء القداس. انتبه فجأةً إلى الشريط الطويل المصنوع من الحرير التركي والمطرز على رأسيه صليب (جنوى)، والذي يلف طرفه على يده اليمنى أحياناً فتوترت أعصابه. أبعده عن رقبته بحركات تعبّر عن نفاد صبره وقال: "بلغتُ السادسة والخمسين يا كاردينال بدريتي. لم أعد كالسابق، أنا الآن متعب. المسلمون الآن منتشرون غربنا؛ في شبه الجزيرة الإيبرية، ومستمرون بوجودهم تحت اسم الأندلس الأموية منذ ثمانية قرون تقريباً. وفي الشرق،

هناك تقدم تركي لا نستطيع إيقافه بأي شكل... وبالإضافة إلى كل هذا، محمد لا يشبه والده. الشاب ذكي جداً، فهو يتظاهر بأنه صديق للطرفين، ويضمر نيته الحقيقية؛ ألا وهي منع توحيد الكنيستين. وهو يلعب بدقة، ويجعلنا دائماً متخلفين عنه خطوة. تصطدم لعبتنا المزدوجة التي اعتقدنا أنها ذكية بلعبته المزدوجة. إما أن يكون لدى هذا الشاب فريق استشاري جيد جداً، أو دهاء قيادي حقيقي...".

تحدث بدريتي بنبرة قلقة: "على العكس تماماً، يقال عنه إنه كتوم إلى أبعد الحدود، ولا يبوح لأحد بما يفكر فيه حتى اللحظة الأخيرة. وهو يضع خططه بنفسه، ويقدّم لمن حوله أسباباً تجعلهم يفكرون بالعكس تماماً، ثم يبدأ بتطبيق خططه بسرعة البرق. يقول الطليان الذين حضروا مجلسه إنّ لديه فضولاً خاصًّا حيال تاريخ روما. وعلى الرغم من ذكائه الحاد وقوة استشعاره إلاّ أنّه حالم إلى أبعد الحدود. يمكن أن يغضب بسرعة، فيفقد برودة أعصابه نتيجة لذلك. وكما تتوقعون، إنه يتخذ قرارات غير صائبة في لحظات كتلك بالتأكيد. ولكن غضبه سرعان ما يهدأ، ويعرض خبرته في تفادي الأخطاء التي ارتكبها بسرعة".

أطلق نيكولاس أنفاسه التي كان يحبسها بهدوء وقال: "وينجح بهذا من دون أن نتمكن من فعل شيء. هل تصدق أن هناك جواسيسَ يعملون لحسابه في البعثة التي أرسلناها؟ عارض الشعب البيزنطي هذه الوحدة منذ البداية، وقد عزل غينياديوس إمبراطورَهم من الكنيسة. قال محمد إنه سيعلن نفسه حامي الأرثوذكسية إذا سُلمت المدينة من دون حرب. وها نحن نجلس مكتوفي الأيدي، فيما هو يمنحهم امتيازات تجارية واسعة، ويعدهم بتخليصهم من الانحراف نهائياً. إذا حاول رعاية الأرثوذكس، فمن الممكن أن يدخل البطرك الذي يدعي المسكونية بقضية اعتبار القسطنطينية فاتيكانَ ثانياً لا قدّر الرب. وسيحصل مستقبلاً على امتيازات كبرى بفضل اختلال التوازنات نتيجة السياسة الدقيقة التي يتبعها".

قال بدريتي بانفعال وهو يرتجف: "إنّ بقاء الأفواه مغلقة، وعدم استطاعة أساطيلنا التجارية الوصول إلى البحر الأسود سيؤديان إلى انهيار اقتصادي كبير، وإلى فقداننا طريق الحرير نهائياً. صار وضع الكثير من المصانع صعباً لعدم قدرة السفن على العبور بسبب الحرب الوشيكة، والكثير منها وصل إلى عتبة الإفلاس، وهي تنتظر بفضول نتيجة هذا الحصار. يستغل الأتراك بمهارة قرابتهم مع شعوب المنطقة ليتحكموا بطريق الحرير والبهارات. كل الطرق البرية والبحرية تحت سيطرتهم، ومن الممكن أن يحكموا علينا ببؤس

أكبر بكثير ممّا نعيشه، ويفرضوا علينا ضرائب لا طاقة لنا بها، ويمكن أن يجوّعونا تماماً... احمِنا يا رب... إذ يخنق القراصنة الأتراك الذين يتزايد عددهم أنفاسَنا في البحر المتوسط. وسفنهم الحربية الخفيفة المنـزلقة على سطح الماء بسرعة مذهلة تأتي في الليل كالأشباح. فهم يشنون هجمات على ولايات شاطئنا الجنوبي كلها وينهبونها، ويخطفون نساءنا وأطفالنا، ويفرضون أتاوى، ويضغطون على السكان، ويخيفونهم ويبيعونهم في سوق النخاسة...".
أخفض بدريتي صوته المشبع بالهمّ، وسأل بهدوء من دون أن يُخفي عينيه المغرورقتين بالدموع: "بمَ تفكر يا صاحب القداسة؟ كيف تنوي أن تتصرف؟".
التفت نيكولاس إلى بدريتي، ثم اقترب من الكاردينال المسن وأمسكه من كتفيه بقوة. وإذا كان وجهه حاد الملامح قد رق بفعل الهموم، فقد رددت القبة المرتفعة ذات الرسوم المذهبة المقدسة صوته كصفعة مدوّية في الظلمة الخفيفة: "بعد هزيمتي فارنا عام 1444، وكوسوفا الثانية عام 1448 صمّت الدول الأوروبية آذانها عن حملة صليبية أخرى. وأنا أعرف أنني لن أجد آذاناً صاغية إن رفعت صوتي منادياً، وأن مكانتي قد تهتز إذا طلبت المساعدة من أجل الأرثوذكس. ينفق العثمانيون مبالغ أكبر بكثير مما تنفقه دول الأدرياتيك وإيطاليا كلها على شراء الأسلحة. لا أحد يرغب في تخريب تجارته الرابحة يا بدريتي، وهم محقون بهذا. طرق التجارة بين أيديهم كما قلت، ومن الممكن أن يجعلونا نعاني من المجاعة ومن بؤس أكبر. أُنهكت فرنسا وإنكلترا بسبب حروب القرن، ولا يبدو أنهما ستنهيان التوتر القائم بينهما. وبالإضافة إلى هذا، إنكلترا على عتبة حرب داخلية. قام المجر حتى اليوم بما في وسعهم، وتعبوا كثيراً. أما إمبراطورية روما الجرمانية المقدسة فتلاحق أحلامها القديمة؛ ولكنها مفلسة تماماً.
انقسمت أوروبا يا بدريتي، أوروبا متعبة وفقيرة ويائسة، ولا تستطيع مجاراة تطور الأتراك بالأسلحة النارية... والأهم يا صديقي العزيز أن أوروبا بعيدة جداً عن وعي وهدف مشتركين. لم نستطع القضاء على محمد عندما كان ولداً صغيراً، وقد بدد آمال أوروبا كلها الآن وكبح اندفاعها بعد أن أصبح داهية من الناحيتين السياسية والعسكرية، ودخل المرحلة الأكثر عطاء في حياته... لقد تمكنت بصعوبة من إقناع فريدريك الثالث إمبراطور روما الجرمانية بأن يقدم إنذاراً. ولكن، بماذا أفادنا ذلك؟ أرسل ملك نابولي إلى شرق المتوسط أسطولاً مؤلفاً من خمس عشرة قطعة للاستعراض. ولكن هذه المبادرات لا تقنع أحداً؛ حتى هم أنفسهم. وأعرف أن الجنويين أمروا حاكم

غلاطة بأن يبقى على علاقة جيدة مع العثمانيين. والبندقيون مهتمون بتجارتهم في شرق المتوسط، ويبحثون عن طرق لتحسين علاقاتهم مع الأتراك، ويحاولون الاعتذار من السلطان على المساعدات التي تخرج من عندهم، ويطمئنون السلطان بأنّ ما يحصل تصرفات فردية، ولا تعبر عن موقف دولتهم. لم يعد أحد يهتم بالدولة التي تدعى بيزنطية، ولا تتعدى كونها "دسكرة" صغيرة".

أخذ نيكولاس نفساً عميقاً، وفكر قليلاً، وتشنجت عضلات وجهه البيضاوي بفعل الهموم: "وأنا انتظرت وحيداً يا بدريتي... ولكن الرب يعرف أنني عملت ما بوسعي من أجل إيقاف هذه الحرب، وسأواظب على ذلك".

"وماذا بالنسبة إلى الجهود العظيمة التي بذلتموها في كانون الأول الماضي من أجل وحدة الكنيستين يا قداسة البابا؟".

"لا يا بدريتي، لا. كانت تلك مبادرة مشوهة لم تحقق الهدف المرجوّ منها، ولم تتقبّلها رعيتنا بشكل جيد. لا نستطيع تحقيق الاندماج بين الشعبين والكنيستين حتى نجعل أولئك المنحرفين يقبلون حقيقة أن الروح القدس جاء من الأب والابن وليس من الأب وحده. أيّ انحراف هو هذا بقبولهم الجانب الرباني للابن، وعدم قبولهم بثالث الثلاثة؛ أي القبول بأن روح القدس آتٍ من الابن أيضاً؟! هل من الممكن أن تخبرني؟ كما أنهم اعتدوا على ممثليّ بوقاحة. غينادیوس العنيد هو من ينظم كل هذا... فقد ضل طريقه تماماً بعد أن كان كلباً مخلصاً للإمبراطور إيونيس الثامن على مدى سنوات. اسمع يا بدريتي، لقد أدى العزل المتبادل بين الكنيستين في تلك الأيام إلى توليد انفعال كبير. ولهذا السبب، لا أحد يأخذ هذه الوحدة المتضمنة موقفاً سياسياً مأخذ الجد. كل ما أستطيع فعله الآن هو أن أبادر ببعض الرجاءات الشخصية، ومع الأسف أعرف أنها غير كافية. لعلنا أخطأنا منذ البداية. فقد ملأنا رجلاً أصيلاً وقوياً مثل قسطنطين الحادي عشر بآمال فارغة. ليغفر لنا الرب، وليقف بجانب أولئك البيزنطيين المهذبين".

"في هذه الحال...".

"تعرف ما نستطيع فعله يا بدريتي. ليس أمامنا حلّ سوى أن ندعو... أصوّب الأشياء التي يمكننا فعلها وأكثرها منطقية هو أن نعمل على عامل الزمن لكي نقوى".

خلع نيكولاس قبعته، ووضعها على سطح الطاولة التي فتح لونها تحت تأثير أشعة الشمس، وأخذ نفساً عميقاً وقال: "على الرغم من هذا، سأقوم بمبادرة باسمي يا بدريتي. أريد منك أن تجد ثلاث سفن كبيرة، وتملأها

بجنود مجهزين بشكل كامل بالأسلحة والمؤن، وترسلها إلى القسطنطينية فوراً. سأدفع نفقاتها كلها من ثروتي الشخصية؛ لأنني على الأقل أثق شخصياً بأن سقوط القسطنطينية سيؤجج طموح الأتراك للتقدم في أوروبا".

ثم جلس نيكولاس وهو يشعر بضيق داخلي فظيع لم يستطع التخلص منه بأي شكل من الأشكال، ولم ينهض عن طاولته حتى بدأت الأجراس تقرع في الخارج من أجل دعاء المساء.

II

23 آذار - 6 نيسان 1453

أدرنة - القسطنطينية

امتطى السلطان محمد خان الثاني حصانه، وانطلق وسط هتافات شعبه؛ بعد أن حيّا جيشه الذي يضم رجال دين وأولياء يقدرهم كثيراً مثل آق شمس الدين، وسلطان آقبيق، والملا غوراني، وعلي جبّة. وكان السلطان قد أرسل وحدات طليعة الجيش قبل أسابيع من إرسال الأحمال. وكان جيشه العظيم الذي ملأ السهول والهضاب يتألف من ستين ألفاً من المشاة، وقرابة أربعين ألف فارس، ومع المتطوعين الجريئين كان عدده يتجاوز مئة ألف.

كان ثمة غجر وقحون يصرون على اللحاق بوحدات الجيش التي كانت تسير بنظام وانضباط يثيران الدهشة، وباعة ساخرون بعرباتهم المليئة بالفواكه والخضار الطازجة. وقد انخرط مع الحشد مغامرون لا يكلُّون من البحث عن الغنى بطرق سهلة، ولصوص نزلوا من الجبل إلى السهل حين شموا رائحة الغنائم، وعاهرات يدّعين أنهن يلاحقن أزواجهن، وراقصات سئمات، وأصحاب ألعاب ملاهي ساحات الاحتفالات، وشباب يرعون مواشي الجيش الكبيرة والصغيرة ويتحركون كالجنرالات ولا يتميزون عنهم سوى بأن شواربهم لم تنبت بعد. كما تقدّم الحزانى والكثير غيرهم تحت أشعة الشمس الفاترة على الرغم من الجو البارد.

كان الإنكشاريون مهيبين جداً بأسلحتهم الفخمة اللامعة، وقفطاناتهم الصوفية الثقيلة التي يخلعونها في أثناء الحرب فتبقى الدروع التي يرتدونها تحتها والمصنوعة من حلقات حديدية. اتخذ هؤلاء الإنكشاريون الذين لا يمكن مجابهتهم أماكنهم أمام السلطان بأجسامهم الضخمة وقبعاتهم الصوفية البيضاء، وتلك القبعات المطوية إلى الخلف والتي تبرق تحت أشعة الشمس. قبل مرور وقت طويل سيخلعون قبعات المراسم، وسيعتمرون الخوَذ. رفعت رايات السلطنة في المسافة التي تفصل بين السلطان والإنكشاريين، وأخرجت الراية الشريفة من محفظتها الذهبية، وأمنت لدى وزراء مقدمة ميمنة السلطان.

في المقدمة سار سيد سادة روملي والصدر الأعظم، وفي الصف الثاني قوات الأناضول، أما في الصف الثالث فاصطف الإنكشاريون أمام السلطان وخلف قوة الظهير، وساروا بالتشكيل القتالي التركي التقليدي نصف الدائري. وكان المتطوعون المنضمون إلى الجيش في الطريق يُسجّلون في قوائم المحاربين المدنيين؛ ممّا أزعج الفدائيين كالمعتاد، وجعلهم يخططون لتحميل هؤلاء

المتطوعين الجزء الأصعب من الحرب. وحسب هذا الترتيب المجرّب طوال التاريخ، تتباعد القوات التركية إلى الطرفين أمام هجوم مفاجئ وقوي من قبل العدو، ثم تطبق على القوات المتوغلة، وتحاصرها، وتقضي عليها بسهولة.

قبل يومين من ولوج الجيش أرض الأعداء، أُرسِلت وحدات طليعة الفرسان الخفيفة. ففي لحظة التماس مع العدو، ستنتشر هذه الوحدات إلى الأمام واليمين واليسار بأسلوب اضرب واهرب، وبهذا ستحول دون تعرض الجيش الأساسي لهجوم مفاجئ، وستنقل إلى الجيش التركي معلومات عن وضع جيش الخصم. وعلى بعد مسافة يوم من تلك الوحدات، سار الحفارون لفتح طريق، أو لبناء جسر، أو لإصلاح ما خربه العدو، ولغرز خوازيق ملونة من أجل الإشارة إلى الطريق. ووراءهم سار مشاة ذوو قبعات حمراء من الشجعان الأناضوليين الأتراك، الذين يسمّون جنود المهام. يتابع هؤلاء المشاة قضية أحمال الجيش، ويحمون السلطان حتى الرمق الأخير. ويسير على طرفي الهلال إلى الخلف حيناً، وإلى الجانب أحياناً فرسان جمع الضرائب من ولايات الأناضول ورومللي.

حين علم وجهاء بيزنطية بتحرّك الجيش العثماني، حملوا أيقونة الأم مريم التي يعتبرونها أقدس الأيقونات، ويؤمنون بشكل مطلق بأنها ستحميهم، وبدأوا يجولون بها على الأسوار.

في الثاني من نيسان، بدأ الإمبراطور قسطنطين هجومه الأول والوحيد على الطلائع التي بدأت تظهر أمام الأسوار كما كان متوقعاً من شخص لديه كرامة مثله. انسحبت الطلائع بعد أن منيت ببعض الخسائر، ثم أمر الإمبراطور بتخريب كل الجسور التي توصل إلى المدينة، وبإغلاق الأبواب بقوة.

في مساء الثاني من نيسان، أُدخِلت أحمال الجيش إلى مسافة عشرة كيلومترات بعيداً عن المدينة. وخلال الفترة الممتدة حتى السادس من نيسان، اتخذ الجيش وضعيته بانضباط ومهارة أدهشا المراقبين الغربيين. ولكي يُفتح مجال للمدفعيات أزيلت الغابات والكروم من أمامها. وبهدف المحافظة على المدفعيات وحمايتها من هجوم محتمل للعدو، حُفرت خنادق على بعد ثلاثمئة متر على طول الأسوار البرية، ووضعت فوق المدافع أقفاص خشبية، وتمترس القسم الأساسي من الجيش خلف المدافع على بعد 400-450 متراً من الأسوار.

تموضعت وحدات الأناضول بقيادة سيد سادة الأناضول إسحاق باشا

ومساعده ولي محمود باشا في الشرق، أي بين طوب قابِ ومرمرة اليوم. كان الباشوان منتصبين على حصانيهما الكحيلين بأسلحتهما المخيفة ودرعيهما الخفيفتين بكبرياء وهما يشعران بالنصر منذ الآن. لم يغضا الطرف عن أي تقصير بالانضباط. وأبدى الجنود طاعة غير محدودة، ولم يتسببوا بأي مشكلة لقادتهم؛ الأمر الذي سيترك بصمة في تاريخ الحروب. وعلى الرغم من أن إسحاق باشا إنسان علمي، إلاّ أن لديه جانباً يجعله تحت تأثير الخرافات أحياناً. فرغم أنه لم يكن إنساناً عاطفياً، إلاّ أنّه كان يحمل معه سهماً مكسوراً من بقايا حرب فارنا التي خاضها مع مراد الثاني. فقد انطلق هذا السهم من قوس فارس استطاع أن يندس قرب السلطان، وفي أثناء قتل الإنكشاريين له صرخ: "houx de flèche Mon"، أي: "سهمي المقدس!".

وتموضعت الوحدات التي يقودها سيد سادة روملي الخال قرجا باشا في الغرب، بين باب أدرنة والخليج اليوم. كان الخال قرجا باشا رجلاً متديناً، وصاحب عزم. شارباه الضخمان، وخطوط وجهه المربع المنسجمة تضفي على حركاته اللمسات الأخيرة، وتجعل منه شخصاً محبوباً ومرهوب الجانب في الوقت نفسه. كانت القصص التي تُروى عنه تتضخم وهي تنتقل من لسان إلى آخر، وعندما يسمعها يبتسم ولا ينبس بكلمة واحدة. سيطر عليه اليأس حين وصل السلطان مراد الثاني إلى حدود الهزيمة لدى مواجهة الجيش الصليبـي في أثناء معركة فارنا، ومع بدءِ الإنكشاريين بالتشتت. حينها، اندس الخال قرجا حاملاً سيفه المجرد بجانب السلطان في اللحظة الأخيرة، وصرخ: "اصمد يا سلطاني. حين يرى الجنود الهاربون صمودك فستتولد لديهم العزيمة على مواصلة القتال، اصمد قليلاً!". وغيّر سير المعركة، وكان مساعداً للسلطان في تلك الخطوة التي خطاها.

وفي بداية السنة، سيطر الخال قرجا على ميسيفري وقومبرغاز وسيلفري وآهيولو وفيزة وبيغادوس مقوياً الأمن حول المدينة. وبالإضافة إلى ذلك، أخذ على عاتقه إصلاح الجسور وحماية المدفع المدعو سلطاني الذي يعطيه السلطان أهمية كبيرة في أثناء نقله.

أما زاغانوس باشا فقد نزل على الرأس الطيني غرب الخليج مقابل المرتفعات المنحدرة باتجاه البوسفور لمراقبة أي تحرك يأتي من مقاطعة غلاطة الجنوية، ولم يعلم السلطان بسبب هذا الأمر. كان تشاندارلي يشعر بالقلق من تقريب السلطان زاغانوس منه، ولكنه يخوض صراعاً قوياً مع نفسه لكي لا يظهر هذا. فهو لا يستطيع ألا يشعر بالقلق من كون السلطان شاباً؛ على الرغم من ذكائه ودرايته الكبيرة.

نُصبت الخيمة السلطانية ذات الزخارف الصينية والبيارق المصنوعة من الكتان الأحمر والقماش القطني الأزرق التركي وعليها الشعار الذهبي يوم الأربعاء في السادس من نيسان على وقع الموسيقى التي عزفتها فرقة المهتران. كانت الخيمة السلطانية في موقع صار اسمه في ما بعد مالتبة قرب ليوكوس بيرم باشا. ويمكن من موقعها ذاك رؤية المشهد الظليل الرائع للأبنية الغرانيتية والرخامية الخالية من التعقيد والمبنيّة وفقاً للأسلوب اليوناني القديم والرومي وسط الضباب. قاد مراد خان الثاني حصار عام 1422 من النقطة ذاتها أيضاً. ونصب الباشوان خليل تشاندارلي وصاروجة خيمتيهما على جانبي خيمة السلطان. وكان تشاندارلي باشا مسروراً جداً من ذلك نظراً إلى كونه قادراً على مراقبة السلطان وتتبّع خطواته كل لحظة، كما شعر بسعادة كبيرة ناجمة عن إبعاد زاغانوس بعد تكليفه بمهمة تافهة نسبياً، وبقائه هو بجانب صاحب الاحتشام وركيزة العالم سلطان السلاطين. إذ يمكن لهذا التطور أن يعكس إمكان التحضير لتصفية زاغانوس.

بعد المراسم التي تابعتها عيون أهل المدينة المُدافع عنها الفضولية من فوق الأسوار، أُشعلت النيران من أجل إعداد الوليمة الكبرى، وعبرت رائحة اللحم المشوي التي تسيّل اللعاب الأسوار حتى وصلت إلى المناطق الداخلية. ولكن الأمر الأساسي الذي أذهل البيزنطيين هو تناهي أصوات القداس الديني الذي يقيمه العناصر المسيحيون في الجيش العثماني إلى آذانهم. هل يمكن أن يكون هذا دليلاً على التسامح الذي يمارسه العثمانيون مع رعيتهم؟ لا شك في أن عدم وجود موقف إلغائي لدى العثمانيين يدفعهم إلى تغيير الأسماء واللغة والدين في البلاد التي يحكمونها كما حصل في روما القديمة يؤثر سلباً على المدافعين. وفور انتباه الإمبراطور لهذا التأثير، نشر شائعة بأن هذا مجرد عرض للتأثير عليهم، ولكن الناس تأثروا إلى درجة أخافت الإمبراطور.

انتشرت خيام الجيش العثماني على شكل مجموعات؛ كل واحدة مركزها ضابط القطاع. كانت مدينة الخيام تبدو من النظرة الأولى منظّمة جدًّا؛ إلى درجة أن أحداً لن يضيع في أثناء بحثه عن خيمته. ولم تكن هناك فوضى في أثناء عملية تنـزيل المؤن والأسلحة المجلوبة وتفريغها، وبدا واضحاً أنه تمّ تطبيق هذه العملية مرات عديدة.

وكانت راية السلطان البيضاء المطرزة بخيوط الذهب وشعاره الرائع يُرَيان من بعيد، وتُفهم أهمية كلّ من الوزراء والضباط المجاورين له بالنظر إلى خيامهم والرايات المرفوعة أمامها. وكان من الممكن رؤية رايات فرسان الجيش النظامي الحمراء، ورايات الإنكشاريين الخضراء والحمراء والصفراء؛

حتى وسط ضباب الصباح. كانت الإجراءات كلّها تتمّ بصمت وسرعة مبهرة للأبصار، ومن دون انقطاع. وكان هذا الهدوء المسيطر على المكان أكثر ما يثير توتّر المدافعين الذين راحوا يراقبون ما يحصل من خلف الأسوار بمزيج من الخوف والإعجاب.

III

4 نيسان 1453 - القسطنطينية

بموجب حسابات كبير وزراء الإمبراطور المخلص جورجيوس سفرانتزيس، بلغ عدد الجنود المدافعين عن اثنين وعشرين كيلومتراً من الأسوار أكثر من ثمانية آلاف بقليل، وغالبيتهم جنود يفتقدون للتجربة. كانوا قد قرّروا تركيز ثقل الدفاع على الأسوار البرية البالغ طولها سبعة كيلومترات ونصف الكيلومتر. أمّا الخليج فمحميّ بالجنـزير، فيما شاطئ بحر مرمرة آمن بشكل طبيعي بفضل تياراته البحرية القوية. ثمة نقطتا ضعف في السور البري، والطرفان منتبهان لهذا الأمر. الأولى في الجهة الشرقية للسور؛ مقابل قصر بلاخرنائي حيث لا يوجد خندق، وحيث السور مؤلف من جدار واحد، وتسمى هذه المنطقة ميرياندروس. والمنطقة الأكثر ضعفاً هناك هي حيث تنعطف الأسوار بزاوية قائمة عند الخليج. وليس من الممكن منذ الآن تحديد مدى فاعلية الخندق الذي حفره سبعون جندياً - ثلاثون منهم كاتالونيون - بقيادة الفارس آغسطس ريزيتللي الذي جاء في أواخر شهر آذار من البندقية إلى غلاطة بإمكاناته الخاصة محضراً معه سفينة شحن، ونقل مساعدات إلى بيزنطية سرًّا. وقف ريزيتللي بوقاحته المعهودة أمام سفرانتزيس وقال: "لولانا ما الذي كان بوسعكم فعله؟" وأبرز أنه محارب وليس حفار أنفاق. وقد تمكن سفرانتزيس الصبور من إقناع ريزيتللي بتقديم المساعدة مقابل تقديم ثلاث عذراوات من أجمل الفتيات إليه، بالإضافة إلى عشرة براميل نبيذ معتقة وفاخرة - أحدثها يرجع إلى خمسة وعشرين عاماً ماضية - وخمسين برميلَ زيت زيتون.

أمّا نقطة الضعف الثانية فتقع بين هاغيوس رومانوس (باب المدفع) وخاريسيوس (باب أدرنة) في نهر ليكوس. إذ تبلغ المرتفعات على جانبي السور ثلاثين متراً، ويدخل نهر ليكوس من تحته ممتداً إلى داخل المدينة. حسب بعض الشائعات، إن جنود دولة أغارثا تحت الأرض يدخلون سراً من أنفاق تمتد تحت النهر، ويخرجون من المرتفع الذي يوجد فيه عمود تشنبرلي طاش إلى ضوء النهار؛ إلى جوار العمود، ويساعدون أهل المدينة حين يتعرّضون لأزمة. وبقدر ما للقديسين دور في مواجهة الجيوش القوية، فإنّ لهؤلاء دوراً أيضاً.

أسس الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر مقر قيادته مع ألفين من نخبة جنوده داخل الأسوار المطلة على نهر ليكوس. وهكذا، أُسس مقره مقابل مقر السلطان الشاب محمد الثاني. وتولى القائد الخبير الجنرال جيوفاني

جيوستنياني وثلاثمئة من جنوده مهمة حماية مقر الإمبراطور. في الحقيقة، كان الإمبراطور يعلّق آماله كلها على تجربة جيوستنياني وخبرته. وقد رأى أن مجيء جيوستنياني لتقديم يد المساعدة لطف من الرب، ورفعه إلى مرتبة القديسين بأدعيته. وكان الجنرال جيوستنياني مسروراً من هذا. فالقيادة العامة بيده، وإذا نجح بالدفاع فسيمنحه الإمبراطور جزيرة ليمني كما وعده، وبهذه المناسبة سيحصل على لقب نبل جديد مصدق من البابا. وإذا ظلمهم إخوتهم الكاثوليك، ولم يرسلوا لهم أي معونات، فلا بد له أن يجد طريقاً للهرب وسط الفوضى التي ستحدث. فقد وجده من قبل، وسيجده هذه المرّة أيضاً. وليس الأمر مهماً جداً إذا لم يجده، فإذا مات فسيحظى بشفاعة الرب غير المتناهية.

إنّ المقاومة كما ينبغي ستحرك المعارضة الصامتة الآن نتيجة حنكة السلطان. ممّا يعني أن الأمور يمكن أن تنقلب على السلطان؛ حتى لو كان قد حضّر نفسه لوجستياً لحصار طويل الأمد. يبدو للجنرال أن مباحثات السلام ستبدأ بعد خمسة عشر يوماً؛ حتى لو لم يحصلوا على أي دعم.

لدى الجنرال جيوفاني جيوستنياني فلسفة حياة يمكن أن تتخذ كمثال، وهو يثق أنها أساس نجاحه. إذ كان ينظر إلى الأمور على النحو التالي: "يمكن أن يُرى الوضع سيئاً جداً، ومتأزّماً، ولا يمكن مواجهته، ولكنه ليس ميئوساً منه نهائياً كما يبدو". وهو يدعو أن يكون الوضع على هذا النحو هذه المرة أيضاً محاولاً كبح قلقه، والتغلب على مخاوفه. كانت قيادة التحصينات كلها بيده، وهو لن يتردد بإهانة الأرستقراطيين البيزنطيين المتكبرين الذين يطأطئون رؤوسهم أمامه في كل فرصة.

تولّى النبيل الجنوي ماوريزيا كاتيناو ومئتان من رماة السهام القسم الممتد من باب بيغي (المنبع) إلى باب الذهب (الأبراج السبعة). أما النقطة الحرجة التي تقع عند التفاف السور تسعين درجة مقابل قصر بلاخرنائي فقد تسلمها الإخوة الإيطاليون باولو وأنطونيو وترولیو بوتشياردو. وكانوا يبثون الطمأنينة في النفوس بأسلحتهم الضخمة ومواقفهم الجريئة. أما البيزنطي العجوز ثيودوروس تشاريستينوس الذي لا يزال يجيد رماية السهام وثيوفيلوس بالايلوغوس فقد تسلما الدفاع عن كاليغاريا (الباب المائل). وسُلّمت مهمة الدفاع عن القصر الإمبراطوري للبندقي بلايوس جيرولامو مينوتو، فيما تولى النبيل البندقي جاكوبو كونتاريني ومئتان من رجاله مهمة الدفاع عن الباب الذهبي (الأبراج السبعة) وما حوله، بالإضافة إلى الساحة التي تحوي الأبراج وتنحدر حتى البحر.

أمّا ميغادوك لوكاس نوتاراس ومئة من فرسانه فكانوا يدافعون عن الشاطئ والميناء حيث يحتشد الأسطول بواسطة مدفعيتهم المحمولة. وكانت حماية حي سانت ديمترس (سراي بورنو) تقع على كاهل الكاردينال إسيدوروس بيزنطي الأصل الذي أرسله البابا ليكون مبعوثاً له. وتسلم الجنويان جيرالوما إيطاليانو ولونارد دي لانغاسكو مهمّة الدفاع عن إكسيلوبورتا (طهطاقابِ) وأسوار أنيماس.

وتولّى قنصل كتالونيا مسؤولية الدفاع عن برج ما قبل ميدان سباق الخيل. فيما أخذ النبيل البندقي الآخر وقبطان السفن الخفيفة غابرييل تريفيسان على عاتقه - مع أربعمئة محارب - مهمة الدفاع عن سور الفنار. أما أندريا ديدو قبطان السفن الحربية الكبيرة فقد كُلف بحماية الميناء الإمبراطوري مع قائد الميناء ألوفيكس دييغو.

وُضِع الأمير أورخان مع جنوده العثمانيين الفارين معه للدفاع عن موقع ميناء ثيودوسيس، وترأس قوات الاحتياط نيسفوروس كانتاكوزيوس وصهره نيكولاس غودليس. فيما اشترك أرستقراطيو الدولة في عملية الدفاع عن بقية الأسوار وصيانتها وترميمها. لقد حل زمن دفعهم ثمن الراحة التي حظوا بها حتى اليوم، ويريد قسطنطين أن يرى مدى شجاعة هؤلاء الموظفين الكبار الذين يجيدون التلوي بين الكلمات المزركشة في المجلس.

IV

10 نيسان 1453

"إذا ضحكت تضحك الدنيا ويحل الصيف. وإذا بكيت تغدو الحياة جبلاً مغطى بالثلج، وحتى السم بيد الصديق يغدو عسلاً، أنا فداء عسلك وسمِّك...".

قال خيري البيلجكي مقطباً حاجبيه: "ها قد بدأ صاحبنا مجدداً".

كان علي يحمل أكياس نترات البوتاسيوم التي يبلغ وزن الواحد منها مئة كيلوغرام بقوته الخارقة ويرميها إلى العربة. كان ينقل ثلاثة أكياس على الأقل فيما يحمّل الآخرون كيساً واحداً فقط لا غير؛ كل ذلك من دون أن يتغير إيقاع تنفسه، وهو يبدو مرهوب المظهر بعروقه البارزة وعضلات كتفيه الضخمة.

قال الريّس مصطفى: "ابني المجنون حساس".

وبعد ذلك، ساعد رجال مجموعة أخرى بحمل قذائف المدفعية الحديدية بسرعة كبيرة بالنسبة إلى رجل بلغ الحادية والأربعين من عمره. لم تبدُ عليه علامات التعب بعد. وحين حان دور كرات سلطاني - وهذه ليست كرات تامة، بل تشبه قطع الصخر، وتبلغ زنة الواحدة منها سبعمئة كيلوغرام - حملها برشاقة. كانت القوافل تُحمّل بنظام يشبه رافعة ذات بكرة بسيطة، ثم تتقدم على الأرض الطينية، وأكوام العتاد ترتفع حولها لتغدو كالجبال.

أما حسين الإزميتي بطوله البالغ مترين، فقد كان يراقب ما يحدث بعينيه المحمرّتين دائماً، من دون أن يتكلم إلا عند الضرورة القصوى. لم يكن يتهرب من بذل التضحيات التي تحبب ريّسه وزملاءه به، ولكن تلك عادته. وعلى الرغم من المطر البارد كالثلج والريح شديدة البرودة، كان قد خلع قميصه ورماه جانباً، فبدا جسمه الطويل جداً والمنحني قليلاً إلى الأمام شبيهاً بشبح يتطاول نحو الظلام. كان حسين يفضّل دائماً البقاء خلف علي حيدر ترجمان أحاسيسه.

أما علي حيدر التشانقري فقد ازداد هلعاً مع اقتراب تحضيرات الحصار من نهايتها بعد أشهر من العمل. وكان يقول دائماً: "هيا يا ريّس! ماذا ننتظر بعد؟ ليتنا نبدأ... لنبدأ لكي نريهم ما الذي تعنيه مواجهتهم لنا، وتوليدهم الفتنة بيننا، وظلمهم المسلمين...".

أخذ الريّس نفساً عميقاً وهو يضحك ثم قال: "اهدأ أولاً يا ولد. بقدر ما تكون الحرب خدعة، فهي صبر أيضاً. ولا يعيش فيها من لا يصبر مثلك".

أطلق علي حيدر صيحة، ثم حمل كرة وزنها ثلاثمئة كيلوغرام وحده في أثناء حصول الآخرين على فترة استراحة.
أنّبه الريّس: "إذا آلمك ظهرك فسترى نتيجة هذه البطولات الفارغة. إذ ستنام في الخيمة فيما سيخوض إخوتك الحرب".
توقّف علي عن العمل للحظة، وجفف عينيه اللتين رطبهما المطر والعرق، ثم سأل: "هل صحيح أن لدى العدو أربعين سفينة مقابل أربعمئة سفينة لدينا يا ريّس؟".
"نعم، هذا صحيح يا بني. ولكن سفن العدو أكثر ارتفاعاً وأكثر تحمّلاً من سفننا، وهي متفوقة بالدفاع والهجوم. أي إن الواحدة منها تساوي عشر سفن من سفننا. إنها متفوقة بكل المقاييس على أسطولنا المؤلف معظمه من سفن صغيرة مزدوجة المجاذيف. ويحقق جنودهم الإصابات بدقة أعلى لأنهم يطلّون على الهدف من علٍ. وإذا ضربت إحدى سفنهم ضخمة الحجم بهيكلها القوي سفينة لنا في قتال الالتحام فستقسمها إلى نصفين، وستمر".
"حسنٌ، أين أسطولنا الآن؟ فالمكان الذي يحتشد فيه أسطول البيزنطيين معروف. البارحة أرسوا ثلاث سفن ضخمة خلف جنـزير الخليج بشكل متلاصق، ونقلت الأسلحة إلى الداخل احتياطياً، وفكت طوافات العمق. يبدو أنهم لا يريدون أن يتأذوا من قصف المدفعية بسبب عدم وجود مجال للحركة".
قال الريّس مصطفى: "يجب أن يجتاز أسطولنا مسافة مئتي كيلومتر من الدردنيل إلى هنا. وبالإضافة إلى هذا، فهو مضطر لمقاومة الريح الشمالية والتيارات. وحسبما سمعت، إن هدفه الأول جزر مرمرة".
ارتسم على وجه علي تعبير دهشة وشكّ فيما كان يجفف وجهه بمنديل سحبه بيديه الشبيهتين بالمجذافين والملوثتين بالطين.
ضحك الريّس مصطفى بصوته الأجش كالرعد وقال: "لا بد أن يستوقفك شيء ما لتتفوّه بتعليق عليه، أليس كذلك يا ولد؟ يدور أربعون ثعلباً في رأسك الضخم هذا، من دون أن يمس ذيل أحد منها الآخر".
"قبطاننا الباشا قائد موهوب بإذن الله. فقد عُيّن عام 1451 قبطاناً للبحار باعتباره سيد سنجق الدردنيل. تدور على الألسن قصص بطولاته حاملاً السيف المجرد في أثناء حملة ميديللي، وتُحكى في جزر إيجه كلها. إنه شجاع وذو قلب كالجمر يواجه المخرز بعينه. والجميع يعرف رحمته، ليس لدى تعامله مع المسلمين فقط، بل مع أبناء الأديان الأخرى أيضاً. بالتأكيد،

هناك مغفلون حاولوا ربط موقفه النبيل هذا بكونه واحداً ممّن حوّلوا دينهم. ولكن معاملة العبيد برحمة تصرف يحبّه الله، وقد أوصى به رسوله. أعتقد أنه ليس هناك من لم يسمع بقصة الروميين المساكين الثلاثة عشر الذين أنقذهم من قبو معبد وجده وهو يتقدم في عمق جزيرة ميديللي عام 1449 في أثناء حملته عليها".

سأل علي: "وما هي؟". وكانت المدفعية قد بدأت ترشق قذائفها مجدداً، فيما استمر المعماريون بالعمل على تثبيت المدافع الكبيرة في المواقع الأنسب. ولم يسلب رعد مدفع السلطاني الشبيه بالصواعق العقول من الرؤوس بعد.

بدأ الريّس مصطفى يروي القصة بأسلوبه المعهود: "بدا المعبد للباشا ومقاتلي البحرية مهجوراً في البداية". ثم أخذ نفساً عميقاً، وتنحنح قبل أن يتابع: "ولكن بعض الآثار التي رأوها في الحديقة المخربة جعلتهم يعتقدون أن هناك جماعة ما في الداخل، وأنها تنصب لهم كميناً. لم يخطئوا، فقد كان هناك بعض الناس؛ ولكنهم لم يكونوا جنوداً كامنين، بل أسرى مساكين".

سأل علي وهو يرفع إحدى الكرات العملاقة إلى كتفه: "لماذا كانوا متواجدين هناك يا ريّس؟".

لوّح الريّس مصطفى بيده بتململ وقال: "اصبر يا بني. حسبما قال السكان المحليون، كان هناك معبد صغير أسّسه أتباع معتقد معين قليلو العدد، وكانوا يعتكفون فيه ولا يختلطون مع الآخرين كثيراً، ولكنهم يعاملون ضيوفهم وزوارهم معاملة حسنة. وعلى رأسهم رجل مهيب لحيته بيضاء وطويلة، وعيناه الزرقاوان تقدحان شرراً على الرغم من تقدمه بالسن. كان ذلك الشيخ كبير رهبان القرية، وهو معروف لدى السكان ومحترم ومرهوب الجانب قليلاً. وكان يتصرف بتهذيب وكرم مع مقاتلي بحريتنا في كل زيارة، ويلبي فوراً كل طلباتهم عندما يبيتون في الجزيرة. وفي بعض الأيام، كان يتم إشعال نيران تُرى من شاطئ الأناضول، وتُقام ولائم تسيّل اللعاب. وكان شبابنا الذين يعرفون مدى تعلّق أهل الجزيرة باللهو يشاركون أحياناً بحفلاتهم الموسيقية الغنائية، ويمرحون ملء قلوبهم. ولكن ما روي هذه المرة جعل كل القلوب ترتجف؛ حتى قلوب مقاتلي بحريتنا الحديدية. فقد بدأ أتباع المعبد الجديد في الجزيرة بنشر معتقدهم المنحرف بين الناس. وكسبوا مريدين كثيرين من أساطيل البندقية وجنوى التجارية".

سأل علي حيدر: "أي إنّ أتباع ذلك المعتقد راحوا يزدادون باستمرار، أليس كذلك يا ريّس؟".

كان كل من يحصل على فترة استراحة يقصد المكان حيث يجلس الريّس متربعاً على الأرض الجافة فيما الريح الباردة تعصف، فشكّل المجتمعون حلقة حوله. وقبل مرور وقت طويل، بدأوا بارتشاف مغلي الزيزفون الذي يتصاعد منه البخار، ونسوا تعبهم لدى استماعهم إلى قصة الريّس التي استمعوا إليها سابقاً مرات كثيرة، والتي بدت رغم ذلك وكأنها جديدة لكثرة التفاصيل التي تضاف إليها أو تحذف منها.

"لا أعرف متى اكتشفوا بالتحديد أن هذا المعبد ينشر عقيدة منحرفة. ولكن، لم يعد أحد ممّن اتبعوا تلك العقيدة إلى الحياة التي تركها خلفه. وتعتمد تلك العقيدة المنحرفة التي كانت سرية في بادئ الأمر قبل أن يبدأوا بالإعلان عنها بوقاحة - بعد الجرأة التي اكتسبوها نتيجة ازدياد عددهم - على نوع من عبادة الأصنام. ولكن ما يثير الغضب أكثر أنهم يعتبرون إلهة البحار التي يسمونها داغون، والمنحوتة من حجر أخضر كصنم عملاق كبيرة آلهتهم. لا أحد يعرف كيف ومتى وصل ذلك الصنم العملاق الفظيع إلى هناك. حسب الأسطورة، يُقال إنهم استيقظوا ذات صباح فوجدوه في حديقة معبدهم. ومع مرور الزمن، ازداد عدد أتباعهم. ومع ازدياد عدد الأتباع، ازداد صخب الطقوس. ولكن الناس انزعجوا من الصنم، وطلبوا من أولئك الأتباع إزالته، غير أنهم لم يستجيبوا لمطلبهم؛ ممّا أدى إلى نشوب شجارات بينهم وبين شباب يقيمون في قرى مجاورة. وللحيلولة دون توسع تلك الشجارات تدخل العقلاء منهم، ولكن السلام والكلام انقطعا تماماً بينهم. وقبل مرور وقت طويل، واجه الجنود الذين كانوا يحققون بقضية فقدان شابين حقيقة فظيعة. فقد كانت الحديقة حول الصنم حقلَ جثث. وبعد انتهاء التحقيق الذي تابعه الأمير شخصياً تمت تبرئة أتباع المعبد كلهم. ولكن إفادة الأسرى الذين أنقذهم بلطة أوغلو باشا بينت أن شقيق الأمير نيقولا غاتيلوزينو من أولئك المنحرفين، أن أبعاد المراسم التي يقيمونها وصلت إلى حدود تقديم قرابين من الناس".

تمتم الإزميتي وقد جحظت عيناه الحمراوان كثيراً: "هل يمكن أن يكون هناك انحراف أكبر من تقديم الناس كقرابين؟".

"هذه عادة فظيعة موروثة منذ زمن قديم جداً. إنها ممارسة لبعض الطرق الشيطانية التي ما زالت مستمرة في بعض مناطق بلاد الرافدين وجزر إيجه".

"وماذا حصل بعد ذلك يا آغا؟".

"بعد ذلك، وجد الباشا بلطة أوغلو وكر غالبية أولئك المنحرفين وداهمه

وأسرهم جميعاً. تعرّف المساكين الذين أنقذهم على المجرمين فوراً. وبعد المواجهة، اعترف البعض بجريمتهم، وقطعت رؤوسهم فوراً، وأبقى الباشا على بعضهم الآخر من أجل الحصول على فدية. وقبل مرور زمن طويل حدث أمر لا يصدق، فقد وافق أمير ميديللي نيقولا غاتيلوزينو على دفع مبلغ الفدية الضخم، ولكنه لم يوافق على إغلاق المعبد وعلى إعدام الأتباع، بل على العكس، فقد طلب إطلاق سراحهم، وأصر على الأمر على الرغم من شرح الباشا بلطة أوغلو للموضوع، فاضطر للموافقة".

سأل علي حيدر: "لماذا حمى الأمير أولئك المنحرفين يا ريّس؟".

"لا نعرف سبب هذا يا بني. يبدو أن ما يدبرونه هناك أكبر من توقعاتنا بكثير. وبرأيي، يجب أن يكون أول عمل لنا بعد الفتح هو تنظيف جزر بحر إيجه وشواطئه من أولئك الخارجين عن الطريق".

وبعد موافقتهم على ما قاله الريّس، أمسك الرجال برسن حصان مراسل ظهر بجانبهم وقال: "تُجهز مرابض قوية مقابل الأماكن الضعيفة في السور يا ريّس. وهناك حاجة لمزيد من الرجال في المرابض التي نصب عليها مدفع كبير ونحو عشرين مدفعاً صغيراً لأن أنظمة المنجنيق المكملة لنظام المدفعية على وشك أن تنجز. وبالإضافة إلى ذلك، لقد تمّ إعداد مواقد الفحم من أجل صب مدافع جديدة، وصيانة تلك التي تخرب. ستذهب مع عشرين عنصراً إلى مدفع سلطاني مقابل باب هاغيوس رومانوس. وأنتم محظوظون لأن سلطاننا متمركز هناك. ومن الممكن أن يمنحكم "إكرامية" ورتبة خاصة مقابل خدماتكم".

سأل الريّس مصطفى: "وماذا عن بقية المدافع؟".

"وُضع أحد المدافع الكبيرة مقابل السور المؤلف من جدار وحيد عند قصر بلاخرنائي، ووضع آخر في النقطة نفسها. المشكلة تكمن في السور الذي ينعطف تسعين درجة. وأعرف أن واحداً آخر قد وُضع باتجاه باب النبع في الجنوب. ونُصبت عدة مدافع ضخمة على طول نهر ليكوس. يعلم الله أن الوضع سيكون ملتهباً هناك يا ريّس مصطفى".

سرت موجة فرح بين جنود الريّس مصطفى. فهذا يعني أن اليوم المنتظر لاستخدام المدافع التي يسمونها الدب وأفراخه قد حلّ، وسيكون بعض المحظوظين الذين سيداعبون فراء الدب منهم.

صرخ الريّس مصطفى بجنوده فرحاً كالأطفال: "سنذهب فوراً".

تخرج كعادتك في مسير لا ينتهي وسط الظلام الدامس. لم تعد تفاجئ الحراس الذين يجدونك أمامهم فجأة، ولكنك تدرك أنهم يرتعشون من نظرتك المفكرة والشاردة دائماً نحو البعيد، ومن وقع قدميك القوي والحازم، ومن حشرجة أنفاسك. يسرّك خوفهم منك، واحترامهم لك. تظهر بسرعة تدهش الجميع؛ حتى أولئك الجنود الذين يتابعونك من بعيد في الوديان المظلمة والواسعة مقابل المدينة المغطاة بالقناديل، وفي الأحراش المهيبة سامقة الأشجار، فتقطع أنفاسك أحاديثهم. تفكر بقلقِ أعدائك، وهم يتقلبون على أسرّتهم والذين لا يريدون عداوتك. تعرف أنهم ينهضون صباحاً من نوم قلق تقطّع مرات كثيرة، وهم يشعرون بالتعب، وقد تعرّقت أكفهم معتقدين أنهم مرضى. تشعر بأن قلوبهم تخفق بسرعة أكثر من المعتاد، ويطول قلقهم مع طول الحصار، ويفقدون مقاومتهم، وتحلّ محلها نظرات خوف ويتنهدون. تشعر بهذا، ولكن يداً سرية تتدخل بفرحك، وتسكتك... تشعر وكأنك تسمع همس المعارضين سرًّا. تهمس الريح بأذنك أنهم مجتمعون في زوايا مدينة الخيام المعتمة ليتناقشوا ويستمعوا إلى الاستشارات. تفكر بما سيفعلونه لو خرجت أمامهم فجأة ذات ليلة، وكيف سيصابون بالهلع ويقفون مرتجفين أمامك، وكيف سيرتمون على أطراف قفطانك، فيما أنت تبتسم.

تتململ حين تجد نفسك على عتبة النصر الذي تحتاج إليه لكي تجرّ الناس خلفك، ولكنك تشعر بأنك ستفشل إذا لم تحسب كل خطوة تخطوها بشكل دقيق. حينئذ، ترتجف وكأنّ سكيناً جليدية تدمي قلبك من دون أن تُشعر أحداً، أو تعتقد أنك لم تُشعِر أحداً؛ لأنه لا أمل آخر لك، ولا حامي آخر لك، فأنت سلطان العالم، وأوامرك لن تكون مؤثرة إن حصل أي فشل. تعرف أن أعداءك الماكرين المتظاهرين بأنهم يؤيدونك في الحرب سيغيّرون تكتيكهم لو فشلت، وسيحمّلونك مسؤولية الهزيمة كلها. تعرف أنهم سيكونون شركاءك بالنصر، ولكنهم في لحظة الفشل سيقولون: "نحن حذّرناه ولم يستمع إلينا. لم يستمع إلينا لأنه صغير، ولأنه عنيد، ويعتقد أنه يخوض مغامرة".

نعم، هذا صحيح. ولكنك الآن تعرف أن عليك أن تتصدى لكل ما يجري بصبر، وأنك مصيب في ما تفعله. فأنت وحيد ولكنك جريء، وتخاف ولكنك لا تستطيع الهرب. تريد أن تنسحب وتذهب ولكنك تقاوم. أنت تعرف أنه يُنظر إليك بغيرة وخوف وأمل، نعم بأمل. هيا عد، عد إلى خيمتك

السلطانية، ونم قليلاً... نم لكي يبرق ذهنك. منذ متى وأنت تشتهي ذلك النوم، وإلا فإن عقلك سيخذلك في منتصف الطريق. وإذا تعرضت لخيانة جسدك، فلن يبقى لديك غصن واحد تتعلق به.

تستوعب عبارات الحكمة التي يقولها الكبار الذين يجتمعون في خيمتك السلطانية ليلاً، وتتقبل حالاتهم الحماسية والظالمة أحياناً، ونظراتك الهاربة، وارتباط لسانك أمامهم بيأس. تقاوم كي لا تنسى نصائح أولئك الكبار الذين لا يخافون أحداً غير الله، وتحارب نفسك. تشعر بالغضب لاعتقادك أنهم لم يفهموك، ولكنك تصمت بأدب، وتكوّر قبضتيك بغضب طفولي لم يبارحك بأي شكل. ما زلت تشعر بأن الملا غوراني سيُخرج قضيب القرانيا وقد رسم على وجهه تعبير الغضب.

تهزك معرفة أن سلطنتك وغضبك اللذين يرتجف العالم أمامهما لا تأثير لهما فيهم، ولكنك تسكب دموعك بتأثير محبتك غير المحدودة لهم؛ لأنهم يسمون بروحك، ويذكّرونك بأنك عبد ولست خالداً. وحينها، ترى أن سلطنتك لا تساوي شيئاً مقارنة بما يملكونه وتستغرب. أنت مفعم بالخشوع، تبتعد عن همومك ومسؤولياتك، وتنتعش ببرودة المطر الذي يجعلونه يهطل في قلبك، فتبتسم. هذا ما يجب أن يحدث دائماً...

ينصحك آق شمس الدين والملا غوراني وسلطان آقبيق والملا فناري وأمير بخاري وعلي جبّة وقرة شمس الدين السيواسي وخطيب زاده والولي أنصار والملا الحاج خير الدين والملا سراج الدين والكثير من أحباب الله بأن تكون رجل رحمة، وسيفاً مشرعاً بوجه الظلم. كل كلمة تخرج من أفواههم تفجر داخلك ينابيع حكمة وسرور، مياهها شافية، فتعتقد أنك ستكون جندياً كما يريدون، وتقسم... وعلى الرغم من هذا، تخشى أن تقسو أحياناً فجأة من جرّاء تحمّل العبء المدعو سلطنة. قلبك يريد أن تكون صوفياً بسيطاً على عتبة واحد من هؤلاء الأولياء الذين يفعلون ما بوسعهم من أجل توجيهك نحو الصواب والصلاح والجمال. همّك الوحيد عندما تستيقظ لأداء صلاة الفجر السعي لكي تكون عبداً صالحاً، وألاّ تنسى القيام بعباداتك في وقتها. وهكذا، تتخلص من نظرات غير المدركين، ومفتقدي الشخصية، والبائسين، وناكري الجميل الذين يضعونك دائماً فوق الهموم والرغبات نتيجة عزم السلطنة المفعمة بالغيرة.

* * *

دخل محمد خان خيمته بعد أن مرّ بين الإنكشاريين الذين يقفون عند الباب، ويبدون أكثر رهبة وسط الظلام. كان أستاذه الذي يعتبره أغلى من

روحه حضرة الولي آق شمس الدين جالساً على مقعد في البهو الأمامي مترقباً. وكانت الحرارة المنبعثة من الموقد الموضوع في إحدى الزوايا تدفئ البهو كله. وكانت هالة من النور المنبعث من القناديل تغطي جسم الشيخ الملتف بالأبيض فبدا وكأنه خارج من حلم. سرت في جسم السلطان قشعريرة قوية، فتسمّر في مكانه لا يعرف ماذا يفعل.

قرأ محمد قبل ليلة الأقسامَ التي أشار إليها من كتاب حضرته الشهير مادة الحياة. وكما يحدث معه في كل مرة، فكر بنظريته القائلة: "من الخطأ الاعتقاد أن الأمراض موجودة في الناس. إذ تنتقل الأمراض من شخص إلى آخر بواسطة بذور صغيرة لا تُرى بالعين المجردة". واستغرب. ولكن هذا لا يعني أنه غير مقتنع بأن أستاذه محقّ. ويرى حضرته أيضاً أن السبب الرئيس لتقديم أوروبا وحدها خمسة وعشرين مليون حالة وفاة في أثناء الوباء الكبير الذي انتشر بين عامي 1347-1351 هو وضع المرضى في غرف مغلقة لاعتقادهم أن المرض يأتي مع الهواء. فقد اشتد الفيروس كثيراً في وسط خانق أهملت فيه النظافة تماماً إلى درجة أنه - خلال فترة قصيرة بلغت أربع سنوات - أودى بأرواح خمسة وسبعين مليون شخص.

كانت كنيسة روما الكاثوليكية المهتزة مكانتها يائسة، وبدأت تغض الطرف عن الكثير من الممارسات الغريبة، ومنها ممارسات تلك المجموعات البربرية المسماة السيّاط. فأولئك المتوحشون يضربون المرضى بقسوة محاولين إخراج الشياطين منهم، ويتوسلون الشفاء بأساليب لا يقبلها عقل. وتعرّض مسلمون ويهود ومتسولون ومشرّدون لإبادة جماعية فورية بسبب الاعتقاد أنهم سبب انتشار هذه الآفة.

المجموعة الأخرى التي اعتبرت مسؤولة عن انتشار المرض هي مجموعة العجائز والشيوخ والأرامل. فقد اعتقد البعض - بالاتفاق مع رجال الدين - أن هؤلاء الأشخاص سحرة، ودخلوا بشراكة ملعونة مع الشيطان لتخريب النظام الاجتماعي بهذه الكارثة الفظيعة، وإحلال جو من التوتر. وقد قضوا على حياة القطط وأزالوها من الوجود تقريباً لاعتقادهم أنها مسؤولة عن المرض. وبموت هذه الحيوانات عدوة الفئران الأكثر شراسة، هُدم بالطبع أول سد في وجه المرض. إذ إن الفيروس كان ينتشر بواسطة روث الفئران، وبقتل القطط لم يعد هناك أي عائق يحول دون انتشار الفيروس.

يُشدّد آق شمس الدين على أهمية النظافة باعتبارها العامل الأساسي الذي يحول دون انتشار المرض، ويثبت طرحه هذا بعرض مختلف الأمثلة. وكان حضرته يبدو بلباسه الأبيض ولحيته البيضاء نُصب نظافة مادياً ومعنوياً.

قرأ محمد كتاب جيوفاني بوكاتشيو المؤرخ سنة 1353 عدة مرات، وأدرك تماماً تغير النسيج الاجتماعي والفكري الأوروبي بشكل جذري بعد سنوات الموت الأسود. اعتياده على القراءة جعله متقدماً على الوزراء المسنين أصحاب الخبرة، وقويّ الاستشعار، ومشحوذ الذكاء.

غدا المجهول القادم من احتمال انتشار الموت الأسود في كل لحظة نقطة تحول بالنسبة إلى الإنسان الأوروبي. فظهر نموذج إنسان يهتم أكثر باللحظة التي يعيشها، ويدرك المجهول القادم غداً، ويتشاءم من المستقبل، ولا يثق بنفسه، ولكنه يشعر بالسعادة أكثر من أي وقت مضى. في أثناء تحليله نموذج هذا الإنسان الجديد مع أستاذيه آق شمس الدين والملا غوراني، ذات يوم، قال آق شمس الدين: "إنه نموذج الإنسان الأكثر إدراكاً وتفهماً، ولكنه الأسرع انهياراً لعدم ترسخ التوكل في داخله". وقد وافقه الملا غوراني على هذا.

* * *

حين رأى آغا الخدمة الداخلية الذي كان يقف إلى جانب آق شمس الدين منتظراً أوامره أن السلطان عاد أبكر مما كان متوقعاً، قفز إلى الأمام بسرعة جعلت لهيب القناديل يرتجف، وكادت تطفئه وهو يقول: "شرّف أستاذكم المحترم قبل ساعة تقريباً يا مولاي، وقد عُمل على إرضائه في فترة غيابكم". وقدّم التحية، ثم انسحب إلى وسط الظلال بسرعة، واختفى.

ينفعل محمد منذ طفولته، ويشعر بمغص في معدته لحظة رؤيته أستاذه، ويحاول تقبيل يده، فيسحب أستاذه يده دائماً، ويحول دون هذا قائلاً بنبرة وقار: "السلطان لا يقبّل يداً".

"تفضَّل يا أستاذي، ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟".

أجابه آق شمس الدين: "ما جئت طالباً إيّاه ليس من أجلي فقط، بل من أجل العالم الإسلامي كله".

"فلتأمرني يا أستاذي!".

"أستغفر الله. أرغب في استشارتك بقضية كنت أتابعها منذ أسبوع يا سلطاني".

"تفضَّل يا سيدي".

"لنخرج في مسير قصير بداية".

"فوراً يا سيدي".

خرج الرجلان معاً إلى وسط الظلام، وبدآ المسير.

الفصل الرابع
الاكتشاف

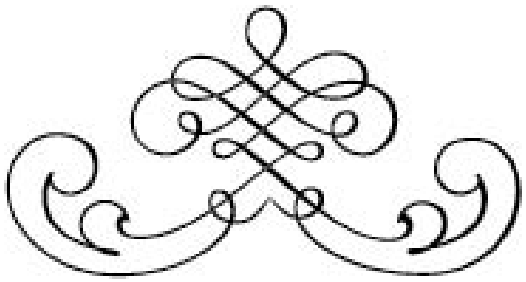

I

"اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحرسني".

النبي محمد ((ص))

13 نيسان 1453

أعطى إمبراطور روما قسطنطين الأول - واسمه الحقيقي جايوس فلافيوس فاليرويوس قسطنطينوس - أهمية كبرى لازدهار المدينة التي اعتبرها عاصمة ثانية له، وأطلق عليها اسمه. فقد كان يرى أنه لا يمكن بعث الإمبراطورية الرومانية بواسطة مؤسسات روما القديمة المتفسخة. أمّا بيزنطية، بموقعها الفريد على طرق التجارة بين الغرب والشرق، فتمثّل مركز إدارة مناسباً جداً. في 13 أيار 330 أعلن بيزنطية عاصمة جديدة لإمبراطورية روما، وأمر ببدء عمليات الإعمار فور إطلاقه عليها اسم Roma Nova روما الجديدة. وكانت الفترة الممتدة بين عامي 330 - 337 فترة إعمار المدينة بكل معنى الكلمة. كما أمر ببناء قصره بالقرب من أهم مَعْلَمَيْن في المدينة وهما مضمار سباق الخيل، وأياصوفيا التي سيفرغ من بنائها عام 537. وسُمّي هذا القصر الذي استخدم بين القرنين الرابع والثاني عشر القصر الكبير أو القصر المقدس.

واعتباراً من القرن الثاني عشر انتقل أباطرة بيزنطية إلى قصر بلاخرنائي المطل على الخليج. عاشت المدينة فترتها الذهبية حتى الاحتلال اللاتيني. وكانت المدينة الجميلة والمفعمة بأسرار تصلح لتكون مواضيع حكايات تأوي بين ظلالها أكثر الأسماء قداسة، والتي تتردد في أرجاء العالم المعروف. وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تعد إلى فخامتها السابقة بعد الاحتلال اللاتيني، إلاّ أنها بقناطرها المائية الرائعة، وقصورها الرخامية، وعمارتها الفخمة ذات التماثيل العظيمة والفريدة من الناحية الفنية تحبس أنفاس محمد العاشق للتاريخ والفن.

في نهاية أسبوع الحصار الأول، سار محمد وآق شمس الدين لفترة في الليلة الباردة التي نثرت نجومها في السماء كأزهار الربيع. وقبل مرور زمن طويل، بدآ يصعدان درباً ضيقاً في هضبة كثيفة الأشجار. ونجح محمد بالعبور بين الأشواك بعضلاته المفتولة وهو ملتف بقفطانه البسيط، وتمكن من اللحاق بأستاذه الذي كان يكتشف الطريق في الظلام بمهارة. ولكنه عندما فكر بنجاح أستاذه بهذا العمل الصعب بسهولة كبرى، ضحك في سرّه وقال: هذا هو أستاذي المبارك. لم يتبدل إيقاع تنفس آق شمس الدين بعد. أما الحراس الخاصون فكانوا يتبعونه تاركين مسافة بينهم وبينه كي لا

يزعجوه، ونجحوا بالتقدم بخفة بأجسادهم الضخمة وأسلحتهم الفظيعة.
بعد فترة، تحولت الأرض الطينية إلى أرض صخرية قاسية. شعر محمد أنه سيواجه أموراً غير عادية هذه الليلة، ولم يستطع أن يحدد ما إذا كان التعب أم الانفعال العظيم ما يجعل ضربات قلبه تتسارع، وصدغيه ينبضان، والبرق الأزرق يقدح أمام عينيه. التفّا حول النباتات المتشابكة بين جذوع أشجار الكستناء والصنوبر اللامعة بفعل الطحالب على الرغم من الظلام. كانا يغوصان في الطين حتى أرساغ أقدامهما أحياناً. تمكن محمد من اللحاق بأستاذه بعد أن التوت قدمه مرة أو اثنتين. وكان الشيخ مستمراً بالتقدم من دون أن يتوقف ولو للحظة من أجل التفكير بالطريق. كان محمّد يلحق بأستاذه من دون أن ينظر أمامه. وقبل مرور وقت طويل، توقف بصعوبة حين كاد يصطدم بأستاذه. كان الشيخ يبحث عن شيء ما في الظلام من دون أن يتحرك.
سأل السلطان بهدوء وهو يرتعش: "ماذا ترى يا أستاذي؟".
بعد صمت قصير، قال حضرة آق شمس الدين: "أنا أرى أشياء على ضفة الخليج الغربية". ولم يُبعد عينيه لحظة عن الظلام.
"خير إن شاء الله يا سيدي؟".
"خير يا سلطاني، وخير عظيم إن شاء الله. منذ بدء الحصار وأنا أُنبه يومياً تقريباً. جررت اليوم إلى هنا كما جررت قديماً بجنـزير ربط برقبتي المتمردة التي لم تشأ الطأطأة أمام تكية الولي الحاج بيرم".
"روحي فداك يا أستاذي. تلطف على هذا الفقير بشرح ما رأيته".
"أظن أن قبر مضيف سيدنا الرسول ((ص)) حضرة أبي أيوب الأنصاري في مكان ما هناك وسط غابة كوسميدون (أيوب)، ويريد أن يظهر إلى العلن".
تحت ضوء المشاعل التي جلبها أغوات الإنكشارية، بدت الظلال تلفّ الغابة التي خلفهما والوادي العميق أمامهما الذي تهب فيه ريح قوية. بدا له وكأن الريح التي تداعب الأغصان المتبرعمة حديثاً توافقهما الرأي، وفي الوقت نفسه تهددهما.
بعد صمت قصير قال محمد: "نعرف أن قبره ضاع بين قبور كثيرة خُربت في أثناء الاحتلال اللاتيني يا أستاذي". ولم يكن قد تخلص بعد من شعوره بالارتعاش. "وفى البيزنطيون بوعدهم الذي قطعوه في زمن قسطنطين بوغوناتس، وحافظوا على قبر سيدنا أبي أيوب، ولكن مع الأسف لم يبد اللاتينيون الحساسية ذاتها. أستاذي، بإمكاننا أن نحفر المنطقة كلها إن شئت، ونحاول التوصل إلى مكان القبر حسب الأدلة التي بين أيدينا".

اعترض آق شمس الدين قائلاً: "هذا سيستغرق سنين".
"حسب المعلومات القليلة التي بين أيدينا، إنّ القبر يجب أن يكون على الضفة الغربية من مصب نهر كيداروس (علي بيك) على الخليج، بالقرب من الأسوار في موقع كوسميديون يا أستاذي. ولكنني أخشى أن البرابرة قد أفسدوا القبر".
هز الشيخ رأسه إلى الجانبين، ولمعت لحيته البيضاء تحت ضوء المشاعل. أراد محمد أن يداعب تلك الشعرات البيضاء الناعمة، ويعانق أستاذه بقوة، ويلجأ إلى حنانه الأبوي الذي يعرف رائحته جيداً منذ طفولته، ولكنه لم يستطع إلاّ أن يتعلق بضوء عينيه العميق والطافح بالمعاني.
وكأن آق شمس الدين قرأ ما يجول بخاطر السلطان الشاب، فمد يده وداعب كتفه قائلاً: "انظر يا بني، حُفِرَ قبرُ مضيفِ رسول الله ((ص)) على عمق ذراعين. يُقال إن البرابرة لم يحفروا إلى هذا العمق، وانشغلوا بالقبور المجاورة التي يسهل الوصول إليها، واكتفوا بتخريب قبره فقط؛ وأنا مقتنع بهذا لأن البرابرة لا قدرة لهم على الصبر. من المحتمل أنهم خربوا سطحه فقط، وبعد أن نبشوا الأرض قليلاً أدركوا أن تعبهم فيه لا فائدة منه، وفكروا أن رفاقهم قد أخذوا الغنائم، فتراجعوا". وقطّب حاجبيه وهو يتابع: "ثم ظهر نبيل يدعى ألفونس دي غارسيا، وأمرهم أن يوقفوا هذه الوحشية، فداسوه بأرجلهم، وضربوه، وحاولوا تقطيعه بأيديهم. وأعرف أن غارسيا هذا دعا وهو ينظر إلى قبر مضيف رسول الله، ونجح في ذلك اليوم بالوصول إلى سفينته ورجاله. وأعرف أيضاً أن البرابرة قد خبأوا الأمانات المقدسة هنا لفترة بجانب القبر من دون سبب، ثم ذهبوا متوجسين من دون أن يلمسوه. وقد جلبوا العذراوات اللواتي خطفوهن من الأديرة إلى هنا بدافع شعورهم بالأمان في هذا المكان، ولكنهم سرعان ما أطلقوا سراحهن من دون أن يلمسوهن بدافع الشفقة، وساعدوهن على الوصول إلى غلاطة. أشعر أنهم هم أنفسهم لم يكونوا يعرفون سبب توحشهم بتلك الطريقة، وسبب غضبهم وممن هم غاضبون. ولأنهم كانوا متأكدين من ارتكابهم ذنباً كبيراً - نعم، لعل هذا هو السبب فقط - كانوا يتصرفون بحقارة بدافع خروجهم عن جادة الصواب، وغرقهم بمستنقع القذارة. أراهم متحلقين حول القبر الذي لا يعرفون صاحبه وهم يبكون نادمين. أسمع أنينهم وانتحابهم. ولقد توسلوا طالبين العفو عمّا ارتكبوه في حق الأبرياء الذين قطعوا رؤوس نصفهم، ونفوا نصفهم الآخر ببيعهم في سوق النخاسة، فعلوا ذلك إلى جوار هذا القبر وليس أيّ قبر آخر، فهم لم

يأتوا إلا إلى هذا القبر... ما هزّهم أساساً أن النائم في هذا القبر لم يكن من أتباع دينهم. كانوا يعرفون أنه عربي جاء لفتح المدينة، ولأنهم يهتمون كثيراً بمعرفة أعدائهم، كانوا يعرفون أنه مضيف من يسمى خاتم الرسل. لذا، كانوا يأتون إلى هنا، ويدعون من أجل مباركة المحاصيل، وهطول المطر المحبوس، والمواليد القادمين، وسائر الأمور المهمة. كانوا يعرفون في سرّهم من يكون، ويدهشون وهم يذرفون الدموع من دون أن يعترفوا بهذا حتى لأنفسهم...".

بينما كانت رعشة قوية تصعد من أسفل ظهر محمد المتعرق إلى أعلاه، سأل بصوت خفيض: "بماذا تأمرون يا شيخي؟".

التفت المربي آق شمس الدين إلى السلطان بهيبة ترجّف القلوب، وقال: "سنناقش الأمر مع العلماء الآخرين، وسنأتي إلى هنا مجدداً غداً بعد صلاة العصر".

* * *

وفي نهاية يومٍ آخر من أيام الحصار المستمر بكل عنف، الذي أوقع فيه كل طرف خسائر كبيرة بالطرف الآخر، واستمرت فيه محاولات ملء الخندق في بعض الأماكن - من دون تحقيق ذلك بالسرعة المطلوبة - عقد العلماء ورجال الدين وكبار رجال الدولة مجلساً موسعاً. نوقشت القضية بأمر من السلطان، وبفضل حنكته تحقق إجماع بالرأي، فانطلقوا اعتماداً على حدس حضرة آق شمس الدين.

كانت الشمس دافئة في صباح اليوم التالي، والضباب يسدل ستائره على الوديان الممتدة نحو القسطنطينية. وصلوا إلى القمة المغطاة بالأشجار الكثيفة التي تقع على شاطئ الخليج، والتي قصدها السلطان برفقة أستاذه في الليلة الماضية. وبعد أن تناقش آق شمس الدين مع الملا غوراني وسلطان آقبيق، حمل سجادة، وبدأ يجوب المنطقة الواسعة كثيفة الأشجار، والجميع يراقبون. وبعد أن تنقل الأستاذ في أرجاء المكان ذهاباً وإياباً لمدّة طويلة، توقف في مكان قريب من الفسحة الرطبة التي قُطعت أشجارها بهدف الدفاع، والتي تبعد عن الأسوار حوالى مئة متر، ومد سجادته، وصلى ركعتين. ولكنه بعد أن أنهى الصلاة وسلّم، لم ينهض من مكانه، بل أغمض عينيه، وانحنى قليلاً، وبدأ يراقب. مرت نصف ساعة وهو على تلك الحال، واشتدت الريح، ونثرت نقاط الماء العالقة على الأشجار التي تعلوهم. خرجت عائلة سناجب من جحرها، وبدأت تدقق النظر إلى هذا الجمع الصامت بفضول. وتوقف غزال فتي ذو عينين سوداوين واسعتين ومتوجستين من

دون حركة حيث ظهر بين الأشجار. كما ظهر هجرس على مسافة آمنة، وشم الهواء، ثم دخل بين الأعشاب الكثيفة، واختفى. لم يتحرك آق شمس الدين من مكانه بعد، ولم يعط أي إشارة.

وبينما كانت مخاوف محبيه تنمو، سرى فرح سرّي في نفوس معارضيه الذين كانوا يقولون في سرّهم: هذا الشاب يحلم بأمور لا يمكن أن تتحقق إلاّ في الحكايات، ويصدق أولئك الذين يشبهون أبطال الحكايات، ويثق بهم. إلى أي مدى يمكن اعتبار شخص كهذا مناسباً لقيادة دولة؟ يمكن أن يكون آق شمس الدين عبداً ولياً، ولكنْ إلى أي مدى يصح أن يوجّه سلطاناً يفرض حصاراً يجذب غضب العالم كله نحوه، ويجعله ينتظر هكذا وكأنه يسخر منه؟ هل يمكن أن يكون ثمة جواب عن هذه التساؤلات؟ من يعتقد نفسه؟ وإلى أي مدى يصحّ اعتقاده بأنه قادر على إيجاد قبر محي أثره عن سطح الدنيا منذ زمن طويل بأساليب خرافية؟ ولو افترضنا أنه وجد قبراً في الجوار يرجع تاريخه لمئات السنين، فكيف يمكن التأكد من أن هذا قبر الشخص المقصود؟ لقد مضت مئتان وخمسون عاماً على ذلك تقريباً، ومن المحتمل أن تكون الأدلة قد زالت منذ زمن طويل بتأثير هذا الجو الرطب والماطر. لا يمكن أن يصدّق أمراً كهذا إلا الأولاد... الأولاد...

بعد مرور نصف ساعة أخرى، بدأ التململ والهمس والقلق ينتشر بين الجميع؛ سواء أكانوا بعيدين عن السلطان أم قريبين منه. من ذا الذي يجرؤ على جعل السلطان ينتظر ساعة؟ إذا كان هناك ما سيحدث، أما كان يجب أن يحدث منذ زمن من دون أن يُتعب ركيزة العالم محمد خان نفسه على هذا النحو؟ إنه يلهو هنا بدلاً من أن يكون على رأس جنوده...

همس شخص كان يقف قريباً جداً من السلطان محمد: "لقد نام!".

ولكن السلطان لم يكلف نفسه عناء الالتفات نحوه والرد عليه لأنه يعرفه جيداً.

"غفا العجوز ونام. وقد غفا أمام حاكم العالم أيضاً. ما هذه الوقاحة؟ أهذا هو من يحاول تعليم الجميع الأدب؟!".

وافقه المجتمعون الرأي هامسين: "وقاحة... قلة أدب...".

"لنقل إنك لا تخاف من الله...".

"لا تخاف...".

"ألا تخجل من العبد؟".

"ألا تخجل؟".

كان رَفْعُ السلطان قبضته من دون أن يلتفت نحو الخلف كافياً لوقف التنفس وليس الهمس فقط؛ فغضب السلطان الشاب معروف جيداً، ثم إن عدداً قليلاً من الموجودين هنا يعرف أن السلطان يعتبر معلمه آق شمس الدين بمقامه، ولكن السلطان لم يفعل ذلك؛ لأنه لا يريد أن يفقد صبره نتيجة أمر تافه؛ فهو يعرف أن المعارضة قويت جداً نتيجة عدم سير الحصار جيداً في الأسبوع الأول، ويشعر بضرورة تقديم تنازل في سياسته المعتدلة حالياً.

في نهاية نصف الساعة الثانية تململ الشيخ ونهض، وهو يشعر بالطمأنينة التي بدت واضحة على وجهه: "الشكر لله. كتب لي الله الصلاة فوق قبر مضيف الرسول ((ص)) تماماً".

قال محمد بصوت يبعث القشعريرة في الأجساد لشدّة انفعاله وانشراحه: "هنا إذاً. هذا يعني أن مضيف سيد العالمين ينام هنا... سيكون اكتشاف مكانه كفتح القسطنطينية إن شاء الله".

وبدأ كل من شهد الحدث المبارك يكبّر. في هذه الأثناء، اقتلع الشيخ فسيلتي دلب كانتا قد برعمتا بالجوار من دون مساعدة أحد، وغرسهما على طرفي القبر داخل حفرتين حفرهما بيديه من دون مساعدة أحد أيضاً. وبعدئذ، التفت إلى الذين ينظرون إليه بمتعة واهتمام وقال: "الرأس هنا، والقدمان هنا".

التفت السلطان محمد نحن زاغانوس باشا الذي كان يقف إلى جانبه في أثناء هذا الحدث فرحاً وقال: "ليباشر العمال ببناء مقام هنا اعتباراً من الغد. ومع الفتح سنبني جامعاً إن شاء الله. يعتبر هذا المكان منذ الآن مصلى، وسأقيم صلاة الجمعة هنا". ثم التفت إلى تشاندارلي بنظرة مفعمة بالمعاني، وتأمّل خطوط وجه كبير وزرائه المعبرة عن البعد والطافحة بالتوجس والشك وقال: "وأنت أيضاً ستصلي هنا يا خليل الكبير".

وبعد أن صلى الجميع ركعتين، ودَعَوا، تفرقوا بإذن السلطان.

بعد ذلك، انتقل محمد خان في الأرجاء لمعرفة كيفية سير الأمور، وللتأكد من أن كل شيء يجري على ما يرام، وقد برعم الأمل في قلبه الطافح بالسعادة. ولكن مجموعة من العلماء زارته بعد صلاة المغرب في اليوم نفسه، وعبرت له عن قلقها، وعدم اكتفائها بالأدلة القليلة التي دلّت الشيخ على مكان القبر؛ لأن هذه الأدلة القليلة ستولد الشك في نفوس الأجيال القادمة.

قال محمد رافعاً رأسه عن كتاب لاتيني كان يقرأه: "شيخي كبير زمانه".

ولكنه تحت الضوء الكهرماني الذي ينثره لهب الشمع البندقي القوي انتبه إلى القهر الظاهر في عيون العلماء، وشعر بالسرور. كان يعرف هذا الموقف قليلاً من خلال ميله المعروف للحروفية، وكان مصمماً على ألا يجامل مجموعة المتعصبين هذه حتى لو أحزنه هذا الأمر. فقد تعلم وهو يافع أن السبب الرئيس لانتشار التخلف الفكري حيث ينمو التعصب هو انتشار النظر إلى قشور الأشياء فقط والانجراف وراء الأوهام. وقد توقع أنّ هؤلاء لن يقتنعوا بالأدلة المقدمة لهم بسهولة. وعلى الرغم من هذا قال: "أستاذي قطب. وهو مصيب بآرائه، وعين قلبه مفتوحة. أنا شخصياً جربت هذا مرات. ألا تصدقونني؟".

قال الجميع معاً: "حاشاك يا سلطاننا".

بعد ذلك، قال الشاب ذو البشرة البيضاء وطويل القامة المدعو الملا مصطفى: "ولكن الأحلام لا يمكن اعتبارها دليلاً يا سلطاني. ماذا سنقول للذين يأتون من بعدنا؟ هل نقول إن أحد المشايخ اكتشف القبر بتركيز معنوي؟".

أسند السلطان محمد ظهره وقال: "هذا ما سنقوله بالتأكيد".

نظر الرجال إلى عينيه مباشرة بشكل لا يتناسب مع الآداب، وجادلوه بصراحة. هذا يعني أن الأمر صَعُبَ عليهم كثيراً، وهناك بُعْدٌ آخر لم يدركه تماماً حتى الآن.

قال الشيخ الذي يترأسهم بصوت قوي وحازم: "آق شمس الدين عبد أيضاً يا سلطاني".

إذا كان السلطان محمد قد سمع باسم هذا الشيخ ذي اللفة الخضراء والجبة التي تكنس الأرض فهو لم يتمكن من تذكره الآن. إنه شيخ، ولكن... "نحن مع إجراء هذه التجربة مرة أخرى. وهكذا، لن يبقى هناك شك في قلب أحد، وفي هذا الأمر خير لنا جميعاً يا سيدي".

لم يجب محمد لفترة، وجعل مخاطبيه يشيحون بنظراتهم يميناً ويساراً، ويتصببون عرقاً تحت نظراته الحادة، ثم قال: "ليكن هذا. فبما أنكم تختبئون وراء مرة أخرى من أجل الشعور بالاطمئنان، فلنعد الكرة مرة أخرى إذاً". والتفت نحو الباب، ورعد قائلاً: "يا آغا السلاح!".

ظهر آغا الخدمة عند الباب، وأعلن أن آغا السلاح سيأتي فوراً، ثم انسحب. وبعد وقت قصير، دخل الآغا حامل السلاح بكل مهابته، وفي أثناء تقبيله طرف القفطان، قال له محمد بصوت متوازن: "اذهب إلى الخليج سراً. كن وحدك، واحذر من أن يراك أحد. اقلع فسيلتي الدلب المحددتين لقبر

مضيف رسول الله ((ص))، وازرعهما مجدداً على بعد عشرين خطوة من القبر".
"أمرك يا سلطاني".
نهض آغا السلاح فوراً، فناداه السلطان قائلاً:
"انتظر!".
التفت الآغا حامل السلاح، واقترب من السلطان ليأخذ الخاتم اللامع الذي أخرجه السلطان من إصبعه.
قال محمد: "خذ هذا أيضاً، وادفنه وسط القبر بعد أن تقتلع الفسيلتين.
بعد خروج الآغا حامل السلاح، سأل محمد: "حسنٌ، هل يرضيكم هذا؟".
أجاب المجتمعون معاً: "بالتأكيد يا سلطاننا".
وقبل أن يحين موعد صلاة الفجر دعا السلطان محمد حضرة آق شمس الدين إلى خيمته. وبعد أن رحّب بأستاذه ترحيباً يذيب برد الصباح، واستقبله واقفاً على قدميه، رجاه أن يريه مكان قبر مضيف الرسول لكي لا يبقى لدى أي كان أي شك.
وافق آق شمس الدين على طلب السلطان محافظاً على موقفه الهادئ؛ وكأنه كان يتوقع أمراً كهذا. وبعد صلاة الفجر، وبينما كانت أشعة الشمس تتسلل من بين ستائر الضباب البارد، كان محمد خان يتجه مجدداً نحو الخليج مع مجموعة كبيرة من العلماء. وفي أثناء ذلك، استمع إلى ملخص عن سير المعركة أخبره به أحد قادة الفرسان، فأبلغه السلطان أنه سيعود إلى مقر القيادة بعد فترة قصيرة، ونبهه بنبرة حادة إلى أنه لن يتساهل مع أي تراخٍ أو تهاون بالانضباط. ورافقهم طوال الطريق دخان البارود الأزرق، وأصوات انفجارات الحرب القوية والصراخ الشديد. لم ينبس السلطان بعد ذلك ببنت شفة؛ ملتزماً بموقفه الوقور والسياسي المعهود، الذي لا يوحي بشيء لعدوه أو صديقه.
وفور وصولهم إلى المنطقة المباركة، سار آق شمس الدين من دون تردد، وأشار إلى المكان الذي أشار إليه سابقاً: "هنا يا سلطاني. لقد اقتُلعت الفسيلتان اللتان زرعتهما البارحة".
همّ محمد بالاعتذار من أستاذه حين تفضل الشيخ بالقول: "هذا أفضل يا سلطاني". ثم تابع قائلاً: "الذين أعطوكم هذه الفكرة محقون. ولهذا السبب، سأقدم لكم برهاناً آخر. هناك خاتم مدفون بالقبر، ويبدو من طغرائه أنه خاتمكم".
ثم أخرج الخاتم فوراً، وقدمه للسلطان، فالتفت محمد خان نحو الآخرين

وسألهم: "هل هناك حاجة لدليل آخر يا أغوات؟".
بعد أن كان المجتمعون قد حبسوا أنفاسهم طيلة ذلك الوقت لشدّة ذهولهم بالكاد تمكنوا من القول: "لا يا سلطاني".

II

13 نيسان 1453

كان الجنرال جيوستنياني يصرخ برجاله: "لن يُنسى ربيع عام 1453 نهائياً". وكانت درعه قد سحقت من عدة أمكنة، وجرحَت إحدى شظايا صخرة ألقاها منجنيق خده الأيمن. أرخى أحزمة الصدارة الجلدية تحت درعه البرونزية ليرفعها إلى مستوى كتفه الدامية، وسأل: "هل تعرفون لماذا لن ينسى يا أسودي؟".

كان يشعر بألم فظيع في ظهره يقبض على أنفاسه، ولكنه اعتماداً على تجاربه السابقة يعرف أن جسمه سيشهد عدة حالات شفاء إذا لم ينهر ويتراجع، وإذا بقي منتصباً على قدميه. لا يسمى هذا شفاءً بالمعنى الدقيق للكلمة، بل إنه نوع من تغلب الجسم على الألم. يكفي ألا يستسلم الشخص. تابع قائلاً: "لن يُنسى، لن ينسى لأننا هنا، ولأننا حاربنا بشكل يضاهي حرب الإسبارطيين وأبطال روما".

انحنوا جميعاً حين سُمع انفجار صادر من مدفع السلطاني مرة أخرى، وبعد صوت الانفجار الفظيع، شعروا بأن الجدران اهتزت كلها؛ وكأنها تعرضت لزلزال قوي. أصوات المنجنيقات والمدافع ذات العيار الأقل لا تساوي شيئاً بجانب مدفع سلطاني. لذا، شكروا ربهم لأن هذا الوحش الذي يسميه الإغريق Helepole أي مُسقط المدن لا يمكن أن يُطلق سوى سبع قذائف في اليوم. تضرّع جيوستنياني إلى الرب طالباً الحماية لجنوده وللمدينة من ذاك الوحش الذي يُسمع هديره من بعد كيلومترات عن المدينة. وقبل أن يهدأ الاهتزاز ويختفي الهدير من أذنيه، نهض وسط الغبار والدخان وخاطب رجاله مجدداً، ولكنه حين لم يسمع صوته ظنّ أنه فقد قدرته على الكلام على الأغلب. فتح فمه، وضغط على بلعومه فسال من فمه اللعاب الممزوج بالدم على خديه ورقبته من دون أن يخرج صوته. ثم أدرك أن هناك سهماً قد أصاب خوذته ثم انزلق، ولا بد أنه أصيب بصمم مؤقت نتيجة ذلك. في تلك اللحظة، فكر بحال الذين يطلقون المدفع. من الواضح تماماً أن غالبيتهم سيصابون بالصمم بعد الحصار. تراجع خطوة أو اثنتين إلى الوراء، ورفع سيفه وصرخ، وحاول تجميع رجاله في موقعهم.

قبل مرور وقت طويل، ظهر عند باب البرج المنتصب بجانبهم وبات شبه خرب، الرهبان الذين يحملون أيقونة هوديغيتريا المقدسة ومعهم الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر. كان واقفاً بجانب جنوده كمحارب حقيقي شريف،

وهو مغطى بالغبار وغارق بالدم، ودرعه مليئة بالخدوش. كان قد جاب على المواقع الواحد تلو الآخر، وشد القوس بنفسه، ورمى السهام، وحمل الجرحى، وبذل جهداً في صيانة تصدعات الأسوار. كان يبادل جيوستنياني الإعجاب العظيم بالمواهب والاندفاع في الحرب. وجودهما معاً يقوي شعورهما بعدم الهزيمة؛ الأمر الذي ينعكس إيجابيًّا على رجالهما.
كان الجنرال جيوستنياني لا يزال آملاً بأن يطرق الأتراك باب السلام. وإذا كان قد خطر بباله أن يقول هذا، فقد تراجع عن ذلك لاحقاً لدى تفكيره بأذنيه اللتين لا يسمع بهما جيداً. وبدلاً من ذلك، نظر إلى يدي الإمبراطور الداميتين نتيجة حمله الحجارة والصخور والجرحى، وقال لنفسه: "ملك كهذا تليق به أكبر المدائح".

* * *

كانوا غاضبين دائماً، ويعملون من دون انقطاع. وإن بدا ما يقوم به عملَ سخرة فظيعاً، فهو أفضل ما يمكن القيام به من أجل الابتعاد عن ضجيج سلطاني حالياً. فور إدراك القادة عدم إمكانية بقاء حسين الإزميتي بطوله الفارع في ذلك النفق أُرسل إلى الخارج. بدا للحظة أن علي حيدر وخيري البيلجكي سينفصلان. وقبل مرور وقت طويل، بادل علي مكانه الذي في المقدمة مع رفاقه. فما زالت هناك مسافة طويلة للوصول إلى الأسوار، ولا يمكن أن يُسمى هذا التراجع جبناً. حسنٌ، لو سُمِّي هكذا، فهل هناك من لا يعرف أن عين علي تواجه المخرز؟
وعلى الرغم من ذلك، بدأ عمق النفق وظلامه ينهكان "علي" ويؤثران في توازنه النفسي الحساس. ولكنه كان يتقدم متمسكاً بجرأته الصافية التي يعتمد عليها دائماً. ولأنه لم يكن يحتمل البقاء طويلاً في الأماكن الضيقة والمغلقة، كانت عيناه تجحظان كثيراً عندما يضطرب.
ليكن، ما المانع من أن يكون في الخلف إلى جانب صديقه؟ ثم إنه من الصعب جدًّا أن يكتشف أحد أماكن هذه الأنفاق نتيجة الصخب في الخارج؛ رغم أن الجنرال الإيطالي الذي يتعاظم شأنه من يوم إلى آخر ويتردد اسمه كثيراً اكتشف أماكن الأنفاق بدقة متناهية عبر تقنية الدلو المليء بالماء، فحفروا أنفاقاً جديدة مقابل الأنفاق التي حفرها العثمانيون وهاجموهم فجأة، أو أحرقوهم بالنار الرومية، وأنهكوهم. ولكن علياً يقول دائماً لنفسه: "لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين"، وهو يثق أن هذه المرة ستكون مختلفة.
فُهم خلال هذا الأسبوع أن الجنرال الإيطالي المدعو جيوستنياني جريء جداً،

ورأى الجميع تقريباً أن الفتح لن يكون سهلاً طالما بقي فوق الأسوار. حسبما نقله الجواسيس، فإنه يضع تحت الأسوار ليلاً دلاء مليئة بالماء لكي يسمع حفاري الأنفاق بشكل أفضل، ويحدد جهتهم من اهتزازات الماء. كان هذا أسلوب دفاع قديماً ولكنه فعّال. ولم يكن علي حيدر يريد أن يُحاصر في هذا الدهليز الضيق كفأر يقع في مصيدة. يجب أن يحارب في الساحة، في المكان المفتوح. ولكن مع الأسف، إن حرب القلعة أصعب بكثير من حرب الميدان، وتتطلب صلابة نفسية كبيرة.

لا بد من التفكير بهدوء، والتصرف بصبر، وخطو خطوة جريئة عند اللزوم من أجل تجاوز ذكاء القائد المدعو جيوستنياني. الآن ممنوع منعاً باتاً الحديث بصوت عالٍ في النفق. ربطوا لباداً على أقدامهم لكي لا يسمع وقع خطواتهم، وعندما توقف القصف المدفعي، بدأوا بحفر التراب كشطاً بواسطة سكاكين ضخمة. وعندما كانت صخرة تعترض طريقهم، كانوا يتابعون الحفر من حولها. ولكن هذا عمل متعب جداً، وإنهاؤه يتطلب زمناً طويلاً.

سأل علي بهدوء: "لن يستطيع القائد جيوستنياني اكتشاف مكاننا هذه المرة، أليس كذلك يا خيري آغا؟".

قال خيري وهو يفرك عضلات زنديه الضخمة: "لا يمكن الوثوق بجيوستنياني هذا يا صديقي علي. مهما فعلنا، فالرجل ينجح بأن يبقى متقدماً علينا بخطوة".

"تقفز الجرادة مرة، وتقفز مرتين، ولكنها تسقط في الحضن في الثالثة يا خيري آغا".

قال خيري وهو مستمر بحفر التراب الرطب: "مشكلة الجنرال الكبرى حالياً ليست أنفاقنا هذه يا علي. مشكلته الأساسية قلة عدد المدافع من أجل الدفاع. ومن الواضح أيضاً أنه يفتقر لمخزون من نترات الصوديوم. وعلى الرغم من أنه لا يريد أن يُشعرنا بهذا، إلاّ أنّ كثافة القصف تتناقص من يوم إلى يوم. ثم إن معظم محاولاته لضرب مدافعنا ذهبت هباءً؛ فمدافعنا محمية إلى أقصى درجة لأنها خلف ستائر خشبية".

قال رجل ضخم نبت شعره الأسود بمحاذاة حاجبيه الكثين تقريباً: "لا بد من قتل ملكهم أو جنرالهم. لا يمكن أن يُكسر الدفاع في حرب القلاع إلا بقتل قائد هذا الدفاع".

التفت البيلجكي وقال: "أوه إسماعيل آغا، أهلاً وسهلاً".

لم يكن علي يعرف إسماعيل هذا، البالغ من العمر أربعين عاماً، ويبدو أنه صاحب بنية سليمة وقاسية جداً، ولكنه قابله عدة مرات من قبل.

قال مبتسماً: "أهلاً وسهلاً يا آغا. أهلاً وسهلاً أيها شاب، ينادونني إسماعيل الكردي. أبي أحد سادة الكرد وكان يدعى إسماعيل حقي بيك. من أنت؟".
عرّف علي بنفسه، وبدأ يعمل على عدم تفويت أي فرصة للاستفادة من تجربة صاحب المعرفة الواسعة بحرب الجبهات والقلاع الذي يقف قربه. وعلى ما يبدو، إن إسماعيل الكردي صديق قديم للريس مصطفى الذي جاء إلى جانبهم حاملاً كيساً قماشيًّا كبيراً.

III

ركع كل المحاربين الذين رأوا أيقونة هوديغتيريا بجانبهم وسط ركام الأبراج والجدران، وصلّبوا، وأمسكوا بأسلحتهم المميتة بقوة كبيرة استمدوها من الأيقونة من أجل خوض الحرب. لا يغيب عن العيون بالتأكيد استخفاف المحاربين الكاثوليك بأهم الأيقونات من خلال حركاتهم غير الإرادية، ولكن هذا ليس الوقت المناسب للتوتر بينهم. ما علاقة قطيع البرابرة هؤلاء الذين تم جلبهم إلى هنا بسخاء إمبراطورهم من كيس غيره، بالمسيحية الصحيحة؟ وما علاقة تصرفاتهم الدنيئة هذه بالمسيحية الحقة؟! حتى إنهم عندما يصلّبون، لا يشعرون بمدى استهجان الآخرين من وضعهم أيديهم على أكتافهم اليسرى. بعد نقلها من جباههم إلى صدورهم. في إحدى تلك اللحظات، نهض أحد الجنود البيزنطيين، وخلع خوذته لكي يمسح جبهته، ولكنه لم يحتمل هذه الترهات أكثر على ما يبدو، فنـزل برأس الخوذة الحاد على كتف أحد الجنود البندقيين، وكسر عظم ترقوته.

ترددت أصداء هذه الحادثة كثيراً في خطوط الدفاع، ولكن تدخّل الإمبراطور المؤثر حال دون تضخم الأمر، ووقوع مشاكل مزعجة. يُعمل على المباعدة بين جنود المذهبين قدر الإمكان، ويحال دون اختلاط خيامهم معاً. أما في أثناء القتال وصيانة الأسوار، فلم يكن من الممكن الحؤول دون استفزازهم بعضهم أحياناً؛ إلاّ أنهم نجحوا في نهاية الأمر في تفادي ذلك قدر المستطاع.

بناء على اقتراح جيوستنياني، تم تحضير خليط غريب من الكلس والغضار وتربة القرميد، وبدأ جنود متطوعون بطلاء الأسوار من الجهة الخارجية بطبقة سميكة منه ليلاً. واعتُقد أن هذا المزيج سيكون عنصراً مؤثراً للحفاظ على سلامة الأسوار أمام قذائف المدفعية، ولكن قريباً سيظهر أن هذا ليس صحيحاً.

كان الأتراك يعملون بمجموعات كبيرة من أجل ردم الخندق، ولكنهم قدّموا الكثير من الضحايا نتيجة استراتيجيتهم في الدفاع المؤثرة؛ على الرغم من الستار الناري للمدفعية الذي لم يُر مثله في التاريخ. فقد بدا الأمر وكأن أبراج الحصار المنتصبة في الخلف تشير لمن وراء الأسوار إلى أن طريق الخلاص الوحيد هو بالوصول مباشرة إلى السماء التي تحوّل لونها إلى البرونزي وسط ضباب الدم والبارود والنار.

ولكنهم على الرغم من هذا كانوا يؤمنون من كل قلوبهم أنهم سيقاومون، فطالما فضلوا الموت على العبودية، ولم يتخلوا عن كرامتهم قطّ. حقيقة، ما

الذي يملكه الإنسان غير الإيمان أصلاً؟ لهذا السبب، كان الإمبراطور يعرض اندفاعاً مدهشاً يجعل "محمد" يصك أسنانه بإعجاب وغيرة وهو يتابع مجريات المعركة بقلق وتململ، مدفوناً بخرائط وخطط تفصيلية إلى درجة لم يُر مثيل لها في تاريخ الحروب. كان أعداؤه أذكياء وشجعاناً جداً. وكان محمد خان أيضاً يقترب من صفوف الجبهة الأمامية بشكل خطير؛ على الرغم من تحذير وزرائه له، وكأنه يريد أن يقول إن جرأته لا تقل عن جرأة أعدائه. كان يقود حصانه إلى الخطوط الأمامية وهو غاضب من جنوده بشدة لأنهم لم يستطيعوا ردم الخندق. كما كان يشارك شخصياً بتحميل الحجارة على عربات جنود المهام رغم ارتدائه درعه الحديدية، فتضايقه خوذته نتيجة تجمّع الغبار والعرق تحتها، ولكن من دون أن يمنعه ذلك عن مدّ يد المساعدة وهو يطلق العبارات المليئة بالمديح والتهديد.

وكانت معظم عربات اليد، وعربات الخيل، والعربات التي يجرها الجنود تتحطم قبل وصولها إلى الخندق، وتختفي تحت وابل السهام. وعلى بعد مسافة آمنة، كانت مجموعات الإعدام تقف خلف الجنود العثمانيين لمنعهم من التراجع تحت مطر مقذوفات المدافع والمنجنيقات والبنادق الثقيلة والخفيفة، والسهام القوية، وخلفهم كان الفرسان يقومون بمهمتهم. لم يكن أمام الجنود خيار غير التقدم، وإلا فإنهم سيقضون نحبهم على أيدي رفاقهم. كانوا يتقدمون إلى الأمام بحزم يدهش المدافعين لكي ينجحوا بردم الخندق؛ لأنهم يعرفون جيداً استحالة تمسكهم بالحياة بطريقة لا معنى لها، أو اضطراهم للتوسل لرفاقهم كالكلاب. ولم يكن البيزنطيون يحاولون فتح الخندق مجدداً إلا بتنفيذ عمليات سريّة ليلية، من دون أن يتمكنوا من النجاح بسبب تعرضهم لنيران كثيفة. لذا، كانوا يتراجعون بعد فترة لمعرفتهم أن أعداد جنودهم قليلة، وأن ما يفعلونه ليس صواباً.

في تلك الأثناء، اكتشف جيوستنياني أسلوباً جديداً وذكياً جداً لتحويل المدافع المنتصبة على الأسوار إلى سلاح قصير المدى. فقد كان يضع في سبطانة المدفع ما بين خمس كرات حديدية بحجم الجوز أو عشر، ويطلقها على الخندق من مسافة قريبة؛ مما يودي بحياة عدد كبير من الجنود الأتراك بلحظة واحدة. غير أن هذا السلاح لم يبطئ تقدم الأتراك الطائشين. أما الأمر الآخر الذي أدهش المدافعين فهو عدم ترك الأتراك رفاقهم الذين يموتون مهما كلف الأمر. فقد كانوا يغامرون بحياتهم، ويعودون أدراجهم بأصالة تثير الإعجاب لدى المدافعين - الذين يعتقدون أن ما يقوم به

الأتراك ليس ضرورياً - ويحملون رفاقهم مهما كلفهم الأمر، وينقلونهم إلى خلف المتاريس.

* * *

في أثناء سير المعارك على هذا النحو، تشققت سبطانة المدفع الكبير سلطاني في السابع عشر من الشهر. وعلى الرغم من صيانته باستمرار وبدقة فائقة، وفرك سبطانته بزيت الزيتون بعد كل إطلاق، ومراقبة كل الإضافات إلاّ أن المدفع العملاق لم يُفد بأكثر من التفوق على الأعداء نفسيًّا. وكان المعلم المجري أوربان ينوي أن يسحب المدفع من موقعه، ويصبّ سبطانة أخرى، ولكن السلطان "محمد" خان لم يسمح بهذا.

كان أوربان قد رأى تشققات دقيقة ناجمة عن الحرارة المرتفعة في أثناء إطلاق النيران؛ في الأماكن التي لم يتحقق فيها صفاء تام بالمعدن، وقلق من هذا الأمر كثيراً. وحين شرح الأمر بتفاصيله لمحمد خان، قال له السلطان إنه لن يسمح بأي تأخير في زمن كهذا بالتأكيد. وسيواصل المدفع إطلاق النيران مهما كلف الأمر.

صنّع المعلم أوربان وبمساعدة معاونه الإسباني غومار دعامات حديدية؛ آملاً أن تحول دون توسع الشقوق في السبطانة، وركبها في ظهيرة ذلك اليوم. ولكن شقوق السبطانة استمرت بالتوسع بعد الإطلاق مجدداً. غضب محمد خان كثيراً، وأنّب أوربان وغومار، وهددهما بأنه سيضعهما في سبطانة المدفع، وسيطلقهما باتجاه أياصوفيا. ونتيجة لذلك، حاول الرجلان أن يفعلا ما بوسعهما من أجل جعل المدفع يعمل بشكل سليم. وإذا تمكنا من فعل هذا فستكون مكافأتهما كبيرة، أما إذا فشلا فستكون نهايتهما؛ تماماً كما قال السلطان.

كان الرجلان اللذان يعرفان غضب السلطان جيداً متقدمين كثيراً على مستوى التعدين في عصرهما، ورغم ذلك لم يستطيعا التفكير بأسلوب جديد لحماية السبطانة. كان ينبغي لهما إيجاد مخرج مهما كلف الأمر؛ لأن السلطان أمر بإطلاق نيران المدفع ثانية فوراً. لذا، تم دهن السبطانة بالزيت جيداً، وزيادة عدد الحلقات المعدنية، ولكن السبطانة التي استهلكت قدرتها على المقاومة انفجرت بآخر إطلاق شهده محمد خان شخصياً أيضاً. إذ حدث انفجار هائل سُمع من بعد عشرين كيلومتراً عن القسطنطينية، وارتفع برق أحمر نحو الغيوم، وتناثرت قطع السبطانة في الموقع كالشظايا. أصيب إنكشاريان من الرجال الذين كانوا يشكلون درعاً بشرياً حول السلطان في منطقة آمنة إصابات بليغة. ومات الكثير من الجنود الذين كانوا يقفون

حول المدفع وأوربان ومعاونه الغريب غومار، وتناثرت أشلاؤهم في الأرجاء. تمّ العثور على جثة أوربان وتشييعها بمراسم خاصّة تمهيداً لإرسالها إلى عائلته، في حين لم يكن هناك أيّ أثر لجثة غومار.

IV

18 نيسان 1453

تشعر بالذنب... تشعر بالذنب لأنك ترسل كل هؤلاء الناس إلى الموت بسبب إلحاح لا معنى له. يتراءى لك أن وجودك عبء على نفسك وعلى من حولك في أوقات كهذه. وتشعر أن كل مفاصلك تؤلمك؛ وكأنك مريض من الناحيتين المادية والمعنوية. لعلك مريض، ومريض جداً ربما. صار هذا الكفاح والسعي لإثبات الذات اللذان لا ينتهيان يستهلكانك؛ لأنك لا تستطيع أن تعيش كالناس العاديين، وأن تعمل وتتزوج وتنجب أولاداً. ما يتُوقَّع منك ثقيل جدًّا على كاهليك؛ إلى درجة أنك ترى نفسك باستغراب في مستوى عجيب أبعد من حياة الناس العاديين الذين تنظر إليهم بحسرة. رغم هذا، تغضب لأن لديك حاجات وهموماً إنسانية كالناس الآخرين.

لا مكان للتهذيب في حرب الوجود هذه مع الأسف... فأنت الآن في عالم الذين ينتزعون النجاح، ولقد رأيت مكافأة القسوة، وتعلمتها يوم ظهر أمامك الملا غوراني حاملاً قضيب القرانيا. هذا الفرن الضخم المسمى حياة، وهذه الحفرة المليئة بنار الروم، وملايين المخاطر والاستفزازات الحادة، والغضب، والهمّ، والانفعالات الغريبة القادمة من دون مناسبة مع الضغط، والضغط الدائم، والمزيد من الضغط... كلّها تعلمك درساً في الحياة؛ اسحق وإلاّ فستنسحق، لا تصرخ وأغلق على عواطفك، اضطرارك للبدء من جديد دائماً يوجّه كل لحظة - نعم، كل لحظة من لحظاتك - همّ الوجود الثقيل هذا الذي يحتاج إلى توجيه...

لهذا السبب، تؤخر الآن مقابلة الهيئة التي أرسلها نائب ملك المجر جان هونياد التي تنتظرك في بهو الخيمة السلطانية الأمامي. تريد ألا يلاحظ أحد خفقان قلبك. يشعر أفراد هذه الهيئة التي تستدعي القسوة فوق القسوة بسبب وجودك هنا الآن. تريد أن تستل سيفك، وتقطع رؤوسهم الواحد تلو الآخر من دون أن تسمح لأحدهم بأن ينطق كلمة واحدة؛ علماً أن اتفاقية السلام التي وقعتها معهم قبل الحصار لمدة ثلاثة أعوام كانت لمصلحة الطرفين. إذاً، لماذا هم هنا؟ ها أنت على الخط القابل للانكسار على عتبة الوجود. لا بدّ أن أستاذك آق شمس الدين سيقترح عليك الابتسام والتهذيب والرقيّ. ليته يبقى بجانبك دائماً. الأفضل أن تعزل تشاندارلي وتعين آق شمس الدين أو الملا غوراني مكانه على الأقل، ولكن شيئاً كهذا لا يمكن اقتراحه عليهما. ألا ترى أنهما لا يقبلان منك شيئاً حتى الهدية؟ ألا تنتبه إلى أنهما يمتنعان عن مجالستك إلى المائدة؟

لقد وضعا مسافة لا يمكن تجاوزها بينهما وبين أهل الدنيا والحياة. أنت في طرف، وهما في الطرف الآخر. أنت تمثال معاناة مطلي بخوف شديد لم يجف طينه بعد، أما هما فقنديلان يستمدان نورهما من المنبع. أليست أكبر نعمة يتمتع بها الإنسان هي معرفته أنه مسكين؟
أنت الآن حزين بسبب موت أوربان المفاجئ. كنت تأمل أن تستفيد منه... كان بإمكانه أن يطوّر تقنيات أسلحة جديدة من أجل جيشك لسنوات طويلة... لكن هذا لم يحدث... اهدأ قليلاً... ألقِ عنك هذه القسوة، فأنت سلطان ابن سلطان ابن سلطان. تصرفاتك لا تُساءل... إنها لا تساءل أليس كذلك؟ يا للغرابة! أنت أيضاً عبدٌ لله، ولكن تصرفاتك في الحياة الدنيا لا تساءل. أخطاؤك تؤثر على حياة الناس بشكل مباشر، ولكن تصرفاتك الصائبة ممدوحة، في حين تعتبر أخطاؤك كوارث لا قدرة لك على تغييرها؛ لأن ذلك بيد الله وحده. يتم تجاهل مساهمتك في تلك الكوارث فوراً. فأنت في نظر الناس حاكم لا يخطئ أبداً.
لماذا تمسك مقبض سيفك هكذا؟ هل ستتمرد على نظامك الذي تسيطر عليه؟ اهدأ... انتظر... عليك أن تنجح قليلاً بأن تكون من أهل الهدوء... في قلبك يشتعل حريق... وأي حريق أيضاً؟! فأنت الآن ترى ذلك التعبير الموحي في عيون تشاندارلي وبقية السادة الأتراك، وتصرفاتهم المرحة وكثيرة الحركة أكثر من أي وقت مضى... هُس... انتظر... نجحت حتى الآن في السيطرة على نفسك جيّداً، انتظر... سيأتي يوم تدفنهم فيه مع الذهب الذي أخذوه من البيزنطيين في حفر بالتأكيد.
* * *

صرّح المبعوث المهيب المدعو جينو غروسيكس الذي تصل لحيته إلى صدره بأن جانوس هونيادي حليف محمد قد استقال من منصبه، وسيعتكف للراحة، ونَقَل صلاحياته كلها للملك الشاب لاسزلو الخامس. وبناء على هذا، تفقد اتفاقية السلام ذات السنوات الثلاث صلاحيتها. تريد الهيئة إعادة العقد الذي وقعه الأتراك سابقاً، واستعادة العقد الذي وقعه هونيادي. أخذ محمد نفساً عميقاً وهو يمعن التفكير في هذا التطور المعاكس، وجلس صامتاً لفترة؛ وتأمّل العجوز الحيوي الذي جلس أمامه. كان المبعوث يرتدي قميصاً أبيضَ ذا كمين واسعين ينتهيان بالكشكش، فوقه صدرية، ويرتدي جلدية أنيقة جداً تصل إلى الركبتين، ومبطنة بالجلد القاسي، ويغطي كتفيه من الخلف رداء أحمر يزيده أناقة. كان يضع حول خصره حزاماً عريضاً ذا قفل فضي، فيما يتدلى غمد سيفه الرفيع إلى يساره. كانوا قد سلموا

أسلحتهم كلها لآغا الأسلحة لأنه يحظر الدخول بها إلى حضرة السلطان. وفوق الجوربين الكحليين السميكين الملتصقين بساقيه الرفيعتين القويتين كان ينتعل جزمة جلدية تصل إلى بطتي ساقيه. يبدو واضحاً من تصرفاته أنه ينظر إلى محمد خان كولد صغير.

فكر محمد في سرّه: "إما أن تأخذيني أيتها القسطنطينية أو آخذك؛ لأنه لا يبدو أن هناك مخرجاً آخر لكلينا. فأنا لن أستطيع إثبات رشدي طالما بقيتِ منتصبة... لا بدّ أن المسؤول عن هذا الأمر هو البابا المترنحة مكانته كثيراً. هذا واضح جداً؛ حتى إنه بإمكان ولد صغير أن يدرك هذا. أعرف أنه ليس قادراً على شن حرب صليبية جديدة؛ لأن أحداً لن يستجيب لندائه، وقد كانت سياستنا المزدوجة في هذا الموضوع مجدية. الجميع مشغولو البال على كيفية انتهاء الأمر، ولكن البابا لا يريد أن يبدو أنه لا يفعل شيئاً... انقسمت أوروبا تماماً نتيجة الحروب الداخلية، ويعيش الأوروبيون الآن مأزقاً اقتصادياً رهيباً. يحاول الملك الشاب لاسزلو الخامس أن يرهبني الآن، تماماً مثلما فعل إمبراطور روما الجرماني فريدريك الثالث التافه. دخل هذا الولد عامه الثالث عشر حديثاً، ولكنه فجأة يطالب بأن يكون صاحب الصلاحية الوحيد بالإدارة، ويعزل جانوس. لا بدّ أنّ الفكرة صادرة عن البابا الذي يفكر بمستقبله، وهذا البيدق المسكين الذي يُدعى "ملك" أو "إمبراطور" يتمّ التحكم به من بعيد. مع الأسف، ستكون أقل باباوات الكنيسة الكاثوليكية تأثيراً يا نيكولاس الخامس. هذا قدرك، أما بالنسبة لبيادقك، فسيفهمون قريباً أنني الملك والإمبراطور الوحيد في هذه الدنيا".

اتخذ السلطان موقف المتعجرف، ونظر إلى المبعوثين من علٍ بقدر ما يستطيع، وتحدث بلاتينيته السليمة بصوت مهذب وهادئ: "جانوس هونيادي صديق جيد، وحليف حقيقي. وهو وطني حقيقي يعرف ما هو ضروري لبلده، ويقيّمه جيداً. ولكن، علي أن أقول بصراحة إنّ التطور المفاجئ الذي حدث الآن ينهي جو الاحترام والتفاهم المتبادل بين الدولتين. مهما كان، انقلوا لملككم تهاني واحتراماتي. ولكن، ستدفعون الثمن غالياً إذا اقترب الجيش المجري من ضفة نهر طونا وليس إذا عبره".

أجاب جينو غروسيكس بموقف أكثر احتراماً: "باسم ملكنا الحكيم والعظيم لاسزلو الخامس أشكركم على أمنيتكم حسنة النية يا صاحب الجلالة". ثم أشار إلى الهيئة التي معه، وتابع: "أنا ورجال ملكنا النبلاء ندعو من أجل استمرار السلام بيننا إلى الأبد. وأنتم أيضاً مثل ملكنا النبيل ما زلتم في

سنّ الشباب، وتطفحون ذكاء وحيوية. اقبلوا مني نصيحة بما أنني عشتُ كثيراً، ورأيت الكثير يا سلطاني".
"تفضل يا سيادة المبعوث".
"يقول اللاتينيون: sequor deteriora proboque meliora Video أي: أرى الطريق الجيد وأعرفه، ولكنني أسير في الطريق السيئ. فلا تكونوا من أولئك الأشخاص يا سلطاني. كونوا رحماء، ولا تظلموا هذا الشعب الذي لا يسعى سوى إلى الدفاع عن نفسه".
ابتسم محمد وأجاب قائلاً: "philosophum ,pallium et barbam Video nondum video، أي: أنا أرى اللحية والجبة، ولكنني لا أرى الفيلسوف. ولكن، لا تقلق يا سيد غروسيكس، أنا لست ظالماً في طريقي لكي أصبح طاغية، ولا أؤلم أحداً من دون سبب".
انتقلت الهيئة إلى القسطنطينية بعد أن حصلت على إذن السلطان، وبدأت تجوب المدينة للإعلان عن أخبار أوروبا. قاد المبعوثون خيولهم من الميناء نحو هاكوبراتيا. وهناك، ربطوا خيولهم، وتابعوا تقدمهم سيراً على الأقدام. في أثناء مرور جينو غروسيكس من أمام حجرات سائسي الخيول في مضمار السباق سيطر عليه شعور غريب بأنهم مراقبون. شعر وكأن عيني الحاكم الشاب الذي جمع بين ثقته الكبيرة بالنفس واندفاع الشباب الخطير تراقبانه. وبفضل اعتياد أذنيه على الهدير وصراخ الناس لم يهتم كثيراً بالانفجار الضخم الذي وقع قرب قصر هورميسداس، ولكنه لم يتخلص من شعوره بأنه مراقب. كانت خيام التطبيب التي تم نصبها في ميدان الخيل مليئة بالجرحى. وقد أحاط البخار الصادر عن خلطة المخدر المؤلفة من زهرة اللوتس والأفيون وبعض أنواع الفطور والتي كانت تغلى في المراجل بمساحة كبيرة، وملأ الجو خفيف البرودة بخدر خفيف في ساعات المساء الهادئة.
اهتم الطبيب الشاب المرافق للهيئة بمعالجة الجرحى لساعات طويلة. فقد كان الجرّاحون غارقين في العمل. أخاط الطبيب أعضاء بعض الجنود، وجبّر عظام بعضهم الآخر، ثم ساعد جرّاحاً مسنًّا في عملية التخلص من احتقان دم فاسد. قلّت كمية الخيوط الضرورية للجراحة المتوفرة والمصنوعة من أمعاء النعاج والعجول. كما استهلكت الأقمشة القطنية المستخدمة كضمادات بسرعة.
غادر المبعوثون المدينة كالهاربين. وظلّ غروسيكس يشعر بعيني السلطان المشؤومتين مسلطتين على مؤخر رأسه. وفيما كانوا يجتازون الطرقات بسرعة البرق رأوا نيراناً ملتهبة وما يشبه الخيام، ومصابين يتألمون، وأنقاض أبنية

فخمة هدمتها الحجارة الملقاة من المنجنيقات، وغربان شؤم راحت تدور في الأرجاء بوقاحة. قال غروسيكس لنفسه: "إذا بقيت الأمور على هذه الحال، فإن الأتراك لن يخلفوا وراءهم سوى الخراب والدمار".

الفصل الخامس

الضغط على حدود الزمن

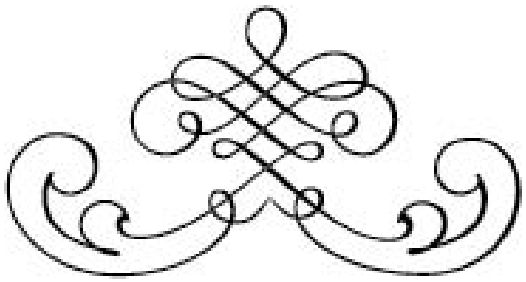

I

"في الطرق حيث أبحث عن رفيق
صارت الوحدة رفيقاً لي".

عوني

18 - 19 نيسان 1453

فيما كانت الأمطار تهطل، تناول محمد خان الثاني مجموعة الكتابة قرابة منتصف الليل، وركب سفينة الشعر، وأبحر في بحر الأحلام نحو اللانهاية؛ على الرغم من مشاغله كلها. في ما بعد، فتح نافذة خيمته السلطانية ذات الغطاء الجلدي، وفيما كانت تتسرّب ريح الليل الباردة المنعشة إلى رئتيه، شعر بالانشراح وهو يسمع نقر مطر الربيع على سقف الخيمة. وفي هذه الأثناء، تمتم بكلمات القصيدة التي كتبها:

"لو بكيت من أجلك بعيني الطافحتين بالدمع هماً
لتغلّبت الأسرار المخبأة في قلبي على دمعي، ولكشفت لك أسراري.
أنت على عرش الجمال، أما أنا فأداس بالأقدام على تراب الطريق
كيف أشكو لكِ حالي الضعيف؟
أنظر إلى الشمعة تبكي في مجلسك ليصفو رأسها،
تشتعل بشكل جميل لتهدم ظلامي.
أنا مخلص لعشقك البرّاق كالقمر حتى الصباح،
وفي الحقيقة، إن هذا واضح كضوء الشمس.
البارحة منعت عيادة منافسي لي؛ فأنا مريض بالحب،
تأوهُّي وصراخي أثّرا فيك غالباً.
يا عزيزتي يبدو أن الشرح عن جرح قلبي مستحيل،
فلتريْ من ياقتي المفتوحة هذه جروح صدري.
لا تنهكي قلب (عوني) وعينيه بعذابك،
فهو بحرٌ يقدم لك لآلئ، ومنجم يمنحك جواهر".

كان بإمكانه رؤية قباب بانتوكراتور - مركز المعارضة الداخلية - التي تنيرها المشاعل على السفوح المنحدرة نحو الخليج. كان غينياديوس ذكياً. وهو رجل لديه كرامة، ويستطيع رؤية الحقائق. ابتسم محمد. وحين سمع الإنكشاري آغا الحرس الخاص يقدم له التحية ويبلغه أن حصانه جاهز، استمر بالتفكير لفترة من دون أن يجيب. وبعد قليل، خرج من خيمته، وسلّم بنفسه أحد الفرسان المراسلين الأمر السلطاني الذي ينبغي إيصاله إلى الباشا القبطان.

توقف هطول المطر في أثناء تفقده الوحدات العسكرية، وظهر قمر برّاق صافٍ. اعتبر محمد أن هذه إشارة جيدة. في تلك الأثناء، خطر بباله ملك المجر لاسزلو. كان محمد يعرف أنه لو تحرك لاسزلو باندفاع الشباب لتمكّن ربما من إفساد مخططاته، ولمنح بقية الدول الأوروبية الجرأة على مواجهته. لهذا السبب، قرر أن يُسرع في تنفيذ مخططاته. لا يمكن إنكار أن هجوماً مفاجئاً في هذه اللحظة - نعم، في هذه اللحظة بالذات - على المواقع الضعيفة في السور البري سيدهش الأعداء.

بحركة من رأسه، بدأت فرقة المهتران بإصدار هدير قوي. فقد ضرب قارعو الطبول على طبولهم الضخمة المحملة على ظهور جمالهم الصماء بكل ما أوتوا من قوة، ونفخ بعض العازفين في الأبواق أيضاً، فيما كسر قارعو الأجراس جدار صمت الليل برنين أجراسهم. قرر محمد أن يشارك الإنكشاريون أيضاً في هذا الهجوم؛ وذلك للمرة الأولى. كان مظهرهم بدروعهم الفخمة وأسلحتهم القاتلة من سهام وحراب يوحي بعدم إمكانية هزمهم. سيسير المحاربون المدنيون وجنود المهام الثقيلة في المقدمة بدعم من المدفعية أيضاً، وسيشنّ الإنكشاريون هجوماً عنيفاً من ورائهم. سيُشن الهجوم؛ عبر نهر ليكوس؛ على المنطقة التي بدا أنها ضعفت كثيراً نتيجة القصف المدفعي. ومع بدء تراخي الدفاع، سيهجم الإنكشاريون بقوتهم الحربية وخبرتهم التي لا تناقش.

لن يخطر ببال أحد أن يتراجع؛ فقد اتخذت الإجراءات للحؤول دون التراجع. كان الجنود الذين يتجهون لتحقيق النصر أو الموت في سبيل ذلك يبتسمون، وهم بحالة معنوية لا يمكن فهمها، وقد تكاتفوا معاً، وصار أحدهم يشجع الآخر. دخل رجال الدين بين الجنود، وشرحوا لهم نِعَم الجنة الخالدة، فزادوا اندفاعهم للقتال.

أخيراً بدأ الهجوم، فلفّ هدير قويّ المكان؛ وكأن أبواب السماء المظلمة قد تفتحت، وانفتحت معها أبواب جهنم. وأنارت أضواء المشاعل ظلمة الليل الحالكة، بالإضافة إلى الشرر الصادر عن إطلاق نيران المدفعية الكبيرة والمحمولة.

دبّت فوضى مماثلة عند مدخل الخليج أيضاً. فبأمر من السلطان، بدأ سليمان باشا بلطة أوغلو هجوماً على الجنـزير، وقد أرسى سفن الأسطول على مسافة آمنة لحمايتها من السهام النارية المعادية ومن قذائف المدفعية. انتظر قليلاً ليردّ الطرف الآخر على الهجوم؛ ممّا منحه فرصة للتسلل إلى صفوف سفن الاحتياط الإيطالية في مرمرة. بدأت السفن التركية الصغيرة

والخفيفة هجوماً آخر، وواجهت مقاومة عنيفة من السفن الراسية أمام الجنـزير وخلفه. رُميت خطافات ثقيلة رؤوسها ذات شوكات مزدوجة، وأُسندت السلالم إلى جدران السفن في الظلام الدامس تحت ضوء المشاعل. كانت تلك السلالمُ سلالمَ خاصة تستند على قوائم تنتهي بخطافات وذات قاعدة عريضة تضيق مع ارتفاعها إلى الأعلى، وليس من السهولة فصلها عن المكان الذي تعلق فيه، ومن الصعب أن تقع في البحر المتموج لأنها توزع القوة. أما النوع الثاني من السلالم فكان مصنوعاً من الحبال، ويسهل تعليقه على حافة السفينة، ولكن الصعود عليه يحتاج إلى مهارة أكبر.

كانت السفن البيزنطية بقيادة ألوفيكس دييغو، وغابرييل تريفيسان، وأندريا ديدو، وكان ارتفاعها عن سطح البحر يمكنها من الدفاع بسهولة. وعندما تلتحم السفن، لا يكون هناك مجال واسع يتيح للمحاربين إمكانية الهرب، فيضطرون إلى الدفاع عن أنفسهم، وإلى المقاومة من حيث يقفون، فيحاربون بمهارة على قاعدة متحركة مساحتها عدة أمتار. يلتقطون سيوفهم القصيرة، ويحاربون بعنف مدركين أن التوازن هو العنصر الرئيس والحاسم لتحقيق النصر. لا بد لمحاربي البحرية أن تكون شخصياتهم أكثر قوة، وحالاتهم النفسية كذلك مقارنة بمحاربي البر. وإلا فليس من السهل عليهم المقاومة من دون أن يفقدوا عقولهم نتيجة بقائهم في البحار لأشهر، أو نتيجة الأمراض التي تنتشر بينهم بلمح البصر، أو بتأثير حروب كهذه تهز الأعصاب.

كان المدافعون يجهدون أنفسهم إلى أقصى الحدود رغم شعورهم بالإنهاك؛ وذلك من أجل الدفاع عن منطقة هاغيوس رومانوس حيث يُشنّ الهجوم الرئيس. وكان الأتراك المهاجمون باستخدام سفن منخفضة، يحاولون زيادة ارتفاعها باستعمال الأخشاب وأجساد الأعداء وقطع الحجارة، يحاولون نصب السلالم على أرضيات غير متوازنة. وبالثقة المستمدة من هذا الأمر، بدأوا يرمون رؤوس أعدائهم بمواد الردم التي كانت تقع تحت أيديهم. ولوحظ أنهم حققوا أهدافهم بنسبة كبيرة. فقد كان تراكم الجثث فوق الأنقاض يزداد ارتفاعاً بطريقة أسرع من أي عملية ردم. في تلك اللحظة، شكلت الجثث سداً يصعب تجاوزه. تسلل الأتراك إلى المكان الفاصل بين السورين بسهولة لأنهم تمكنوا من هدم السور الأول، ولكنهم فقدوا في سبيل تحقيق ذلك الكثير من الضحايا. فقد حصروا في مكان ضيق.

وبشكل طبيعي، فهموا قبل مرور وقت طويل أن الوضع ليس جيداً. إذ لم يكن إحداث ثغرات في الجدران يترك تأثيراً كبيراً؛ لأن البيزنطيين كانوا

يعيدون سدّ تلك الثغرات أو بناء الجدران بسرعة إثر كل هجمة، ويصلحون الأبواب ذات الأحزمة المزدوجة المصنوعة من الفولاذ. وهنا، لا ينكر دور الطلاء الذي اخترعه جيوستنياني. إذ لم يكن هذا الطلاء ذا تأثير على طلقات المدفعية، ولكنه مؤثر بالتأكيد على الأعمدة ذات الرؤوس الضخمة التي استخدمها الأتراك لدكّ الجدران. أكثر ما أخاف المدافعين هو امتلاء الخندق تقريباً، وبالتالي فقدانه دوره. ولكن، في لحظات تردد الأتراك القصيرة، كانوا يدوسون على الأنقاض فيفقدون توازنهم، ويكسرون أرسغهم، وفجأة لا يعود بإمكانهم المشاركة في القتال.

في الحقيقة، إن الهجوم على هذا الموقع الذي يدافع عنه جيوستنياني يعني بالنسبة للسلطان استعراض قوة. ولكن الجنرال درّج الدفاع بشكل جيد؛ إلى درجة أن وقفته الثابتة على رأس جنوده كانت تؤمن الانضباط النفسي والدافع لتحقيق النجاح. حتى إنه خطط لحملة صغيرة تقضي بأن تخرج وحدة صغيرة من أحد الأبواب السرية القريبة من المدينة، وتهاجم من جناح لا يتوقعه العدو.

في نهاية الساعة الثالثة، تعب المدافعون من القتل، والمهاجمون من بذل التضحيات. وعلى الرغم من هذا، استمرّ السلطان بتكثيف القصف المدفعي وضرب المدينة، وتحفيز جنوده. وفجأة، انتبه الجنود الأتراك إلى حقيقة أنهم لن يتمكنوا من تمييز قتلاهم عن قتلى العدو، وبالتالي لن يستطيعوا سحبها. وكان من الواضح أنه لن يأتي دعمٌ من وحدات فرسان الظهير. تسبب هذا الوضع بيأس لم يعرف سببه للوهلة الأولى. فلا أحد ينكر حقيقة أن جثته ستُضاف إلى جثث رفاقه الشهداء بعد فترة قصيرة، ولم يكن أي من الجنود يرغب في أن تبقى جثته بين أيدي الأعداء.

فجأة، دخل الإنكشاريون بهجوم أدهشت قوته المدافعين. كانوا يحاربون بمهارة كبيرة، وكأنهم سيقلبون التفوق الذي يتمتع به عدوّهم في أي لحظة؛ على الرغم من وضعه المناسب بالدفاع. إذا أظهر جيوستنياني أو الإمبراطور لحظة تراخٍ الآن، فستسقط المدينة فوراً. حارب قسطنطين بحزم واندفاع لا يختلف فيهما عن أي جندي، وحرص بشكل خاص على ألا يصدر أمراً يتعارض مع أوامر جيوستنياني لكي لا يتسبب بأي فوضى. حتى إن كبير وزراء الإمبراطور فرانتزس لم يكن يختلف عن أي جندي يقاتل بجانب الإمبراطور. فقد أصيب مرّتين، ولكنه لم يتراجع على الرغم من قدرته على القيام بذلك.

بدأ الجنرال جيوستنياني في لحظات الرعب تلك عملية غريبة بدت للوهلة

الأولى تافهة ولكنها تتناسب مع رهبة الليل. فقد غمّس شباكاً كبيرة جمعها من صيادي المدينة بالقار، وأضرم النار فيها، ثم بدأ يلقيها على الجنود الأتراك الذين تجاوزوا السلالم والخندق. كان لهذا التصرّف تأثير نفسي أكبر من تأثيره الحارق. فقد اعتقد الأتراك أن تلك الستائر النارية المخيفة التي تُرمى فوقهم نوع من النار أخطر من النار الرومية، وفقدوا للحظة تفوقهم النفسي. في نهاية الساعة الرابعة هدأت حدة الهجوم. فقد أنهت الوحدة البيزنطية الصغيرة المتسللة في تلك اللحظة الهجوم تماماً، ولاحقت الجنود الأتراك حتى الخندق.

* * *

لم يُعجَب علي حيدر بعمل حفر الأنفاق هذا نهائياً، ومنذ البداية أيضاً. فالحفر في الظلام هكذا كالخلد بالنسبة لواحد مثله يحب البقاء في الهواء الطلق تعذيب بكل معنى الكلمة. كان قسمٌ من الجنود الذين يعملون بقيادة الريّس مصطفى قد توغّلوا في عمق النفق لوضع كمية كبيرة من البارود بالقرب من الأسوار التي وصلوا إليها، ولكنهم في أثناء عودتهم حُبِسوا في الداخل بسبب انهيار النفق. لم يكن الريّس مصطفى من بين المحاصرين لأنه كان في المقدمة في أثناء العودة أيضاً، ولكن تسعة جنود ظلّوا حبيسين في الداخل وهم يكافحون للبقاء على قيد الحياة.

ونتيجة لذلك، صارت الأولوية بالنسبة لحفاري الأنفاق الذين أصبحوا يعملون من دون اهتمام بهدف إصدار الضجيج وبالتالي لتحديد مكانهم هي إنقاذ رفاقهم، ونصب أعمدة خشبية أكثر متانة ومقاومة لتأمين طريق العودة. وطبعاً، في النهاية يجب عليهم أن ينسفوا براميل البارود المخيفة. في الحقيقة، كان غالبية الجنود يرون بعد وصولهم إلى هذه النقطة أنه من العقلانية أكثر الحفر قليلاً بعد للعبور من تحت الأسوار إلى المدينة، ولكن القيام بهذا يستغرق وقتاً. وإن تمكنوا من القيام بذلك، فستُفيد هذه الثغرة التي تفتح بشكل غير متوقع على الأعداء الجيش المهاجم، وستساهم بانهيار معنويات المدافعين ودفاعهم؛ طبعاً إذا تم كل شيء كما يتمنون.

أعطى الجنرال جيوستنياني القادر على توقع ما يمكن أن يفعله العدو في حال الفوضى تعليماته بعدم توقيف عمليات التفقد تحت السور. وقبل مرور وقت طويل، انتبه المدافعون إلى حركة جديدة، فتم البدء بحفر نفق جديد بفضل وحدات نيسفوروس كانتاكوزيوس وصهره نيكولاس غودليس الخلفية. لهذا السبب، وقع الرّيس مصطفى ورجاله المشغولون بمحاولة إنقاذ رفاقهم في الفخ.

وفي ساعة متقدمة من الليل، ومع هبوط حدة القتال كثيراً، وجدوا أمامهم جنوداً بيزنطيين مشحونين بمشاعر الغضب والرغبة في الانتقام. اشتبك الطرفان بمعركة عنيفة من دون أن يتفوَّهوا بكلمة واحدة. وهكذا، تعرضت عملية التسلل من الأنفاق هذه التي يعطيها السلطان أهمية كبيرة للفشل؛ تماماً كمصير عمليات التسلل السابقة. ووجد الريّس مصطفى نفسه مضطراً لمحاربة المجموعة التي ظهرت أمامه ولا يعرف عددها، وللانسحاب في الوقت نفسه.
كان علي حيدر منتبهاً إلى أنّ الرّيس مصطفى قد أطلق صيحة، وقد دب فيه الهلع على رفاقه الذين بدأوا يتساقطون أمامه الواحد تلو الآخر. إن شعوره بالهلع هكذا يصعّب الأمر على رفاقه المدافعين من جهة، ويضعه في مأزق من جهة أخرى. فجأةً، نزلت صفعة الريّس مصطفى الشبيهة بالمطرقة الكبيرة على وجهه، وسمع صديقه القديم يقول له: "اهدأ قليلاً، تمالك نفسك وساعدني...".
حاول علي استجماع قوته وهو يشتم الدوار الذي يشعر به ويكاد يفقده توازنه، وكذلك مغص معدته الذي لا يهدأ، وعينيه اللتين يمكن أن تغمضا في أي لحظة فيفقد وعيه. كان يشعر بخجل كبير من نفسه، ولكنه لا يستطيع الحيلولة دون ما يشعر به. قال وهو يشعر بالإنهاك: "ليس الأمر بيدي يا ريسي". وسُمع صوته وسط تلك الفوضى بصعوبة.
"تعرف جيّداً أنني أكره الأماكن المغلقة، وبالإضافة إلى ذلك أجد نفسي أداهم فيها... اللهم أعنّا...".
أمسك الريّس مصطفى الشاب من كتفه، وهزه: "اسمعني يا ولد، أعطني المشعل الذي تحمله...".
قال علي: "لا". وحاول المقاومة، ولكن صفعة ثقيلة نزلت على خدّه، وجعلته يرى في البداية مئات النجوم، ثم انتبه إلى طعم الدم الدافئ في فمه.
صرخ الريّس مصطفى من جديد: "قلت لك هاته. هذا الضوء يفقدك صوابك يا ولد... فأنت لا تستطيع رفع عينيك عنه... يُقال إن بلاء حفار الأنفاق هو الضوء الذي أمامه. ألم تسمع بهذا من قبل؟".
حرّك على رأسه نافياً سماعه ذلك القول، وتمسك بالريّس مصطفى، واستمر بالتراجع إلى الخلف، ولكنه شعر بأنه أفضل حالاً حين أخذ منه المشعل.
قال الريّس مصطفى: "حسناً، الآن فكِّر بليل مظلم فقط، ولا تنس أن العدو الذي يقف أمامك قلقٌ وخائف بما لا يقل عنك. انظر إلي يا ولد، واسمعني جيداً... أنا لا أستطيع حملك، هل هذا مفهوم؟ إذا اضطررت إلى

ذلك فسأتركك. أقسم لك إنني سأتركك. سيبكي قلبي دماً، ولكنني سأفعل ذلك لأن هناك أناساً يحتاجون إليّ أكثر منك...".
شعر علي حيدر بذلك الخوف الذي يدور في عروقه كقطع الجليد. لذا، أغمض عينيه بقوة ثم فتحهما، وحاول تخيّل نفسه في سهل، في ليلة السماء فيها صافية وخالية من النجوم، ولكن القيام بذلك لم يكن سهلاً. تناول سكينه الحادة من الطرفين، وأخذ نفساً عميقاً بعد أن جفف كفه. شعر بمغص في معدته لدى شمّه رائحة التراب والدخان وإفرازات الجسم المتنوعة التي ملأت أنفه للحظة، وكاد ذلك الإحساس بالهلع أن يعود، وشعر بأن إفرازات معدته قد وصلت إلى بلعومه. أخذ نفساً عميقاً من جديد. ولكنه ما إن فتح فمه من أجل إطلاق صيحة حرب حتى تقيّأ. حاول أن يتراجع إلى إحدى الزوايا، ولكنه لم ينجح.
كان العدو يقتل رفاقه ويتقدم. غُرسوا في حفرة جهنم هذه التي لا تتسع لتقدم أكثر من شخصين. ما هي المسافة التي بقيت خلفهم؟ مئة متر؟ يعرف أنهم قد حفروا ثلاثمئة متر، ولكن أين هم الآن؟ اختلطت الأمور في عقله تماماً. شعر بأن جيوبه الأنفية قد سُدّت، كما شعر بحرقة في بلعومه نتيجة التقيؤ. تقيأ مجدداً، فشعر بالارتياح. لم يبق أمامه سوى ثلاثة صفوف.
كان خيري البيلجكي والريّس مصطفى الطوقاطي في الصف الذي أمامه مباشرة، وإذا حدث لهما شيء فهذا يعني أنه فقد عائلته كلها. حين انفصل عن عائلته وهو في الثانية عشرة من عمره، وبكى في الليالي داخل مهجع الثكنة المكتظ، لم يقتنع أن عائلته الحقيقية ستكون ذات يوم مؤلفة من رفاقه في السلاح. ومنذ ذلك اليوم، لم يشعر بالحاجة إلى رؤية عائلته الأصلية سوى مرة أو مرتين في المناسبات. ولكنه أمضى سنين مع هؤلاء الرجال وأحبهم. ما هو الشيء الطبيعي أكثر من رغبته بالموت معهم؟ أليس الزواج وتأسيس عائلة خاصة أمراً ممنوعاً عليهم؟ لماذا سيعيش إذاً؟ ما معنى أن يكون وحيداً في هذه الحياة، وأن يتنفس فقط؟
صرخ: "ريسي، لنهاجمهم". ولكن أحداً لم يسمعه.
ما يحصل الآن كارثي، وسيؤدي إلى انهيارهم. لقد شارك هذا الشاب رغم صغر سنه في معارك كافية، وصار بإمكانه معرفة استحالة مكافحة هذه السفالة التي تنتشر خلال لحظة بين الجنود كالمرض السري. في كل الأحوال، هناك حل واحد للحؤول دون ذلك: وجود شهم زائغ العينين يرمي نفسه أمام الجموع المهزومة.

فحين رأى علي أن الصّفّ ما قبل الأخير أمام الريّس مصطفى قد سقط أرضاً لحظة أدار ظهره للعدو، لم يعد يشمّ رائحة الدم أو يشعر بالنار الحمراء التي تحرق صدره، وصرخ: "إلى الأمام يا ريسي!". موقفاً تراجعه على الأقل.

باءت محاولته بالعبور من بين كتفي صديقيه بالفشل، ولكنه حاول مرة أخرى، وتمكن ذات لحظة من المرور بينهما. لم ينتبه جنديا المهام إلى أن "علي" حيدر قد توقف عن التراجع، وهجم. توقفا لحظة معتقدين أن من وقف وراءهم، وصرخ: إلى الأمام هو قائد مجموعة الدعم التي وصلت لنجدتهم في اللحظة الأخيرة.

تقدّم المحارب الملوث وجهه بالطين والدم إلى الأمام، وهو يحارب بخوف. لوّح بسكينه ذات الحدين التي يُفضّل استعمالها في الأماكن الضيقة في وجه البيزنطيين. وفي أثناء غرزها داخل درع جندي بيزنطي شاب، نظر إليه هذا الأخير باستغراب؛ قبل أن يسقط ووجهه إلى الأمام. دهش البيزنطيون عندما رأوا أعداءهم يتوقفون عن التراجع. وكانت الدهشة وموت الجندي الشاب نهاية التقدم المنتظم لصفوفهم الأمامية.

في تلك الأثناء، صرخ إسماعيل الكردي بصوت قويّ بعد أن رأى "علي" حيدر يظهر قربه: "ابتعدوا أيّها الحمقى".

وانتبه إلى أن الجرأة المتبرعمة في داخله قد تضاعفت، فأطلق صيحة أخرى، وانزلق إلى الصف الأمامي.

سمع علي الريّس مصطفى يصرخ: "اصمدوا! نحن وراءكم يا شجعان!".

صرخ البيلجكي من خلف كتفه أيضاً وهو يحمل سكينه البراقة: "لا تفلح تقنية السيف هنا يا علي. هنا تكسب الذراع الأقوى. امشِ يا سبعي، امشِ...".

بدأت معركة عنيفة، وسرعان ما تراجع البيزنطيون خلال لحظات حين فقدوا تفوقهم المعنوي. وخلال فترة قصيرة، بدأوا يهربون من الجهة التي جاءوا منها، ولكنهم قدموا في أثناء تراجعهم خسائر كبيرة حتى وصلوا إلى مستوى الجدار. بعد قليل، هدأت سرعة الملاحقة بأمر من الريّس مصطفى، وأخذ المهاجمون أنفاساً عميقة وهم يراقبون سرعة هرب العدو. حينئذ، شمّوا رائحة شديدة النفوذ. لم يكن علي يعرف هذه الرائحة. وبينما كان يفكر بأنه لا يريد معرفتها انتبه إلى السائل الأسود الذي كان يسيل تحت أقدامهم مصدراً صوتاً غريباً.

في تلك اللحظة، سمع الريّس مصطفى يصرخ: "انسحبوا... اركضوا... بسرعة...

لقد سكب الغدارون نار الروم تحت أقدامنا".
للحظة، لم يعرف أحد أي ردة فعل يبدي. بدا ذلك واضحاً من حركاتهم التي ثقلت ونظرات الخوف في أعينهم.
استداروا وركضوا هاربين. كانوا يركضون بسرعة، إلى درجة أنهم شعروا أن رئاتهم تكاد تخرج من أفواههم وهم يلهثون. وفي الوقت نفسه، كانوا ينبهون الذين يركضون أمامهم، ويحثونهم على الإسراع أكثر. رأى الجميع البريق الذي ظهر من خلف أكتافهم. لم يعرفوا إلى أي مدى وصل السائل الرومي. هل تجاوزوا المكان الذي حوصر فيه رفاقهم؟
فجأةً، انتبه علي إلى الحرارة التي حرقت ظهره فبدأ يصرخ. ثمّ زلت قدمه، وسقط على الأرض، ولكن إسماعيل الكردي عاد وأمسك يده، وشده بقوّة وجره خلفه. حمَدَ الجميع الله لأن النار الرومية التي تنتشر بسرعة على سطح البحر، وتشكل كابوساً للبحارة لا تتعدى في البر المكان الذي تسكب فيه.
قبل مرور وقت طويل انتبهوا إلى المشاعل أمامهم ففرحوا؛ لقد نجوا بأعجوبة. كان علي حيدر فرحاً جدًّا إلى درجة أنه لم يشعر بآلام الحروق في كتفه. فشلت مهمتهم؛ إذ لم يستطيعوا تفجير براميل البارود تحت الأسوار، ولكنهم نجحوا بالخروج سالمين. كان إسماعيل الكردي يمطر البيزنطيين بالشتائم. وبينما كان علي ينظر إلى كتفه التي غدت شديدة الحمرة، فكر في أن الدرع التي كان يلبسها قد حمته، ولكنها في الوقت نفسه ساهمت في حرق كتفه أكثر.

تقول لنفسك وغضبك ينهش قلبك: "هُزِم بلطة أوغلو في البحر، وهُزِم جنودي على البرّ أمام الأسوار". وتتحسر قائلاً: لو أن لدي رجلاً مثل جيوستنياني، لكانت المدينة الآن قد سقطت". تجرح رجالك بهذا الكلام، وتؤلمهم متعمّداً. ترتبك، وتعرف أن ارتباكك يضعف انتباهك وتدبيرك، ولكنك لا تستطيع التغلب على المشاعر التي تعصف داخلك.

نعم، لعلهم استحقوا الهزيمة، ولكنك أنت أيضاً تعرف أن المدافعين في حروب القلاع لديهم تفوق دائماً. فقد كُتبت على صفحات كثيرة من كتب التاريخ أن قواتٍ قليلة العدد أحبطت قوّات أقوى منها بكثير أمام جدران القلاع؛ خاصة إذا كانت الأسوار شهيرة مثل أسوار القسطنطينية هذه. لذا، النتيجة ليست مستغربة. ولكنك تعرف - كما يعرف البيزنطيون جيداً - أن المدينة لن تصمد كثيراً إذا لم تتلقَ المساعدة. إنهم يعرفون أنك تعرف هذا، وعلى الرغم من ذلك ينتظرون منك أن تتراجع؛ لأنهم على علم بالمعارضة الداخلية التي تواجهها، ويدعمونها.

وكحركة معاكسة، لقد زدت تأثير الأقطاب المتناقضة. فأنت تدير هذه السياسة الدقيقة بذكاء كبير، إلى درجة أنك تحظى بإعجاب عدوك قبل صديقك. ولكن السادة الأتراك يدركون هشاشة الأرض التي يقفون عليها؛ وعلى رأسهم تشاندارلي باشا. ولو كان الأمر بيد الباشوين زاغانوس وشهاب الدين، لكبرت الاتهامات الموجهة للطرف الآخر. إذ يحاول الفريقان المتعارضان القضاء على بعضهم أمام أعين الأعداء. أما أنت فقد صبرت طيلة ذلك الوقت. سيُفصل بين المذنب والبريء بالتأكيد. ولكن، من الأفضل أن يشعر الجميع حالياً أنهم يجلسون على شوك. ولكن، إذا تعرقلت مساعيك مجدداً، فستقوى هبّات الجناح المعارض، وسيقوم بما وسعه من أجل جرّك إلى مباحثات السلام، وسيحرّض الإنكشاريين ضدك من أجل تحقيق هذا. القضية مجرد قضية وقت حتى يتم ذلك. كن قريباً من تشاندارلي أكثر. اجعله يتخلص من شعوره أن سلطتك تعني نهاية سلطته وسلطة عائلته، ولا تهتم بالأدلة المادية التي تثبت حصوله على الرشى من البيزنطيين.

يمكن أن يستمد الأوروبيون الجرأة من تأخرك، ويمكن ألا يصمدوا أمام الحركات الداخلية لديهم، وأن يبدأوا حرباً صليبية ضدك. في هذه الحال سيقول البابا: "انظروا، إخوتكم صامدون على الرغم من الظروف كلها التي تقف ضدهم. وها هم ينجحون بإبقاء الأتراك خارج أسوارهم. هل ستبقون متفرجين على هذا أكثر؟ ألم يحن الوقت لكي يتحمل المسيحي الجيد

مسؤولياته برأيكم؟".
في هذه الحال، يمكن أن يجد نداؤه آذاناً صاغية وأصداء أوسع، وأن يبدأ بالحصول على دعم من شعوب أوروبا. حتى إن البندقيين والجنويين الذين ضاعفوا أرباحهم بفضلك سيتأثرون بهذا. وعندها، سيمحو الاندفاع الديني الذي سيتأجج فجأة موضوع إعاقة تجارة البولونيين التي يكمن وراءها عداء البيزنطيين. ويمكن للبابا أن يبدأ بتوزيع صكوك غفران لا قيمة لها من جديد. وحتى إنه يمكن أن يعد المسيحيين بمضاعفة أرضهم الموعودة بالجنة بتلك الصكوك. فلطالما سبّبت نداءات مماثلة الفوضى في صفوف الناس الجهلاء. في الحقيقة، إن هذه المداخلة ستفشل بفكك الحصار. ولكن، من الممكن أن يعلقوا آمالهم على حملة جديدة؛ لاعتقادهم أنهم أخافوك. دولتك ومكانتك مرتبطتان بإسقاط هذه المدينة من دون تأخير. وإذا انسحبت للحظة من أمام جنودك، أو شعروا بأدنى ضعف بقيادتك أو تراخٍ بأوامرك، فلن يبقى ما سيحل بك محدوداً بهذه الأمور. الشيء الوحيد الممكن حالياً هو التصرف بحيوية أكبر، والضغط على أسنانك حتى لو كادت تنكسر.
20 نيسان 1453
صباح العشرين من نيسان كانت هناك أربع سفن جنوية ضخمة ترفع رايات بيضاء عليها صلبان حمراء تتقدم باتجاه القسطنطينية. ثلاث منها أرسلها البابا نيكولاس الخامس في النصف الثاني من شهر آذار. غير أنها علقت في جزيرة المسكة الجنوية بسبب الرياح المعاكسة، وأبحرت مجدداً عندما أصبحت الرياح مؤاتية في الخامس عشر من نيسان، واقتربت من المدينة في العشرين منه.
ولّدَت السفن لدى سكان المدينة أملاً كبيراً لن يتحقق بقدوم الكثير من المساعدات. وبدأت الأجراس تُقرع في المدينة من دون انقطاع. اجتمع المئات من نساء ورجال وأطفال على الأسوار مبتهجين، ورفعوا رايات وأعلاماً كانوا قد بدأوا يستخدمونها كضمادات. ارتدى منادو المدينة عباءاتهم الغالية، وبدأوا بإلقاء قصائد النصر وخُطب البطولة التي تحمس الناس. وصدح المغنون في سماء الصباح البارد، ونصب الممثلون منصاتهم، وأدّوا مشاهد قتل أشيل لهكتور من الإلياذة. وقبل حلول الظهيرة، ارتفعت معنويات الشعب، وفُتِحت براميل الشراب، وشُوي اللحم الطازج الذي قدّمه الأغنياء على مواقد ضخمة. فجأةً، تحولت المدينة إلى صخب من الألوان؛ من أولها إلى آخرها.
أمر محمد خان الثاني بتحضير حصانه ما إن وصل الخبر إلى مقر القيادة

حوالى الساعة العاشرة صباحاً، ونزل مع حاشيته بسرعة إلى ديبلوكيونيون (العمود المزدوج). كان يبدو عليه التفكير والحزم إلى أبعد الحدود، وقد شحبت بشرته البيضاء اليوم أكثر من أي يوم مضى، وامتقعت بلون أصفر مرضي. لم ينبس بكلمة لأحد، وراح يفكّر ملياً علّه يتمكن من معرفة إن كانت هذه السفن الضخمة مقدمة لأسطول كبير أم لا. أصبحت الأخبار التي ستأتي من الدوريات البحرية تحمل أهمية مصيرية. إذا تصرف بسرعة، ووضع يده على السفن، فسيستعيد تفوّقه المعنوي. طلب بلطة أوغلو للمثول في حضرته، وأبلغه قراره بنفسه: "ستضع يدك على السفن، وستقبض على البحارة وتجلبهم إليّ يا بلطة أوغلو. إذا فشلتَ هذه المرّة أيضاً، فلا تأتِ أنت أو أحد من رجالك للمثول أمامي".

سُلحت مئة سفينة حربية بجهود جنود مدربين جيداً، وحُضِّرت، ثم انطلقت على وقع قرع الطبول وصوت الأبواق والأجراس، ونزلت من البوسفور لمواجهة القادمين. اضطر سليمان باشا بلطة أوغلو إلى تحريك أسطوله بعكس اتجاه تيارات البوسفور ورياحه. كان يريد أن يواجه سفن العدو في البحر المفتوح إذا أمكن، وأن يخنق أمل البحارة فيها منذ البداية. صف ثلاثمئة سفينة في صفين؛ مشكلاً سداً منيعاً يستحيل تجاوزه.

وفي أثناء اقتراب سفن الجنويين، واجهت في البداية وابلاً من مئات السهام الملتهبة. ولكن الطليان المبحرين باتجاه الريح لم يتأثروا كما كان متوقعاً، ولم تهدأ سرعتهم. وقد أطفئت الحرائق التي اشتعلت في متن السفن بمهارة وسرعة تثيران الدهشة. وحين دخلت السفن مدى الرماية، أطلق بلطة أوغلو المدافع الخفيفة المحمولة الأثقل من البنادق من مواقع الأشرعة. تصاعد إلى السماء دخان أزرق بفعل ريح البوسفور الباردة. ولكن دهشة بلطة أوغلو اشتدّت أكثر هذه المرّة. فقد كان ينبغي لهذا التفصيل أن يكون معلوماً من قبل؛ إذ تحطّمت الكرات المقذوفة على هياكل السفن الخارجية من دون أن تسبب أي أذى جدي. إثر هذا، أمر بلطة باشا رجاله بالتصويب إلى الصواري، ولكن البحر في ذلك اليوم الربيعي كان هائجاً جداً؛ ممّا حال دون التمكن من إصابتها. وازدادت نسبة الفشل بتحقيق الإصابات بسبب تماوج مياه البحر، ممّا حال دون إصابة أي من الصواري. في هذه الأثناء، بدأ الطليان بالرد على إطلاق النار. وكان سلاح المدفعية لديهم أكبر بكثير من البنادق، وأكثر تأثيراً على سطح السفن الضعيفة المتلاصقة، فأحدث أضراراً بالغة في تلك السفن بسهولة. إثر هذا، أصدر بلطة أوغلو أمره بالإبحار نحو السفن الجنوية ومحاصرتها. ولكن ما لم يحسب حسابه هو

صعوبة قيام سفن خفيفة إلى هذه الدرجة بحركات التفافية في البحر الهائج.
تقدم الطليان من دون تخفيف سرعتهم، وبدأوا بمناورة الالتفاف عند رأس أكروبول لينـزلوا إلى الخليج بالسرعة نفسها. ولكن تطوراً حدث في تلك الأثناء أفرح بلطة أوغلو. فقد توقفت الريح الجنوبية فجأة، ونزلت أشرعة السفن فوراً كزهر الخريف. وفي اللحظة ذاتها، بدأت التيارات المعاكسة بجرف السفن نحو الموقع الذي يتواجد فيه السلطان محمد الثاني الذي كان يتابع الحرب البحرية من الشاطئ الآخر للخليج عند أسوار غلاطة.
ترك الطليان الأشرعة هذه المرة، وحرّكوا المجاذيف. وضَعَهُم هذا البطء المفاجئ في الحركة في وضع صعب أمام الأسطول التركي الكبير المواجه لهم. فقد اصطفت السفن بشكل متلاصق، وهكذا صارت كقطعة واحدة في صف صخري. تحركت السفن التركية كيلا تضيّع هذه الفرصة. وسُمِعت صيحاتُ مقاتلي البحرية من الشاطئ في أثناء قرع الطبول محددةً إيقاع المجاذيف. وعلى الرغم من إدراك بلطة أوغلو الإدارة القوية لسفن العدو، فهو لم يقطع أمله من النصر مطلقاً؛ معتمداً على كثرة العدد.
ومع توقّف الريح تكاثفت رائحة البارود والدم التي تلفهم؛ روائح تلوّث الجو الذي يمنح البحر مقداراً من الحيوية، وارتفعت أصوات صرخات الموت والغضب التي لم تهدأ، وراحت أسماك ضخمة تدور حول الجثث وأجساد الجرحى في المياه التي صارت حمراء اللون... كان كل هذا كالكابوس.
ولكن الطليان تصرفوا بذكاء وهدوء أعصاب إزاء الهجوم التركي العظيم. وقدّمت السفن التركية خسائر كبيرة بسبب السهام الملتهبة التي راحت تقذف عليها من الأسطح المرتفعة في أثناء تقدمها بجرأة من أجل اعتراض طريق العدو، وكانت تُجبر على التراجع في كل مرة. حاول بلطة أوغلو أن يرد على النار بنار أكثر كثافة، ولكنه رأى مجدداً أن تأثيرها ضعيف، فشعر بالخوف. بدا له أنه من الصعب اعتراض هذه السفن الضخمة من دون أن يتدخل شخصياً، فقد بدأ رجاله يخافون ويأسون. لذا، تقدّم بسفينته نحو سفينة القبطان الأكبر، وضربها من وسطها من دون أن يهتم بانكسار بحارته. ولكن الضربة لم تؤثر على سفينة الطليان العملاقة المتجاوزة عصرها بالنسبة لمنافسيها منذ زمن. وكانت نتيجة تلك الخطوة كارثية؛ فقد أصبح بلطة أوغلو ورجاله تحت مطر قذائف المدفعية والسهام وطلقات البنادق. لم يعد هناك مفر من الحرب، لذا غُرزت رؤوس الحراب في سفن العدو، ورميت الحبال ذات الخطافات عليها، كما استخدمت السلالم الخشبية وتلك

المصنوعة من الحبال على الرغم من صعوبة العملية.
لم يتراجع الجنود العثمانيون عن الهجوم الذي شنوه بعزيمة أدهشت الطليان على الرغم من تقديمهم الكثير من التضحيات. إذ كانت رؤوسهم تسحق وتقطع بالسيوف، فيما تثقب أجسادهم بالنبال في أثناء صعودهم على الحبال والسلالم من دون أن يتراجعوا عن الهجوم. استمرت المواجهة في هذه المعركة الفظيعة ساعتين؛ صبغت خلالهما هياكل السفن باللون الأحمر. وغدت الأمكنة التي جفّ الدم فيها ذات لون نحاسي بشع. وغطّت حشرات الربيع التي جاءت من البر كامل المساحة تقريباً، وحطّت على وجوه المحاربين المغطاة بالدم والعرق، ثم طارت بعد أن سبّبت لهم إزعاجاً كبيراً.
كان محاربو البحرية العثمانيون يقفزون من سفينة إلى أخرى من السفن المتلاصقة، ويتسلقون السلالم والحبال ليحلّوا مكان رفاقهم الذين يسقطون. ولكن، على الرغم من عزيمتهم الكبيرة لم يحققوا أيّ نتيجة جيدة. ولكن الأمر لا يمكن أن يستمر هكذا. إذ لا بدّ من أن يُهزم الطليان الذين ينهارون من شدّة التعب وتناقص العدد عاجلاً أم آجلاً. بدأ صدّ الأتراك الذين تمكنوا من الوصول إلى بعض الأماكن على السطح يصبح صعباً أكثر. وفي أثناء اقتراب السفن من موقع محمد خان، هبت الريح الجنوبية فجأة، فانتفخت أشرعة سفن الجنويين مجدداً.
هذا يعني أن الطليان قد استعادوا التفوق الذي فقدوه. وفي أثناء صعود بلطة أوغلو إلى سفينة القيادة الإيطالية باندفاع وغضب وهو غير مبالٍ باتخاذ تدابير احتياطية، تلقى ضربة بالسيف على رأسه، ووجد نفسه مستلقياً على سطح السفينة. كان يصرخ بجنون نتيجة غضبه وخيبة أمله وليس بسبب ألمه، غير أنّه شارك بالهجوم من أجل تحفيز جنوده؛ على الرغم من عدم قدرته على الرؤية بعينه اليسرى. وحين بدأت السفينة التي صعد إليها بلطة أوغلو ويقودها فرانسيسكو ليسنللي بالتحرك نتيجة انتفاخ أشرعتها، ضربت السفن الضعيفة المصطفة أمامها كالجدار. عندها، بدأ مقاتلو البحرية الأتراك الذين كانوا يصعدون إلى السفينة فرادى ومثنى يتساقطون. ولولا تعرّف جنود بلطة أوغلو إليه بصعوبة بالغة بسبب الدماء التي سالت على وجهه وسحبهم إيّاه لوجد نفسه في مياه مرمرة الباردة. في ما بعد، كثيراً ما سيتحسر قائلاً: "ليتني غرقت في تلك المياه المظلمة، وزلت، واختفيت...".
في تلك اللحظة، قاد محمد خان الثاني حصانه نحو الشاطئ ليتابع المعركة من مكان قريب جداً، وبدأ يمطر بلطة أوغلو بالأوامر. ولكن، كان من

الصعب جداً سماع صوته وسط ذلك الصخب. نهض بلطة أوغلو من حيث سقط، وميّز صوت السلطان، وحين نظر بعينه السليمة إلى حيث يقف، وجده ينظر إليه مباشرة. في تلك اللحظة، سيطر عليه خجل فظيع، فرمى بنفسه على الأعداء بنيّة الانتحار. هذه المحاولة حظيت بتقدير الذين شاهدوه من بعيد جميعاً. ولكن مع الأسف لم تكن هناك طريقة لإيقاف تلك السفينة الضخمة بواسطة السفن التي رُبطَت إحداها بالأخرى. غمر الخجل البحارة الأتراك، فيما غطت جثث الضحايا وأشلاؤهم سطح البحر المشاغب في ذلك اليوم الربيعي الجميل كشال حالك السواد.

عند الساعة الرابعة، كانت السفن الإيطالية قد خرقت الحصار. لم ينبس محمد خان أمام منظر الكارثة الظاهر أمامه ببنت شفة، وبقي لفترة طويلة جالساً على صهوة حصانه متأمّلاً المنظر. وأخيراً، أدرك أنه لا معنى لمطاردة السفن، فأصدر أمره بانسحاب الأسطول. بعدئذ، عاد إلى مالتبة حيث نصبت خيمته من دون أن يتكلم كلمة واحدة مع أحد.

أرسل قسطنطين الحادي عشر مساء اليوم نفسه مراسلين إلى روما لإيصال خبر الانتصار الذي تم تحقيقه في البحر. وفي كلمة ألقاها أمام لجنة الحرب التي اجتمع أعضاؤها في مجلس الشيوخ، قدم اقتراحاً بعرض مسألتي وقف إطلاق النار وتعويضات الحرب للتصويت. بالنسبة إليه، هذا هو الوقت المناسب تماماً لإنقاذ المدينة.

ألقى معظم الأعضاء كلمات تعبّر عن موافقتهم على المقترح. وبينما كان المطر الربيعي البارد يهطل على الفسحة المظلمة في الخارج، قال قسطنطين: "لم يستطيعوا السيطرة على سفينة واحدة من سفننا. بنوا أسطولاً ضخماً، ولكن من الواضح أنه ليست لديهم خبرة بما تحتاج إليه السفن الحربية. إذ لا توجد في أسطولهم سفن ضخمة تناسب البحار الصعبة. إنهم يتخيلون أنهم سيحققون انتصارات كبرى بسفن ضعيفة الهياكل، وذات صف أو صفين من المجاذيف. تعلم السلطان الشاب الذي فضّل العدد على النوع خطأه بدرسين شديدي الإيلام. فمنذ البداية، تذوّق طعم هزيمتين، إحداهما برية والأخرى بحرية ليلة الثامن عشر من الشهر. والآن، لم يستطع أسطوله الضخم مجابهة أربع سفن. برأيي، إن هذه أسباب كافية لجعله يتراجع...".

صرخ السناتور سينتيوس فيسبيللو: "علينا ألا ندفع شيئاً لهؤلاء". وبدا جلياً من حركاته وثقل لسانه أنه ثمل. حاول النهوض بجسمه الهائل ورأسه الضخم ذي الشعر الكث الأبيض وهو يتابع: "جلالة الإمبراطور منتبه إلى كل شيء. هزمنا البرابرة. وهم من سيعرضون علينا السلام قريباً. علينا ألا نتسرّع بتقديم ورقة رابحة لهم".

قال ديمتروس كارباتي أكبر أعضاء مجلس الشيوخ سناً، وكانت سمرة بشرته تتناقض مع بياض شعره: "عن أي ورقة رابحة تتحدّث؟".

"أتحدث عن قضية عدم إرسال المزيد من الوسطاء لأولئك البرابرة ليرجوهم... نعم، هذا ما قصدته بالضبط يا سيد كارباتي".

تدخل الإمبراطور بقوله: "هذا ليس رجاء، بل إنه مجرد خطوة تمهيدية".

"يا صاحب الجلالة، إذا كان السلطان ذكياً كما يُحكى عنه، فلا بدّ أنه فهم أنه لم تعد هناك جدوى من الحصار".

"كان الرب بعوننا، فقد انتقلنا إلى موقع فيه شيء من التفوق حالياً يا سيادة السناتور، وأنا مع الاستفادة من مكاسب هذا الأمر حتى النهاية. وكما ترى يا عزيزي السناتور، إن الغالبية مع هذا الرأي. لهذا السبب سأقدم عرضي، وهذا قراري النهائي. ولا أرى ضرورة لمناقشة هذا الأمر في

الشورى المقدسة".
قطّب كارباتي وجهه الأسمر، وقال: "لا نستطيع استبعاد الشورى المقدسة يا سيدي. كيفما كان فهذا تقليد بيزنطي قديم".
تحدّث سينتيوس فيسبيللو قبل أن يجيب الإمبراطور: "بالإضافة إلى ذلك، أنا لا أرى حاجة لرؤية المزيد من الكاثوليك في مدينتنا. لنشكرهم، ولنصرفهم...".
صرخ نيكولاس بيريوستا من الصفوف الخلفية: "هل تعي ما تقوله؟". وكان أكثر أعضاء مجلس الشيوخ شباباً؛ إذ يبلغ من العمر ستة وثلاثين عاماً. كما أنه حاد الذكاء، ويحظى ذكاؤه بتقدير الجميع. وكان قد تقاعد من قيادة الفرسان قبل سنتين نتيجة إصابته. "إن وجود حلفاء لنا حالياً أفضل للجميع. فصرفهم عنا فجأة حتى لو لم نكن بحاجة إليهم سيترك انطباعاً سيئاً. لأن فك الأتراك الحصار لا يعني أنهم لن يستجمعوا قوتهم من جديد، ولن يهاجمونا مجدداً وبقوّة".
صرخ فيسبيللو: "هيا، غادر يا خادم محمد!". نهض هذه المرة، فبدا جسده كشجرة مائلة بتأثير العاصفة، وتمكن من تكوير قبضة يده، والتلويح بها نحو الشاب. وقد ترددت أصداء هذا التصرف غير اللائق بحضور الإمبراطور لفترة في قاعة اجتماعات قصر بلاخرنائي.
كانت عينا بيريوستا الشبيهتان بثقبين أسودين في وجهه الشاحب مسمّرتين على الإمبراطور. هز قسطنطين رأسه قليلاً وكأنه يطلب منه الهدوء، ثم خاطب الجميع: "انتهى الاجتماع. ولكن، إذا أتى أحدٌ إلى مجلسي ثملاً باسم نصر لا معنى له ولم يتحقق بعد، فسأخضعه للتعذيب في زنزانات أنيماس، ثم سآمر بخنقه. عليكم ألا تشككوا بهذا".

* * *

"حسن يا زاغانوس باشا، خذ يا زاغانوس باشا، خذ كل شيء... افعل كل ما ينسي هذه الدولة أنها دولة تركية وأنت مرتاح الضمير. هذا الزمان زمانك، افعل ما تشاء، ولكنْ لا تنس أن ما تفعله سيعود عليك ذات يوم أسوأ بألف مرة...".
التفت محمد إلى تشاندارلي بعد أن استمع من زاويته بهدوء إلى هذا النقاش الذي ارتفعت حدّته كثيراً، وصار مزعجاً بسبب الأعصاب المنهكة نتيجة تحويل ساعات الليل إلى نهار، وكأنه يحاول إعطاء معنى لهذا الانفجار الذي جاء في غير وقته، ولا يحمل أيّ معنى.
قطّب خليل الكبير حاجبيه، وامتقع وجهه بحمرة الغضب وهو يتابع كلامه قائلاً: "ليس لديك همّ غير تشكيل قوة ونفوذ جديدين في محيط السلطان.

فليحم الله هذه الأمة من أمثالك... فأنت وأمثالك تملأون رؤوس المرتدين في كل زاوية من الزوايا، وتسيطرون على كل مكان وكل شيء. حتى إنكم تحرضون سلطاننا علينا. هذا اليوم يومكم...".

صمت خليل الكبير بعد أن انتابته نوبة سعال سدت مجرى تنفّسه. لم يكسر جدار الصمت العميق الذي استمر لفترة سوى صوت المطر المنهمر في الخارج. كان محمد خان مندهشاً لرؤيته وزيره منفعلاً إلى هذه الدرجة. لذا، قال باحترام وبصوت حنون: "ما زلت الصدر الأعظم يا خليل الكبير. لا أحد أساء أو سيسيء لك أو لرفاقك".

قال خليل باشا: "ألجأ إلى عفوكم يا سلطاني. لم أكن أرغب بمضايقتكم باعتراض كهذا. ولكن، لا بد لأحد أن يتكلم...".

"وأنت من سيتكلم، أليس كذلك يا باشا؟".

قال خليل الكبير من دون أن يرفع رأسه نهائياً: "ألجأ إلى عدلكم يا حاكم العالم".

"لا بأس يا خليل باشا. ولكنك تعرف جيّداً كما يعرف الجميع أنني لا أعطي أحداً أكثر مما يستحق. ولا أميز أحداً عن غيره، وأسمح لأيّ شخص بالتقدّم والارتقاء حسب خدماته ومواهبه وذكائه. اعرفوا كلكم جيداً - حتى أنت يا باشا - طالما أنني على رأسكم فلن يستطيع أحد أن يدوس على رأس أحد أو كرامته، أو يحرمه من حقه. لا وقت الآن لهذا النوع من التوترات، وللدخول في حسابات معقدة. المهم أساساً هو عرض خليل الكبير؛ إذ يرغب الباشا بأن نقبل عرض البيزنطيين بوقف إطلاق النار، والحصول على التعويضات المقترحة".

عارض زاغانوس باشا الذي كان قد بقي صامتاً حتى تلك اللحظة بحدّة جعلت وجهه الأبيض شديد الحمرة: "لا يجوز هذا يا سلطاني! هذه فكرة تدلّ على الجُبن، ولا تستحق المناقشة. إذ سيعني قبولنا عرضهم انتصاراً نهائياً للبيزنطيين الذين تغلبوا علينا حتى الآن في كل مرة. كيف سننظر إلى وجوه أولادنا مستقبلاً؟ لا، لن نستطيع النظر إلى وجوههم. ما يجب أن يُفعل هو إعطاء درس جيد للبيزنطيين ورعاتهم الطليان. علينا أن نستمر بضغطنا عليهم وبالمحافظة على هدوئنا من أجل تحقيق هذا".

قفز الصدر الأعظم العجوز على قدميه قائلاً: "أتقول عني إنني جبان أيها المرتدّ؟".

نهض السادة الذين كانوا يجلسون بالقرب من الباشا على الرغم من وجود السلطان الرهيب. نظر زاغانوس باشا بطرف عينه إلى السلطان من دون أن

يبدي أي ردة فعل؛ رغم أن رجاله الخاصين بدأوا يتحركون بتململ. لا بدّ أن "خليل" الكبير سيفكّر ملياً بمداخلاته الغاضبة في هذا اليوم وهو مسجون في زنزانته الرطبة والعفنة والمظلمة التي تفوح فيها رائحة القسوة منتظراً موعد إعدامه من دون شك.

بإشارة من السلطان، دخل عدة ضباط من لواء النخبة الخاص الخيمة السلطانية. كان منظرهم مخيفاً؛ فقد أسندوا سيوفهم المحنية على أكتافهم، وأمسكوا بأيديهم اليسرى بتروسهم البالغ وزن الواحد منها سبعين كيلوغراماً، قبل أن يرفعوها على أكتافهم وكأنها من دون وزن.

زأر السلطان: "خليل الكبير!".

فانحنى خليل الكبير فوراً، وقبّل طرف قفطان السلطان.

"آه منك يا خليل الكبير! يجب عليك احترامي. لذا، لا تضغط عليّ أكثر حتى تستنفد صبري. قلت لك منذ قليل: لا أحد سيتفوّق على أحد في مجلسي. إما أن تحترم كلامي، أو تنهض وتغادر".

انهار خليل باشا الكبير وهو يشعر بخجل بالغ لا يمكن أن يشعر به إلا صاحب كرامة. وانهياره المفاجئ جعل ركبتيه ترتخيان. وحين زاغ بصره أدرك أنه على وشك فقدان وعيه. سمع السلطان يلقي بعض الأوامر بنبرة الغضب ذاتها وهو ينهض محتداً، ثم صرخ بأوامر أخرى، وبعد ذلك خيّم الصمت. وما هي إلاّ لحظات حتى أمسك به بعض الموجودين من ذراعه، وأجلسوه مجدداً.

قبل مرور زمن طويل استعاد وعيه، وسمع السلطان يتحدث عن مشاريع غريبة خيالية. كان هذا الشاب يتحدث عن أمور خيالية مثل نوع من المدافع الصغيرة التي تطلق من مسافة بعيدة، ولكنها تطلق نحو الأعلى، وتنـزل طلقاتها عمودياً متجاوزة العوائق. والأغرب من ذلك، سمعه يتحدث عن سفن تسير في البر بواسطة الأشرعة. حينئذ، شكّ الباشا في أنه ما زال فاقداً وعيه، ومن المحتمل أن ما يراه حلم، وأنّ هذه الليلة لم تكن موجودة مطلقاً، وكذلك هذا الحصار وحياته المزدوجة. ثم خيم الظلام مجدداً على كل شيء.

الفصل السادس
فتح الأشرعة
للإبحار على الهضاب

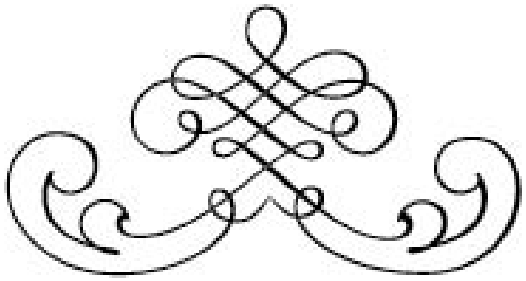

I

"إما أن أغدو بطلاً أو أغرق بالطين.
ليس هناك حال وسط بينهما".
ديستوفسكي

21 نيسان 1453

قال قبطان البحار سليمان باشا بلطة أوغلو: "لا بدّ أنكم قد رأيتموني وأنا أضرب سفينة القيادة الخاصة بالعدوّ بسفينتي يا سلطاني".

كان المطر يهطل رذاذاً، فيما الريح الباردة تعصف بالأجساد الصامتة. بدا بلطة أوغلو منهكاً، ولكنه على الرغم من ذلك نجح بالكلام بصوت هادئ. كان قد فقَدَ عينه اليمنى. وجسمه الجريح الذي يحافظ على انتصابه بصعوبة ملفوف بالضمادات. بدا عليه الرضوخ لقدره تحت نظرات السلطان الغاضبة والساحقة. فكّر طوال الليل بأن يرمي نفسه في مياه مرمرة الباردة، أو أن يقطع شريانه الأبهر بسكينه منهياً حياته؛ ولكنه لم يفعل شيئاً. ومن المحتمل أنه اختار مواجهة قدره في يومه الأخير كمحارب حقيقي. كان الألم الذي يشعر به شديداً جداً. ومع إضافة الخجل إليه، تغدو حياته لا تطاق أبداً. وبينما كانت الريح الرطبة تزيد ألمه، ضغط على أسنانه وهو يتابع: "لقد حاربت بكلّ ما أوتيت من قوّة يا سلطاني. لم أتردد لحظة بالهجوم. ولكنّ التياراتِ والبحرَ الهائجَ والريحَ كلها اتّحدت ضدنا. ورغم أنّ سفن العدو هائلة الحجم أدهشتنا... بذلنا - رجالي وأنا - ما في وسعنا؛ فيما كانت سطوح السفن المرتفعة تنفث حمم الموت علينا...".

قال السلطان محمد من بين أسنانه المصطكة: "لا تقدّم لي المزيد من الذرائع. لا يمكن أن تكون هناك ذريعة لعدم استطاعتك إيقاف أربع سفن بأسطولك الضخم. حذّرتك مسبقاً من عدم المثول أمامي في حال فشلت مجدداً. والآن، سآمر بوضعك على الخازوق...".

طلب الوزراء جميعاً وعلى رأسهم زاغانوس وخليل الكبير الإذن بالكلام، وبينوا أن هذا القرار غير صائب. وافق الباشوات والقادة على هذا الرأي، وأبدوا مقاومة غير مألوفة.

كان محمد خان يعرف أنه يجب أن يتراجع خطوة لضرورة تحقيق التوازن الداخلي: "بما أن وزرائي وباشواتي متفقون بالرأي على أن هذا الرجل بريء، فمن واجبنا أن نلبي رغبتهم. اضربوا هذا الكلب مئة سوط، وقسِّموا أمواله وأملاكه بين الإنكشاريين الأبطال. وعليه ألا يريني نفسه. وقائد الأسطول الجديد هو السيد حمزة".

أُبعد بلطة أوغلو بمرافقة الإنكشاريين الذين أمسكوه من ذراعيه. ومنذ ذلك اليوم، لم يسمع أحد باسمه.
وبينما كان السلطان محمد ينسحب إلى خيمته، قال مخاطباً زاغانوس: "بما أننا لسنا جيدين جداً في خوض الحرب بحراً، سنعلّمهم درساً بأسلوب لا يخطر ببال أحد يا باشا".
أحنى زاغانوس باشا رأسه قائلاً: "تسلّم رأسك ولا تسلّم سرك يا سلطاني".
"لو عرفت شعرة من لحيتي أصغر سر لي لأزلتها فوراً يا زاغانوس. انتظر، وشاهد".
* * *
شارك حضرة آق شمس الدين بالحديث بوقار قائلاً: "يُعتبر القنوط من المحظورات".
أما عظمة الملا غوراني الذي وافقه على قوله ذاك فليست من النوع الذي يمكن أن يتم تعلمه. وكان أكبر الملوك يرتجف أمام هذين الرجلين. شعر محمد كما في كل مرة بأنه فقد مركزه ورهبته وعاد ولداً صغيراً أمامهما. ثم شعر بعد ذلك بقلق شديد ناجم عن ارتدائه القفطان الحريري الأحمر والأصفر شديد الأبهة اليوم. إذ يجب ألا يرتدي أمام هذين الشيخين أكثر من جبة درويش.
أكمل آق شمس الدين كلامه قائلاً: "لهذا السبب يجب ألا تفقدوا ثقتكم بنفسكم، وعزمكم يا سلطاني".
قال محمد بأدب من دون أن ينظر إلى أستاذيه مباشرة: "سمعت أن بعض الأشخاص قليلي الأدب يضايقون أستاذي آق شمس الدين. يمكنني أن أغضّ الطرف عن السخرية مني، والحديث عني من وراء ظهري. ولكن، عندما يتعلق الموضوع بأستاذي...".
ضحك الشيخ وهو يداعب لحيته البيضاء: "سلطاني، سماعنا أموراً كهذه غير مهم بالنسبة إلينا؛ حتى إنّ هذا الأمر ليس جديداً؛ فقد حدث ذلك من قبل وسيحدث مستقبلاً. فمن هموم العيش بجوار السلاطين والملوك التعرض لافتراءات لا تنتهي، ولعلنا في النهاية سندفع رؤوسنا ثمناً لهذا...".
رفع محمد عينيه جزعاً: "ما هذا الكلام يا أستاذي؟".
"أنا أسمو بكم عن هذا يا سلطاني. ما أقوله إقرار بحقيقة وضعٍ عام. لا تضيق قلوبنا بهجاء أحد، ولا تنشرح بمديح أحد أيضاً؛ لأن مدح العبد وهجاءه متماثلان بمفهومنا. فمن يمدحك اليوم، تجده بلمح البصر يهجوك غداً. فالقلوب كقدور تغلي على النار، وأنت لا تستطيع أن تؤسس بيوتاً

من الورق فوق قدر يتجمع بخار الماء على غطائها".
"يجب على السلطان الجيد أن يتجنب الظلم بقدر ما يكون عادلاً يا أستاذي. ولكن، كيف يستطيع السلطان أن يوازن بين كفتي ميزان العدالة في كل حكم يصدره؟ يا إلهي! ما أثقل هذا الحكم!".
وضع محمد وجهه بين كفيه، ثم فرك عينيه. صار النعاس الذي يشعر به يمنحه مظهر الحزين والمفكر بشكل دائم.
تحدث الملا غوراني وهو يشعر بشفقة صادقة على حال تلميذه: "توكل على الله يا سلطاني. التوكل القوي سلاح المؤمن الذي يهدم القلاع. حتى إنّه أكثر تأثيراً من مدفعكم الضخم سلطاني. ستخرجون من هذا الأمر بوجه أبيض. ومواقفكم الحازمة ستضعف تأثير المجموعات المناهضة لكم. لا تنسوا هذا".
"يا أستاذي القدير، أستطيع التغلب على الذين يقفون ضدي. ولكن ما يحرق قلبي هو اتهام البعض لكما بأنكما توجهانني نحو طريق خاطئ، والقول إنّ أدعيتكما لا تقبل. أريد أن أحاسب أولئك الأشخاص في أسرع وقت ممكن؛ ليس من أجلي، بل من أجلكما. لذا، اسمحا لي بذلك أرجوكما".
صرخ آق شمس الدين والملا غوراني معاً، وقالا إنهما لا يقبلان بأي شكل أن يفعل هذا باسميهما.
ثم قال الملا غوراني بابتسامة رائعة ألانت خطوط وجهه الحادة: "ليقولوا ما يشاءون يا سلطاني. ولكننا لا نستطيع السماح بإراقة دم أحد من أجلنا".

قال زاغانوس باشا: "يبلغ ارتفاع قمة الهضبة نحو ستين متراً يا سلطاني. سيتوجب علينا السير مسافة كيلومترين على الأقل، والصعود بميل يبلغ ثماني درجات. العمل الذي تم البدء به البارحة بعد العصر، استمر ليلاً أيضاً. يعمل البناؤون والجنود من دون انقطاع، ويُنتبه بشدة إلى السرية والهدوء كما أمرتم. حتى إننا لا نسمح للطير بأن يطير على طول شاطئ الخليج، ونمنع جنودنا من الحديث معاً لكي لا يعرف العدو بخطتنا حتى اللحظة الأخيرة".

قال محمد: "ستون متراً إذاً". وبدأ يُمسّد ذقنه بشرود. "فلتجعل كل المشردين العاطلين عن العمل الذين لحقوا بالجيش إلى هنا والغجر يعملون يا زاغانوس. فبما أن هذه الغربان تريد المشاركة بالغنائم من دون المشاركة في القتال فلتقدّم لنا بعض المساعدة إذاً، ولتفدنا بشيء".

"كما أمرتم يا سلطاني. سنصعد من قرب بوثاريون (قباطاش)، أي كروم العنب الواقعة خلف أسوار غلاطة. أما موقع نزولنا فسيكون بالقرب من دير أيالونكا (قاسم باشا). المنطقة صعبة، ولكن يعتقد أنها المنطقة الفضلى للعبور".

قال محمد مبتسماً: "إذن تحرك يا زاغانوس". وأسرع ليتفقد سير العمل.

22 نيسان 1453

همس إسماعيل الكردي مجدداً: "أقسم إنني رأيتها، أقسم لكم".

حبس الآخرون أنفاسهم وهم ينظرون إلى الحيوية التي تتراقص على وجهه السليم تحت ضوء شرر النار. توقف هطول المطر في الصباح، وتغيرت جهة الريح إلى الجنوب، ولفَّت الجو حرارة متعِبة.

قال الريّس مصطفى بصوت ناعس: "اهدأ قليلاً واجلس، وإلا سيتوقف قلبك".

جلس إسماعيل بجانب النار وفي عينيه بريق طفل شارد في الحكايات. نظر إلى رفاقه بالسلاح، واستمر بالكلام من دون أن يسيطر على انفعاله: "أشرع السفن على الهضاب يا ريّس، أقول لك إنني رأيت هذا بعينيّ".

"هل جننت يا إسماعيل؟ ما الذي تقوله؟ هل تعي ما تقوله؟".

"يقال إن سلطاننا من وضع هذه الخطة أيضاً. كما سيتم إطلاق مدافع الهاون من هذه القمة مثل البنادق، وستنهك العدو...".

"ما علاقة مدافع الهاون بهذا يا صديقنا؟ هل أصبت بمسّ من الجنون أو شيء من هذا القبيل؟".

"صدّقني يا آغا. لقد طلبوا دعماً من عناصر المهام لدوريات الخليج. وكنت حينذاك في مقر قيادة زاغانوس باشا من أجل إيصال أمانة. تبعت الدورية، ونزلت إلى الخليج. ورأت عيناي اللتان ستأكلهما الديدان ذلك المنظر المدهش بعد المكان الذي تم اكتشاف قبر أبي أيوب فيه. كانت الظلمة قد بدأت ترخي سدولها، فيما السفن تسحب على زلاجات تدهن بالزيت بشكل متتابع، وقد رُبطت إليها في المقدمة بِغال جرٍّ، وخلفها سار الجنود والمتطوعون. قام مئات الأشخاص بدعم السفن بأعمدة خشبية من الطرفين كي لا تنحدر نحو الخلف. وعندما بلغت القمة، تُركت لتنحدر بسهولة نحو الأسفل، وقد رُبطت إحداها بالأخرى. أما الأشرعة المفتوحة فساهمت في تقدّمها بسرعة. نزلت ثلاثون سفينة فيما كنت واقفاً هناك. كانت تبدو وسط الضباب فوق القمة كما لو أنها تطير قادمة من وسط الغيوم يا آغا. لن أنسى ذلك المنظر ما دمت حياً. ولا بدّ يجب أن يكون الحراس البيزنطيون قد فقدوا عقولهم".

عدّل الريّس مصطفى لفَّته وهو يقول: "ما هذه السرية التي يعمل بها سلطاننا، حتى نحن جنوده لا علم لنا بشيء نهائياً". ثم تابع وهو يفتل شاربه الأشيب قليلاً: "أنا واثق أن الوزراء أيضاً لم يعلموا بذلك حتى اللحظة الأخيرة".

قال علي حيدر وهو يصفق بيديه لشدّة انفعاله: "لنرَ ما سيفعله الجنرال الإيطالي الآن". وشعر بالألم في كتفه حين تحرك بشكل مفاجئ.

قال خيري البيلجكي وهو يضحك: "حتى الجنرال جيوستنياني الذكي والخبير سيبتلع لسانه من الدهشة بفضل هذه الخطة". وكانت أزرار قميصه مفتوحة حتى بطنه، وهو يستند إلى مرفقيه متأملاً النجوم، وابتسامته المحملة بالاستخفاف تملأ وجهه المنوّر.

ومن دون أن يزيح حسين الإزميتي عينيه الحمراوين الجاحظتين عن النار المتأججة قال: "إنهم يعتمدون على جنـزيرهم كثيراً. وحين استطاع الصليبيون تجاوز الجنـزير، استسلمت المدينة لهم. ونحن الآن سنتجاوزه بفضل خطة سلطاننا؛ ممّا يعني أنه سيتم القضاء على المقاومة فوراً. النصر قريب يا أصدقائي".

III

22 نيسان 1453

"سيدي، هذه حقيقة، والسفن ما زالت تنـزل".

حاول الجنرال جيوستنياني أن يستجمع أفكاره ويسيطر على عقله المتبلّد بفعل الدهشة وخدر النوم، ثم التفت إلى مساعده سيرجيو غاليمبيرتي، وسأله مجدداً: "قلت إن السفن تنـزل عن الجبل، أليس كذلك؟".

قال غاليمبيرتي بصوت مرتجف: "نعم. عددت أكثر من خمسين سفينة يا جنرال، وما زال هناك المزيد من السفن التي تهبط".

"ضع مدافع المنطقة كلها في حالة الاستعداد...".

"سيدي...".

"اطلب من فرانتزس مدَّك بمدافع دعم، وأبلغه أنني أحتاج إلى ثلاثة مرابض على الأقل...".

"سيدي، ليست لدينا مرابض هناك! فقد نقلت مدافع المنطقة كلها إلى أسوار البر...".

لم يصدق جيوستنياني أذنيه، وبقي مشدوهاً لفترة، وشعر كما لو أن قبضة من الجمر أو حجراً ضخماً لا يمكن هضمه في معدته. سأل بصوت متحشرج: "من الذي أصدر هذا الأمر؟ أهو الإمبراطور؟".

"لا يا سيدي. حسبما عرفت، إنه ميغادوك لوكاس نوتاراس".

"كان يجب عليّ أن أتوقع هذا. لقد أقدم على هذا العمل من دون أن يخبرني. إنه ممتعض من وجودي هنا منذ بداية المعركة...". وبعد أن صمت جيوستنياني لفترة، قال وكأنه يحدث نفسه: "إنه واثق من قدرته على النجاح بالدفاع وحده. لا يحتمل ذاك الكلب تفضيل الإمبراطور لي. انظر إلى المأزق الذي وضعنا فيه. مهما أسرعنا فإن نقل المعدات اللازمة إلى المنطقة سيستغرق يوماً. والقيام بهذا تحت وابل النيران سيصعّب الأمر أكثر. إنهم يثقون بجنـزيرهم كثيراً. اللعنة، لقد نسوا أن الاحتلال الماضي تم من الجهة نفسها".

قال غاليمبيرتي: "لدى السلطان الشاب ذكاء تصعب مقاومته يا سيدي. وهو ينجح دائماً بالتقدّم علينا بخطوة. لو أن أسطوله قوي بما فيه الكفاية، لكسر الدفاع منذ زمن".

رفع الجنرال يده مسكتاً مساعده: "انتبه، إذ يُساء فهم الإعجاب بالعدو إلى هذه الدرجة يا غاليمبيرتي. فهم ليسوا مسرورين من وجودنا هنا أصلاً، ومهما فعلنا فلن نعجبهم. لذا، كن حريصاً على عدم التفوّه بكلام كهذا

أمام أحد".
"أمرك يا جنرال".
23 نيسان 1453
وصل النقاش الدائر بين جدران كنيسة القديسة ماريا الشبيهة بالأشباح إلى نهايته.
فجأة، قال الإمبراطور: "اسمحوا لي، لقد سمعتم عرض السيد ممثل البندقية. أريد أن أنتقل إلى التصويت الآن". كحّ كحّة خفيفة، وحاول أن يسيطر على ارتجاف صوته. كانت معنوياته منهارة منذ بداية هذا الصباح الخانق، وكان يشعر بتعب شديد إلى درجة أنه يريد أن يذهب إلى قصره، ويقفل على نفسه باب غرفته، ويشعل البخور، ويدخل فراشه، وينام عدّة ساعات أو أشهر. كم يرغب في أن يكون ما يحدث الآن كابوساً سيئاً سيستفيق منه عاجلاً، وكم سيكون ممتنًّا لو استيقظ على حقائق جميلة هذه المرة.
تململ أعضاء مجلس الحرب البالغ عددهم اثني عشر شخصاً. وعندما لم يقدِّم أحد منهم رأياً معاكساً، ألقى الإمبراطور كلمته المقتضبة على مسامعهم بحضور جيوستنياني. وكان معظم أعضاء مجلس الحرب من النبلاء البندقيين: "ألقى الأسطول التركي مراسيه على بعد كيلومتر ونصف في موقع الماء البارد. إنهم لا يتحركون حالياً، ولكن لا يعرف أحد متى سيفعلون هذا. فقد انتهوا من نصب جسر من الطوافات على الخليج؛ وهذا يعني أنهم يمكن أن يحشدوا أسلحة وعتاداً ثقيلة بسرعة عند الأسوار البحرية. إذا استمر الوضع على هذا النحو، فإن جنـزير أمننا سيتحطم. لا تشكل سفنهم تهديداً إضافياً للأسوار لعدم وجود مدافع فيها. ولكن المرابض التي ينصبونها على طرف الخليج الآخر يمكن أن تدعمهم بقوة نارية في محاولة دكّ الأسوار المؤلفة من جدار واحد هناك. وبالإضافة إلى ذلك، إنّ أسطولنا محاصر من على طرفي الجنـزير. باعتقادي، لن يكون أيّ هجوم يُشن في النهار مجدياً. ولا أظن أننا سنتمكن من مباغتتهم هذه المرة. أعتقد أن عرض القبطان التربزونيدي جياكومو كوكو هو الأنسب، أي الهجوم ليلاً. فهناك خمسون قطعة بحرية تركية ترسو في المنطقة الضيقة من الخليج، وليس أمامها طريق للهرب. يقول القبطان كوكو إنه بتقوية سفينتين تجاريتين وتشكيل طوق أمان من سفننا الصغيرة يمكنه أن يشن الهجوم ويهزم الأسطول التركي. أنا أعرفه، وأثق به. ولهذا السبب أنا موافق على خطته، فما رأيكم؟".
سأل الجنرال جيوستنياني الذي يحترمه الجميع بمن فيهم الإمبراطور: "ما

التقوية التي يفكر فيها السيد القبطان يا ترى؟".
استلم جياكومو كوكو الحديث: "سألفّ بالات صوف وقطن ولباد على الهيكل الخارجي يا سيادة الجنرال. ليس السبب أنني أخشى من قذائف مدافع السفن العثمانية الخفيفة، بل لكي لا تتأذى السّفينتان بنيران المدفعية التي من المحتمل أن تطلق من البر. ستدعم سفن حربية مناسبة السفينتين الضخمتين بقوة نيرانها، فيما ستغوص السفينتان في قلب الأسطول، وتحوّلان الليل إلى جهنم بواسطة النار الرومية. إذ تقدم المياه الراكدة كما تعلمون وسطاً مناسباً للنار الرومية، ونحن سنستخدمها كثيراً في هذه الحال".
قال قائد الميناء ألوفيكس دييغو: "تبدو خطة القبطان مناسبة ومؤثرة يا جلالة الإمبراطور. ولكن، علينا أن نترك الجنـزير مفتوحاً في حال فشل الهجوم؛ لكي تكون لدينا فرصة للخروج بسرعة إلى البوسفور".
اعترض جيوستنياني قائلاً: "لا، هذا مستحيل. لا يمكن السماح بوجود نقطة ضعف في الدفاع في أثناء عملية كهذه. محمد ذكي جداً، ويستطيع توقع ما يمكن أن نفعله. ومن الممكن أن يحرك أسطوله من الجنوب أيضاً. وإذا فتح الجنـزير فسنقع عندها بين نارين".
قال ميغادوك لوكاس نوتاراس بصوت طافح بالثقة بالنفس وكأنه وجد ثغرة في ما قاله الجنرال: "برأيي، إن الجنرال يُعظّم من شأن عدوه كثيراً".
وضع الجنرال قناع برودة الأعصاب الذي يخفي غضبه خلفه، وسأل بهدوء: "أتقول إنني أعظّم عدوي!؟ إنه عظيم بنظري حسب قولك إذاً، أليس كذلك؟ سيد ميغادوك، هذا الشاب نقل أسطوله برًّا... نعم، هل تسمعون؟ الرجل شرّع سفنه واجتاز الهضبة، وأنزلها في أخطر موقع في دفاعاتنا. لو لم يكن قلقاً على الرغم من تفوقه التكتيكي هذا وشن هجوماً واسعاً، لكان من الممكن أن نفقد المدينة".
"إنه يخشى أسطولنا يا جنرال. وهذه الخشية تبعده عن النصر الذي يحلم به".
"هذا يعني أنك لا تدرك أبعاد مخططاته يا سيد نوتاراس. فهو سيضربنا في أول فرصة. لذا، يجب أن ننهي هذا الأمر في مياه الخليج المظلمة من دون فتح أي ثغرة في دفاعاتنا".
"يبدو أن هذا الصراع بندقي جنوي أيضاً".
قال جيوستنياني وجياكومو كوكو في اللحظة نفسها: "بكل الأحوال، يجب ألا يؤجَّل تنفيذ الخطة...".
قال الإمبراطور: "الجنويون أيضاً يريدون أن يشاركوا بهذه الخطة بشكلٍ

متساوٍ يا جنرال جيوستنياني. فإذا نجح الهجوم، يمكن أن نشهد احتكاكاً جنوبياً بندقياً قبل انتهاء الحصار. إذ تخوض هاتان الدولتان الإيطاليتان النخبويتان صراعاً دائماً على طرق التجارة كما تعلمون، ولهذا السبب أتحمل كل المخاطر، وأقول لننتظر عدة أيام أخرى".

تدخل نيكوديمو ماركونيتي قائلاً: "إذا كان الأمر هكذا يا صاحب الجلالة، فليقدم الجنويون نصف السفن التي ينبغي أن تشارك بالعملية".

وافق الإمبراطور قائلاً: "لا تقلق من هذه الناحية يا سيد ماركونيتي". وفي أثناء تنشقه رائحة الدخان والبارود، تابع قائلاً: "لا أحد يخشى من تفضيلي أحداً على أحد بعد هذه المعركة التي نخوضها لتحقيق النصر المؤكد. لقد قام إخوتنا البندقيون والجنويون بواجبهم وأكثر. ستستمر التجارة بين المقاطعات، وسيُمنح البندقيون حقاً مساوياً في المنطقة، وسأكون أنا شخصياً الحكم. أرجو أن يرتاح الجميع، فلا حاجة للقلق من هذا الموضوع.

IV

28 نيسان 1453

بعد أربعة أيام من اللقاءات المختلفة والجدالات التي لا تحصى، أبحر أسطول الهجوم إلى المياه المظلمة قبل الفجر بساعتين. بدأت المجاذيف تضرب مياه البحر الراكدة متقدمة بسرعة. كان المهاجمون يشعرون بالخوف؛ وهم محقون في ذلك بالتأكيد، فقد كان العثمانيون في حالة تيقظ نظراً لتوقعهم هجوماً كهذا، وكانت مرابض مدفعية الهاون المتمركزة خلف أسوار غلاطة تنتظر اقتراب سفن العدو لتباغتها. ولكن عدم الانتهاء من حسابات زاوية الإطلاق أخفض نسبة نجاحهم في تحقيق الهدف. ما زال المدفع في حالة التجربة على ضوء الحسابات الرياضية والهندسية.

شارك الجنرال جيوستنياني في عملية الهجوم، ووقف منتصب القامة كتمثال على سطح السفينة الجنوية العالي. كان يتأمل الخليج الراكدة مياهه كثيراً وهو لا يصدق ما تراه عيناه. تقدموا وسط البحر، فيما كانت رائحته تداعب قلوبهم، وهم يراقبون النجوم المتحركة ببطء فوق البحر. كانت شواطئ غلاطة ساكنة ومظلمة تماماً.

كان البرد المتسلل من بين جلد بطانة الدرع ولباس الجنرال الداخلي يجعل بشرته ترتعش. هل ربيع القسطنطينية البارد هو سبب الدوار الذي لا يطاق هذا؟ أم إنه القلق غير العادي من هذه الليلة؟ لم يكن يعلم. كان ثمة ثقل فوقه لم يشعر به منذ فترة طويلة. حلت عليه هذه الكآبة فور تجاوزه الجدران المتهالكة شمال الخليج. في الحقيقة، كان يعرف السبب جيداً. حاول أن يُغمض عينيه بقوة ليستفيد من ظلمة الليل المخملية، ولكن وجه جياكومو كوكو تجلى أمام عينيه. لم يعجبه هذا الرجل المندفع كثيراً، فهو يبعث الرهبة في النفوس بعينيه الزرقاوين الباردتين ومواقفه الوحشية. ثم إنه ليس من المقبول أن يكلف الإمبراطور رجلاً مثله بمهمة خطيرة وهو لا يعرفه أبداً.

تمتم صوت في داخله: "إلى أي مدى يعرفك الإمبراطور؟ لم يمض عليك هنا سوى ثلاثة أشهر وعدة أيام، وها قد بدأت تعتبر نفسك نائباً للإمبراطور". ابتسم. كان الصوت محقاً. تعتمد سياسة قسطنطين الآن على الثقة بالأجانب أكثر من نبلائه؛ إذ لم تبق مكانته كبيرة لدى شعبه بسبب قبوله بتوحيد الكنيستين؛ رغم أن ذلك ناجم عن يأسه؛ فقد كان مضطراً للتقرّب من الدول الإيطالية التي تبحث عن فرص جديدة في تجارة البحر المتوسط. نظر إلى سفينة كوكو التي تسير على بعد خمسين متراً منه وتنهد. لم يكن يُرى

في قمرة القيادة المظلمة، ولكن جيوستنياني يعرف أنه هناك. قال لنفسه: "يستطيع هذا الرجل أن يزعزع مكانتي كلها. لدي مشكلة أصلاً مع نوتاراس، وها قد ظهر لي هذا الرجل الآن".

كانت السفن تتقدم بهدوء في خطين. كان هذا الأسطول الشبح يتألف من سفينتي هجوم، وسفينتي دعم رئيستين يتواجد فيهما القائدان، بالإضافة إلى سفينة أخرى تحمل الجنود والعتاد. لم تشعر الدوريات العثمانية بهذه الحركة في وقتها؛ ففقدت وحدات الهاون عنصر المفاجأة.

في أثناء تحضير سفينتي الهجوم الخفيفتين بقيادة غبرئيل تريفيوسانو وزاكاريا غريوني للمعركة حدث أمر غير محسوب. فقد تجاهل جياكومو كوكو الخطة كلها، وأصدر لضاربي المجاذيف أمراً بزيادة السرعة، وسرّع سفينته الضخمة، وهاجم قلب الأسطول العثماني الذي كان يرسو في موقع الماء البارد منتظراً بهدوء.

أدرك الجنرال جيوستنياني في تلك اللحظة أن ما كان يخشى منه قد وقع. إذ لم يكن هذا الرجل يعرف كيفية التصرّف جيّداً، وكان يلاحق المكانة والشهرة فقط، وما هي إلا لحظات حتى يُفشل العملية التي تم التخطيط لها بدقة. وقبل مرور الكثير من الوقت على لحظات تخريب نظام التقدم، أطلق الأسطول العثماني إنذاراً، ونفض عنه تراب الموت. وسرعان ما بدأ الأتراك بإطلاق النار بطريقة مدهشة. ولكن الأسوأ بالنسبة للطليان كان اكتشافهم أن المدافع المنقولة عبر الجسر الواقع خلف السفن التركية مباشرة قد صُفت على طول الشاطئ. وقبل أن يغطي دخان البارود المنطقة تماماً، انفجرت السفينتان الإيطاليتان، وغرقتا بما فيهما من عتاد. وخلال ذلك الهرج والمرج أنارت السفن العثمانية كلها أضواءها، وانتقلت إلى وضعية القتال. قاد حمزة بيك الهجوم المعاكس الذي تحضّر له جيّداً باهتمام كبير، وبحزم ومهارة لكي لا يرتكب الخطأ الذي ارتكبه سلفه.

أدرك الأسطول الإيطالي أنه فقد عنصر المبادرة بالهجوم، وأنه ينبغي له الانسحاب إلى مسافة مناسبة في الخلف لاستجماع قوته مجدداً. ولكن السفن الحربية لم تحتمل النيران القوية، وبدأت تتشتت وتهرب بسرعة. غير أنه لا يمكن للسفن الثقيلة أن تلتف بسرعة كتلك الخفيفة؛ لذا حاولت الانسحاب بانضباط مع المحافظة على نظامها الناري. لم تكن رايات القيادة تُرى وسط الظلام ودخان البارود. ولم تكن أضواء المشاعل والفوانيس كافية. لهذا السبب، فقدت السفن التنسيق في ما بينها خلال فترة قصيرة. طوَّقت السفنُ التركية السفنَ الإيطالية التي ضعفت دفاعاتها، ولكن سفينة

جيوستنياني نجحت في خرق الحصار؛ رغم تعرّضها لإصابة كبيرة، ولكن سفينة كوكو لم تنجح بهذا، وقبل مرور وقت طويل غرقت بالماء مع بحارتها.
لم يترك حمزة بيك بقية السفن الهاربة من دون ملاحقة، وطاردها حتى الجنـزير؛ حيث حال سد النار الرومية دون تقدمه. أحدثت هذه الهزيمة غير المتوقعة أثراً معنويًّا لا يمكن تفاديه. فقد سيّر الأتراك أسطولهم في البر إلى أكثر المواقع أمناً بالنسبة إليهم، وأصبحوا أعداء من الصعب التغلب عليهم بسبب استعدادهم على أفضل وجه هذه المرة.

* * *

انتقل التفوق المعنوي إلى الجيش العثماني الذي بدأ بضرب الأسوار البرية من دون انقطاع. وألغى النصر الذي حققه العثمانيون في البحر صورة البحرية الإيطالية التي لا تهزم، وأدّى لانهيار معنويات أبناء المدينة المحاصرة التي بدأت تفقد مواردها. لقد تغاضت أوروبا عما يجري، وظهر أن تهديدات إمبراطور روما الجرماني وملك المجر فارغة. كما نجحت بعض السفن في خرق الحصار سراً، وذهبت إلى البحر المتوسط، وحين تمكنت اثنتان منها من العودة، أبلغتا أنه لا يبدو أن هناك أي مساعدة بحرية أو برية قادمة. أضف إلى ذلك أن الحرائق التي لا تنتهي، والتي تشب كل يوم لم يعد بالإمكان إطفاؤها كلها. وكان الناس في ذلك الوقت يعملون على ملء بطون عائلاتهم، وتأمين سلامتها. فضلاً عن أن الوحدة الصغيرة المشكلة من الرجال المخلصين للإمبراطور الوحيد الذي ما زال ينتظر بحسرة خبراً جيداً لم تظهر بعد. ستعود بالتأكيد ما لم تكن الدوريات العثمانية قد قبضت عليها، أو وقعت بيد القراصنة. كان قسطنطين واثقاً من ذلك تماماً.
رأى الجنرال جيوستنياني أن قسماً من الشعب القلق ترك مواقع الحراسة الليلية، وانتبه إلى أن العقوبات الشديدة التي فرضت على من يفعل ذلك لم تؤثر بالأمر. إثر هذا، لم يضَع أحداً من الأهالي في أي موقع مراقبة حساس. وصار المدنيون يريدون السلام لأن الجوع بدأ ينهش أجسادهم، والأمراض السارية بدأت تشيع، والأهم من هذا أن لكل منهم عائلة يريد أن يفكر فيها. ومع ارتفاع درجة حرارة الجو، انتشرت الأمراض أكثر، وسيطرت السوق السوداء، وباستثناء طبقة النخبة صارت الرعية بالحضيض تقريباً. أصبح همّ شعب القسطنطينية البقاء على قيد الحياة، وإبقاء الأولاد على قيد الحياة، ولا يمكن اعتبار من يفكّر بهذه الطريقة مذنباً.
كان القبطان دولفين دولفين الذي أُعلن قائداً للبحرية البيزنطية الجديدة

-وهو إيطالي أيضاً- يخشى من تعرض الأسطول المحشور بين ديبلوكيونيون (العمود المزدوج) والماء البارد لهجوم مفاجئ. وكان الإمبراطور قد عيّنه على عجل بعد موت قائد الميناء ألوفيكس دييغو وغابرييل تريفيسان وبقية القادة المهمين. ولأن همّه الوحيد الآن تأمين الأسطول، صف السفن الصغيرة على شكل خط أمام السفن الكبيرة. كان القبطان دولفين متشككاً جدًّا؛ حتى إنه كان يشك بالمقربين منه، ونتيجة لذلك، شعر رجاله بالسأم من مراقبتهم بحرص خوفاً من أن يكونوا جواسيس.

* * *

استعمل السلطان محمد خان أبراج الحصار في الحرب أيضاً. ولكن، عندما فشل بعضها بعبور الخندق، وأحرقت بالنار الرومية أجّل هذه الفكرة قليلاً. وهكذا، تم البدء بإنشاء أبراج أعلى وأقوى.

كان محمد خان يُقيّم الأخبار التي ترده من المدينة مع قادته، ويناقشها معهم بإسهاب. عرف أن الإمبراطور منع التجارة في السوق السوداء، وأصدر قراراً بأن الذين يُقبض عليهم وهم يتاجرون فيها يعاقبون بقسوة، كما علم أن الإمبراطور يعقد اجتماعات متتالية مع وزرائه. وسمع أيضاً أن الشمعدانات الذهبية والفضية في الكنائس والأديرة وإطارات الأيقونات القيمة تُصهر، وتصكّ من أجل دفع أجور المرتزقة. وتلقى خبراً أيضاً بأن الإمبراطور لم يستطع السيطرة على نفسه في أثناء خطابه في مجلس الشيوخ بتاريخ 3 أيار، وسالت دموعه. كان محمد يحزن فعلاً على هذا الرجل الكريم الذي يكنّ له احتراماً شخصياً. ففي النهاية، كان وضعه صعباً لأنه اضطر لأخذ المعادن الثمينة من الكنائس.

ولكن خوض الحرب كان خيار قسطنطين الحادي عشر، وليس من حقه أن يشتكي من حاله هذه. ما زالت لديه فرصة للتراجع. يمكنه على الأقل البدء بمناقشة شروط تسليم المدينة مقابل المحافظة على نسجيها العمراني، وهكذا سيحمي درة مدن العالم من نهب الجنود لها؛ لأن محمداً مضطر للسماح لجنوده بنهب المدينة على مدى ثلاثة أيام لو فتحت بحد السيف، وهذا لا يعجبه نهائياً. وقد توضح أن المدينة لن تقاوم كثيراً إذا لم تحدث أعجوبة. كان من الممكن أن ينتهي هذا الأمر خلال بضعة أيام... كان من الممكن أن ينتهي... ولكنه لم ينته... إذ لم تكسر عزيمة الإمبراطور والجنرال جيوستنياني، والمدينة مستمرة بالمقاومة على الرغم من ضعف إمكاناتها الشديد.

هوجمت المدينة بنيران المدفعية بين الأول والخامس من أيار من دون

انقطاع. كان ثمة موقعان مهمّان يتركز عليهما القصف كما يحدث دائماً. الموقع الأوّل هو الأسوار المؤلفة من جدار واحد مقابل قصر بلاخرنائي. والثاني هو المنطقة الضعيفة بين بابي هاغيوس رومانوس وخاريسيوس.
أما مدافع الهاون التي وضعت بتصرّف صاروجة باشا فقد كانت تضرب داخل الخليج، وتتسبّب بكوابيس للقبطان دولفين الذي كان يحاول قدر الإمكان الإبقاء على الأسطول قريباً من أسوار غلاطة. كانت معظم عمليات القصف لا تحقق أهدافها، ولكن الطليان تسمّروا في أماكنهم بكل ما تعنيه الكلمة.
كان قسم من قذائف الهاون يسقط داخل غلاطة، ولم يتوقف إطلاق القذائف على الرغم من الشكاوى التي تقدّم بها أهالي المدينة، وكان تجاهل تلك الشكاوى بمثابة تحذير لمقاطعة جنوى التي استمرت في تقديم الدعم للبيزنطيين سراً. أُغرق الكثير من السفن الحربية والتجارية، وتأذى الأسطول البيزنطي والطليان كثيراً من هذه التقنية الجديدة. ووصل إلى مسامعهم أن السلطان الشاب ما زال يعمل على صنع أسلحة جديدة، وتنامى الخوف والغضب والإعجاب واليأس في نفوسهم؛ فقد كانوا يواجهون الدهاء العسكري الأكبر في ذلك العصر، ومن الواضح أنهم يتقدمون خطوة تلو الأخرى نحو الهزيمة التي لا مفر منها على الرغم من موهبة جيوستنياني الفائقة، وحزم الإمبراطور، وتضحيات الناس الوطنيين بأرواحهم.
عُقد اتفاق لوقف نيران المدفعية والمنجنيقات من أجل إخلاء الجثث من ساحة الحرب. وفي أحد تلك الأيام، استطاع الريّس مصطفى أن يحصل على إذن خاص لإخراج رجاله إلى ضوء الشمس على الرغم من استمرار عمليات الحفر تحت المدينة. فهم أيضاً سيشاركون بجمع الجثث.
لا يمكن القول إن التجول بين جثث الموتى كثيرة العدد أسوأ من التقدم في تلك الدهاليز المظلمة. فعندما يسأم الإنسان هنا من رؤية الموتى والدم، يمكنه أن يرفع رأسه وينظر إلى السماء البراقة. كما يمكنه أن يتعلق بالغيوم والرياح المحمّلة برائحة الغبار والطحالب، وأن يهرب إلى الجبال وأعماق البحر والبوسفور. يمكنه أن يتخيل ما يشاء، ويقنع نفسه بأن ذلك حقيقي.
في ذلك اليوم، تجوّل علي حيدر مع صديقه القديم لأول مرة تحت أشعة الشمس الدافئة بين مئات الجثث التي حملاها ووضعاها على عربات تجرها بغال ليتم دفنها في ما بعد. وحين رأى علي ذلك الراهب العجوز، كان قد ابتعد بضع مئات من الأمتار. فقد سمع فجأة صوت عجوز يقول:

"كاليميرا". وعندما التفت، ونظر إلى مصدر الصوت وجد شيخاً ذا لحية طويلة بيضاء ويرتدي جبة سوداء يقف بعيداً ويناديه: "تعال أيها الشاب، تعال. أنا أعرف لغتكم، تعال، اقترب قليلاً...".
توقف علي متردداً، وحذراً من الاقتراب من الجنود الطليان والبيزنطيين القريبين منه، ولكنه اقترب ببطء حين تذكر أنهم غير مسلحين؛ مثلهم تماماً. كان الرجل لا يزال يردد: "تعال، هيا اقترب". وعندما صار قربه قال: "انظر أيها الشاب، أولئك الكاثوليك وجدوا بيد أحد جنودكم هذه القلادة". وحين فتح يده انزلقت من بين أصابعه الدامية سلسلة يتدلى منها هلال.
التقط علي حيدر القلادة، وسأله: "هل تعطيني إيّاها يا ذا اللحية البيضاء؟".
قال الراهب الشيخ وفي عينيه الزرقاوين بريق إنساني: "هذه القلادة تعود للمحمديين، وليس من الصواب أن تكون بيد مسيحي".
"ولكن، ليس لدي ما يمكنني أن أعطيك إياه".
لوّح الرجل بيديه قائلاً: "هل طلب منك أحد شيئاً أيها الشاب؟ يبدو عليك أنك محارب قوي. ضعها حول رقبتك لتجلب لك الحظ. يقال إن المحارب عندما يشعر أنه يوشك على الموت ينسى سبب خوضه الحرب؛ إذ يُمحى من عقله كل شيء، ولا ترى عيناه سوى الدم، ويشعر بالخوف. في مثل تلك اللحظات تكمن أهمية هذه الرموز أيها الشاب، فهي تذكرك بسبب خوضك الحرب. اعتبرها كراية الجيش. هيا، أستودعك السلامة".
شكره علي، وعندما هم بالمغادرة التفت وكأنه تذكر فجأة شيئاً ما: "يا ذا اللحية البيضاء، يا ذا اللحية البيضاء".
التفت الرّجل نحوه سائلاً: "ماذا هنالك يا بني؟".
صمت علي للحظة، ثم سأله: "إلى أي مدى يمكنكم أن تقاوموا؟".
ضحك العجوز: "حتى ندفنكم جميعاً بأيدينا الرحيمة يا هذا. أنت، ورفاقك، وملككم الشاب ذاك ستفنون أمام أبواب هذه المدينة المحصنة أفضل تحصين في العالم".
"كنت أعتقد أن وضعكم سيئ".
ضحك العجوز وقال: "ليس سيئاً جدًّا. إن لدينا مثلاً يقول: القدر يشير دائماً نحو الطريق الصواب لمن يطأطئ له. ونحن أناس مؤمنون. ربنا وقديسونا رسموا لنا طريقنا منذ زمن، ولم يبق لنا سوى السير في هذا الطريق".
هز علي حيدر رأسه إلى الجانبين وقال: "لا أريد أن أتهم واحداً مثلك

بالكذب يا ذا اللحية البيضاء، ولكنني أعرف أن وضعكم سيئ".
"إذا كنت تعرف فلماذا تسأل أيها الشاب؟".
"أردت أن أسمع الحقيقة منك أيضاً. لم تكن نيتي الاستهانة بك، وجرح كرامتك. بل على العكس تماماً، فأنتم يجب أن تعتزوا بأنفسكم لأنكم ترفضون الاستسلام، وتقاتلون ببطولة. ولكنني لو كنت مكانكم لتراجعت. فلا أحد يريد أن تُنهب هذه المدينة الجميلة".
ظهر على وجه العجوز تعبير ساخر ومصطنع: "لن ينهب أحد هذه المدينة يا هذا. نحن من نسل الإسبارطيين القدامى. لذا، نحن لا ننسحب، ولا نستسلم. كن مرتاحاً ولا تقلق على مدينتنا".
في هذه الأثناء، حطّ غراب فاحم ضخم ولامعُ الريش على إحدى الجثث المجاورة للعجوز. كان يحمل خاتماً بمنقاره الضخم. هل هذا خاتم حقًّا!؟
صلّب الراهب وقال: "يا أبانا العظيم الذي في السماء". وتراجع عدة خطوات، وتسمّر في مكانه. لم يستطع أن يسيطر على نفسه، وبدأ يبكي بهدوء، ثم تحوّل بكاؤه إلى نشيج.
اقترب علي من الرجل وسأله: "هل أنت بخير يا ذا اللحية البيضاء؟".
لم يجب الرجل لفترة، وفي ما بعد قال بصوت مرتجف: "الغراب موت بالنسبة للأحياء، وحياة بالنسبة للأرواح التي تتعذب ولا تريد أن تنتزع من الحياة". أخذ العجوز نفساً عميقاً وقد تبلل خداه المتهدلان بدموعه نتيجة اليأس الذي يشعر به.
قال علي: "هذه خرافات يا ذا اللحية البيضاء. هذا مجرد طائر جثث".
قال العجوز مؤمناً وواثقاً ممّا يقوله: "لا. لا، ليس مجرد طائر جثث. إنه إحدى الأرواح الغاضبة منا، والتي تريد إنهاء الحرب التي لا معنى لها. انظر إلى هذا... انظر إلى هذا...". تابع وهو يشير بإصبعه المرتعشة الجافة كغصن شجرة: "إنه ينظر إليَّ من دون أن يرف بعينيه الفاحمتين. انظر إلى هذا... إنه يحاسبني على كذبي، ويحاكمني، ويحكم عليّ. أما الحلقة التي في فمه؛ القسطنطينية...". ثم التفت مجدداً نحو علي وصرخ: "كذبت قبل قليل. لقد كذبت عليك أيها الشاب. ستسقط المدينة خلال فترة قصيرة. ستسقط إذا لم تنـزل الأم مريم لحمايتنا كما نؤمن. فقد كُسِرت سيوفنا، ونفد بارود مدافعنا وبنادقنا، وصارت معنوياتنا في الحضيض، ولم يبق لدينا أي دواء، ولم نعد نستلم إمدادات غذائية لأن ارتباطنا مع غلاطة انقطع. هل تعتقد أن الإشارات عبارة عن هذا الغراب الأسود فقط؟ لا، ليست كذلك بالتأكيد... إذ لم يستطع الجنود إبعاد البومة التي تنعق منذ ثلاث ليالٍ

على قمة قبة أياصوفيا على الرغم من السهام الكثيرة التي أطلقوها عليها، فقد كانت تعود في كل مرة. كما وُجدت سمكة عملاقة ميتة على شاطئ الباب الذهبي. أقسم الصيادون أنهم لم يروا في حياتهم مثلها؛ فقد كان لديها وجه أبيض يشبه وجه الإنسان، وجسم ضخم يشبه جسم السمكة، وزعنفتا ذيل تشبهان رجلين عملاقتين. ولفت انتباهنا عدم وجود أي طائر بحري قربها. لم نستطع أكلها على الرغم من حاجتنا إليها، ودفناها في فسحة خلف دير ستوديوس. وماذا نقول عن الفطور السامة التي بدأت تنبت في الحدائق؟ تلك الفطور التي يأكلها اليائسون فيجنون؟ حلَّت اللعنة على هذه المدينة أيها الشاب، حلَّت اللعنة على هذه المدينة...".

قال علي: "ما أغربكم!". ونظر لفترة إلى الرجل الذي ابتعد وهو يبكي.

V

6 أيار 1453

عيناك المتعبتان تمشطان الأفق أيضاً كالبيزنطيين. فهم يحصون الأيام التي لا تنتهي في أثناء انتظارهم المساعدات، أما أنت فتنظر بعيداً خائفاً من إمكان تنفيذ التهديد بإرسال جيش أوروبي كبير قبل انتهاء الحصار. فالمساعدة إن تلقّوها في زمن كهذا يمكن أن تنهي الانقسام بينهم؛ مهما كانت صغيرة، وستبعدك عن تحقيق النصر الذي اقتربت منه كثيراً. لهذا السبب، قررت اليوم أن تشنّ هجوماً شاملاً على الأسوار البرية.

ولهذا السبب، أرسلت مراسلاً إلى أستاذك آق شمس الدين مرات عديدة، ولكنه لم يُجبك بعد. متى سيتحقق هذا الفتح؟ تريد أن تعرف، وتنتظر إشارة من أستاذيك يطالبانك بأن تكون صبوراً، وتغضب كثيراً لأنهما يظنّان أن هذا سهل. ما الذي يجعلك متشوّقاً جدًّا لهذا الفتح وغير قادر على الصبر؟ هل شبابك هو السبب؟ هذا ممكن... تفكر في أن تتنكر وتنـزل إلى المدينة مع اثنين من رجالك. ولكن ليس بزي شاعر جنوي بالتأكيد... وإنّما بهيئة خوري مثلاً... فأنت تريد رؤية وضع الشعب والمدينة، ومعرفة ما يشعر به المحاربون. أنت محق في هذا. ولكن، هل يستحق هذا الأمر تصرّفاً جنونياً كهذا؟ هل تستطيع نفسيتك وجسمك أن يتحمّلا تصرّفاً جنونيًّا جديداً بعد أن تعبت، ووصلت إلى النهاية؟ ثم إنك تدرك بالتأكيد حقيقة أنك تخوض هذه الحملة في سبيل وجودك. نار التمرد المشتعلة بسرعة في داخلك تطفئ الانفعال الديني الذي كان حافزك في بداية الحصار. لهذا السبب، يجب أن تكون لديك المبادرة...

اختلطت أولى قذائف المدفعية مع ألوان الصباح الذهبية. فجأة مرّ السلطان أمام جنوده المستعدين الذين يقفون قرب خيمته، وامتطى حصانه وهو يتمتم لنفسه: "النصر، أمامي طريق واحد يا الله، وهو النصر...".

* * *

عزفت فرقة المهتران الأناشيد فيما كانت المدفعية تقصف الأسوار من دون انقطاع. انهار الجدار الأول من السور عند هاغيوس رومانوس منذ زمن، وبدأ الجدار الثاني بالانهيار بسرعة تحت القصف الجهنمي. وكانت صيانة الأسوار تتمّ ليلاً، وإثر انتهاء الهجمات بعد غروب الشمس. هذا ما كان يحدث حتى اليوم.

نجح الجنود العثمانيون الذين رموا بأنفسهم على الجدران كقطع الصخر هذه المرّة بالصعود إلى أسوار هاغيوس رومانوس من موقعين. وقد شارك

الإمبراطور شخصياً بالقتال على الرغم من وجود جيوستنياني بجانبه. إذ حارب بقوة تحت نظرات جنوده المفعمة بالتقدير؛ ممّا زاد من احترامهم له.

أدركت الوحدات التركية المهاجمة أنها لن تستطيع الدفاع عن نفسها أكثر. إذ إن الجنود القادمين من الخلف كانوا يمطرونها بالسهام، والكرات الحديدية، والزّيت المغلي. وبعد مرور زمن قصير، حاولوا الانسحاب إلى مركز التجمع في الخلف. فقدَ الجنرال جيوستنياني حسن تدبيره المعتاد، وانجرف بتأثير انفعاله، فوجد نفسه مع رجاله خارج الأسوار. وحين أدركت الوحدات التركية أنها لن تتمكن من الوصول إلى مركز التجمع نتيجة ملاحقتها، بادر السيد عمر - أحد رجال قائد جيش روملي الخال السيد قرجا - بإصدار أمر لرماته الذين كانوا في الخلف بإطلاق سهامهم متحملاً المسؤولية.

لم يكن باستطاعة الجنرال جيوستنياني ورجاله متابعة التقدم في ظل السهام التي غطّت صفحة السماء. لذا، بدأ يتراجع حاملاً درعه التي غدت ثقيلة جداً بفعل السهام ذات الرؤوس الحديدة التي غُرست في سطحها الخارجي، وغضب بشدة لأن ذراعه لم تعد قادرة على حمل الدرع نتيجة شعوره بالألم. وصار هدفه العودة إلى خلف الأسوار مجدداً والتمترس هناك. لم يفهم كيف ولماذا سيطر عليه انفعال كهذا، ولكنه أدرك فوراً أنه يخوض هذا الصراع بعزم الروح. فقد شنّ الأتراك حملة كبيرة كادت تكسبهم الحرب. إذا فقدوا هذه المنطقة من الأسوار، فسيفقدون باب المدينة الرئيس أيضاً. ما يجب أن يحصل الآن هو انتظار هبوط الليل، والعمل على رفع السور من جديد في هذا المكان.

عندما عاد جيوستنياني إلى مكانه خلف الأسوار مجدداً، وجد باستغراب أن النبلاء البيزنطيين - باستثناء الإمبراطور ومرافقيه - قد بدأوا ينسحبون من الحرب. يمكن أن يفهم سبب انسحاب الشعب الذي يخوض صراع البقاء على قيد الحياة. ولكن، ماذا يقال عن هؤلاء؟ فها هي الحرب تتحول مع مرور الوقت إلى حرب بين الطليان والأتراك، وليس بين البيزنطيين والأتراك.

أرسل درعه إلى الحداد ليطرقها ويصلحها، ولبس درعه الشبكية الفخمة. فكّر بالمعركة التي خاضها مع الإخوة الجنويين أنطونيو وباولو وترولیو بوتشياردو أمام أسوار قصر بلاخرنائي مع مئة من رجاله الأبطال. كان يثق بأولئك الشباب كثيراً، لذا لم يرسل وحدة لدعمهم. وعندما كانوا يجتمعون في بعض الأمسيات لم يكن الإخوة يتذمّرون من وضعهم نهائياً. حتى إنهم كانوا يضحكون ويلهون تحت تأثير الشراب، ويتحدثون عن بطولاتهم التي نفذوها

في النهار.
وعرف الجنرال أنه عندما طلب من قوات البيزنطيين الذهاب لتفقد أحوال الإخوة مرات عديدة لم يذهبوا، لأن نوتاراس كان ينتصب أمامهم في كل مرّة مثل جدار صخري. كان ذلك الرجل يحوم حول رأسه مثل البومة؛ منتظراً تعثّره في أي لحظة.

"إذا ضحكت تضحك الدنيا، ويحل الصيف؛ وإذا بكيت تغدو الحياة جبلاً مغطى بالثلج، وحتى السم بيد الصديق يغدو عسلاً، أنا فداء عسلك وسمِّك...".
سأله الريّس مصطفى: "ألا تعرف أغنية أخرى يا هذا؟".
نخر علي حيدر وكأنه لم يسمع السؤال وقال: "لن أمسك مستقبلاً الفأس والمجرفة طيلة حياتي يا ريّس".
عندما ينـزل علي تحت الأرض ينسى حالته الجريئة المقدامة المعهودة، ويتحول إلى ولد صغير مدلل. أصبح أفضل حالاً بكثير مما كان عليه في الماضي. فعلى الأقل، لم يعد الهلع يسيطر عليه. ولكن، لا يمكن القول إنه وصل إلى درجة النضج التام.
"عندما أتقاعد في المستقبل، وأنسحب تماماً من العمل العسكري لن أعود إلى العمل بالأرض أيضاً. وبما أنه لا يسمح للإنكشاريين بالعمل في حرف حرّة سأعمل بالتجارة مع القوافل بعد أن أتقاعد".
مسح الريّس مصطفى قطرات العرق المتصببة على جبهته، ثم نظر إلى وجوه الآخرين الباسمة وقال: "برأيي، ستكون عامل منجم جيداً بعد الآن".
ضحك كل الذين سمعوا هذا الكلام.
"ريس، ألم تكن الثرثرة ممنوعة في أثناء الحفر؟ أنت أول من يخرق القاعدة". كان المتحدث هو إسماعيل الكردي الذي يهوي بفأسه التي تغدو كما لو أنها عصا رفيعة بين أصابعه الغليظة بقوة. نزع إسماعيل قبعته المصنوعة من اللباد، ورفع من تحتها المنديل الذي لم يعد لونه معروفاً، وعصره ثم تابع الحفر.
قال الريّس ضاحكاً: "كما ترى يا أخ إسماعيل، نحن مضطرون لتحمّل العذاب الناجم عن تعاملنا مع أولئك الأغرار أيضاً".
قال خيري البيلجكي: "لا يمكن القول إن الأخ علي غير محق يا ريّس".
كان جسمه من الخصر إلى الأعلى يبدو قوياً جداً ومخيفاً بعضلاته الواضحة كثيراً. ولكن ابتسامته الساخرة المحببة والمعهودة ظلّت مرتسمة على وجهه: "ألا يوجد في صفوف ذاك الجيش الضخم من يتولى مسؤولية هذا الحفر لنتمكن من المشاركة في القتال؟".
"لا تتذمّر كثيراً. فنحن نتبع هذه المرة طريقاً جديداً. وإذا ظهر أن حساباتنا صحيحة فسنخرج وسط المدينة. خبئوا اندفاعكم للحرب إلى ذلك الوقت".

"كم مرة وُعِدْنا بهذا يا ريّس؟". وضع علي حيدر فأسه جانباً، وشرب القليل من الماء ثم قال: "لو افترضنا أن هذا قد حصل، هل سنملك حينها قوّة كافية للقتال بعد أن أجهدنا أكتافنا وأذرعنا بالحفر؟ ثم إنهم يحددون مكاننا في كل مرة. برأيي، يصعب فتح هذه المدينة إذا لم يمت جيوستنياني".

توقف الريّس مصطفى عن العمل، وأخذ نفساً عميقاً: "سلطاننا وجيوستنياني رجلان حازمان جداً. وصراع رجلين حازمين مثلهما لا بدّ أن يكون حازماً. نحن نشهد حدثاً تاريخيًّا يا أخي، فما يحصل الآن لا بدّ أن يُتحدَّث عنه على مرّ الزمن، وتُكتب عنه الملاحم".

بعد لحظة، ضحك الجميع.

في تلك الأثناء حدثت هزة غير عادية بالقرب منهم. اعتقدوا أنه زلزال، وأرادوا الهرب، ولكن الطريق خلفهم صار بعيداً جداً. كانوا قد استخدموا دعامات خشبية قوية كفاية؛ محتاطين لحصول أمر كهذا. وعلى الرغم من ذلك، رأوا في ضوء القناديل الموجودة حولهم أن التراب قد انهال بشكل خفيف، وأن الدعامات الخشبية ما زالت منتصبة مكانها بقوة وثبات. شعروا بالغبار والدخان، كما شعروا بوجود تيّار هوائي خفيف.

همس الريّس مصطفى: "إنهم قادمون. لا بدّ أنهم وجدوا النفق الذي عملنا بجهد لحفره. هذا ما يحدث إذا لهونا وضحكنا كثيراً".

قال خيري: "لا. لا يا ريّس، بدأ تيار الهواء هذا بعد الهزة التي حدثت قبل قليل. ثم إن هناك قصفاً شديداً يجعل من الصعب جداً اكتشاف موقع النفق".

رفع الريّس مصطفى يده مشيراً إليهم بالتزام الصمت. فيما مد أحدهم يده ورفع أحد القناديل، فرأوا أن اللهب والدخان يتجهان نحو المكان الذي حفروا انطلاقاً منه".

قال البيلجكي: "أرأيت؟ كانت تلك قذيفة مدفع يا ريّس. انظر إلى الحظ، لقد تجاوزت الأسوار وسقطت في مكان قريب منا، وفتحت لنا الطريق. هذا يعني أننا سنخرج بعد عدة ضربات فأس".

قال الريّس مصطفى بهدوء: "علي، تحرك يا سبعي، أوصل هذا الخبر إلى الرجال في الخلف، سندخل المدينة هذه الليلة".

حاول علي الاعتراض، ولكن قرار الريّس كان حازماً، وحين نبهه بنبرة حازمة أنه لن يُكرّر الأمر للمرة الثانية، اضطر الشاب للعودة.

* * *

قال قسطنطين الحادي عشر وهو ينظر من حيث يجلس فوق صهوة حصانه بعينين قلقتين باتجاه باب هاغيوس رومانوس: "إنهم لا يتوقفون... الأسوار تنهار بسرعة. مستقبل هذه المدينة بين يديك الماهرتين أمطر يا صديقي العزيز". والتفت نحو الجنرال جيوستنياني القريب منه الذي أمطر رجاله المتراكضين يميناً ويساراً بالأوامر، وأضاف: "قطعت الأمل من شعبي ونبلائي. كل منهم راح في جهة، وسيطرت عليه هموم أسرته. من المؤكد أن الرجل لا يُدان لدى تفكيره بعائلته، ولكن هذه المدينة كانت أمّنا على مدى عصور، لذا من واجبنا أن ندافع عنها بجرأة أكبر. وسأتحمل هذه المسؤولية حتى لو بقيت الشخص الوحيد الذي يقاتل".

انفجرت عدة قذائف مدفعية على الأسوار في الوقت نفسه؛ فاهتزّت الأماكن كلها وكأن زلزالاً قد حدث فجأة. شاهد الرجلان انهيار الأبراج وتفتتها كالجبن، وتأمّلا القلاع المصطفة بشكل غير منتظم.

قال جيوستنياني: "أنت من أجرأ الرجال الذين رأيتهم يا صاحب الجلالة. زاد محمد هذه المرة من شدة الهجوم. ويبدو أنه سيستمر بالقصف ليلاً لكي يعيق عمليات الترميم؛ ممّا يعني أنه سيهاجمنا في ساعات الصباح الأولى".

"هل لدينا أيّ فرصة؟".

"طالما أننا نتنفس فلدينا فرصة يا جلالة الإمبراطور. يعرف الأتراك جيّداً أننا نرمّم هذه الثغرات مغامرين بأرواحنا، ويخشون من أن يُحاصروا بين الجدران حتى لو صارت ركاماً. حالياً، سأنقل طابورين إلى هذه المنطقة. ولكن، أرجو ألاّ يتدخل نائبكم لوكاس نوتاراس بأوامري، وألا يقدم على أعمال مهمة من دون علمي. وأرجوكم أن تهتموا بهذا الأمر بشكل خاص".

حرّك الإمبراطور رأسه وقال: "سأهتم بهذا الأمر يا جنرال".

"عليَّ أن أقول بأسف إنه ليس هناك أي جانب أصالة بإظهاره الانزعاج من وجودي أنا ورجالي هنا. ولكن، يجب ألا تكون هناك أي مشكلة بين رفاق السلاح الذين يقاتلون في سبيل تحقيق هدف معين. على الأقل يمكنهم تأجيل خلافاتهم إلى وقت لاحق".

قال صوت صادر من خلفهما مباشرة: "يجب أن تؤجل الخلافات أليس كذلك؟".

وعندما التفتا، وجدا لوكاس نوتاراس يقف خلفهما. كان قد اقترب منهما سيراً على الأقدام، وخلفه وحدة بيزنطية مؤلفة من مئتي جندي.

"ولكن، إذا أردت رأيي، يجب أن لا تؤجل. ما رأيك يا جنرال إذا عرضت عليك أن نحل هذه القضية كرجلين حرَّين بسيفينا؟".

مد جيوستنياني يده إلى سيفه قائلاً: "ها هو كل شيء يجري أمامكم يا صاحب الجلالة. انظروا إلى وقاحته؛ بدلاً من أن يشكرني ويشكر رجالي".
قال الإمبراطور بنبرة حادة: "ابقيا ساكنين رجاء. حالياً أنا بحاجة إليكما معاً. وإذا بقيتما حيين بعد المعركة، فبإمكانكما حلّ هذه القضية بطريقة ما. ولكنكما الآن ستبقيان هادئين، ولن تسببا أي مشكلة؛ هل هذا واضح؟".

الفصل السابع
الأفكار المظلمة والنسيان

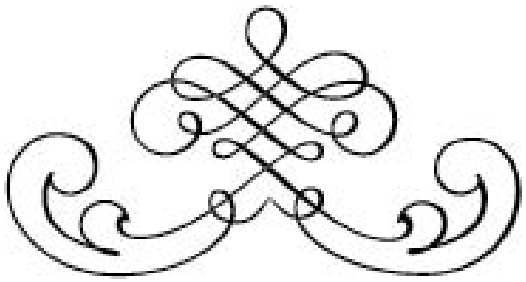

I

"ليس ثمة شيء من الحقيقة في زمانك نهائياً".

توماس مان (الجبل الساحر)

7 أيار 1453

كانت شمس الصباح الدافئة تتلألأ فوق مياه النبع الصغير المتدفقة كما لو أنها أحجارٌ كريستالية تلمع على بعد عدة أمتار. وكان البخار المتصاعد من الأرض الرطبة والمحمل بالرّوائح يغطي الوادي كما لو أنه شال حريري، ويمحو خط الأفق. وكان أزيز الحشرات وصوت خفقان أجنحة الطيور القلقة هما الصوتين الوحيدين المسموعين بعد أن صمتت الطيور الصباحية وتوقفت عن التغريد.

صرخ زاغانوس باشا بموقف مفعم بالكبرياء: "انظر يا خليل باشا الكبير، انظر إلى أسودي هؤلاء كيف يضغطون على التصدعات؟ برأيي، إن هذه التقنية التي استخدمناها أنهت عصر حرب القلاع. ولم يعد هناك ملكٌ آمن خلف الجدران السميكة". ثم استند إلى إحدى الأشجار خلفه وتابع: "الأنفار العثمانيون مقدامون، ولا يمكنك أن تحبسهم في مكان ما لفترة طويلة. فهم يريدون حملات وغنائم، وإلا فسيشعرون بالملل...".

قال خليل الكبير: "نعم". وكان قد شبك ذراعيه أمام صدره غير مبالٍ لكلام زاغانوس باشا المفعم بالكبرياء وهو يشاهد ما يحصل أمام باب هايغوس رومانوس.

"... ولن يجلسوا هادئين في ثكناتهم، وستتولّد المشاكل فيما بينهم، ومع الناس وسيتحوّلون إلى مصائب تنصبّ على رأس هذا وذاك، متناسين سبب وجودهم... ينسحب هذا الوضع على جيوش العالم كلها يا باشا. إذا لم تجعل العسكري يقاتل أو يعمل فسيغلي دمه. وإذا فكرنا بمنع هؤلاء من الزواج وتأسيس عائلات، فمن الطبيعي ألا ترتاح قلوبهم إلا في الحملات".

"لا تضرب أمثلة من جيوش العالم الأخرى يا زاغانوس. فنحن مضطرون لأن يكون كل شيء لدينا مختلفاً. إذا كنت تسعى لتأسيس الجيش الأقوى، يجب أن يكون جيشك في الوقت نفسه الأكثر انضباطاً. ليس لهذا طريق آخر، ولا يمكن أن يكون. الزمن يتغير، والمكان يتغير، والظروف تتغير، ولكن يجب ألا تتغير حالة الجندي وموقفه".

خيّم على المكان صمت قصير مشبع بالقلق. كان قتال حاد جداً يدور بين الوحدات البيزنطية التي تحاول الوصول إلى خارج الأسوار المتهالكة تماماً، والأتراك الذين يحاولون دفعها إلى الوراء.

قال زاغانوس باشا: "يخرج الطليان للدفاع في الميدان الضيق مجدداً. فالدفاع في مثل هذا النوع من المعارك أسهل دائماً. برأيك، هل سينجح أبطالنا هذه المرة يا خليل الكبير؟".
قال خليل باشا: "هذا مرتبط بعدد الجنود الذين بقوا مع الجنرال جيوستنياني". وقطب حاجبيه في وجه الريح الدافئة التي داعبت لحيته، وأضاف: "على الرغم من أن الأسوار تقصف ليلاً ونهاراً على مدى يومين، وصارت تشبه أي شيء باستثناء الأسوار، إلاّ أنّ النتيجة غير معروفة. الجنرال رجل ذكي وقوي، وليس ثمة من لا يشيد بمهارته الحربية، ولا يعرفها، ولا يقدّرها. هل ترى راياته؟ القوات الإيطالية تدافع بكل قوتها تحت تأثير الرابط الدموي الذي يجمعها معاً، فيما يبقى البيزنطيون في الخلف، ولا يستطيعون القيام بما هو أكثر من دور الظهير للقوات الإيطالية".
تحرك زاغانوس باشا مبدياً شعوره بالضيق. واستشعر خليل الكبير أنه يريد أن يقول شيئاً ما ولكنه متردد، لذلك قال له وقد رسم على شفتيه ابتسامة خفيفة: "إذا أردت أن تسأل عن شيء ما يا زاغانوس فلتفعل".
كان من الواضح أن زاغانوس باشا يرى في هذا اللقاء فرصة لإزالة البرودة السائدة بينهما. ولكن، يبدو أن هذا الوضع يزعج خليل الكبير؛ فبالنسبة إليه، ليس الوقت ولا الزمن مناسبين لتقارب كهذا. سيكون من الأفضل تأجيل الحساب بينهما إلى ما بعد الحرب، ولكنه لا يريد أن يأخذ هذا التوتر المستمر بينهما منذ فترة طويلة شكلاً أوضح.
أحنى زاغانوس باشا رأسه، فبدت قبعته الطويلة الملفوفة بلفة شديدة البياض مصنوعة من قطن هندي تحت أضواء الشمس المبهرة واضحة، وقال: "رابطة الدم هذه مهمة جداً بالنسبة إليك يا باشا. أليس رابط المبادئ والدين أهم بكثير من رابط الدم؟".
دفع خليل الكبير قبعته إلى الخلف قليلاً وأجاب: "أعرف أنني جرحتك في ذلك اليوم يا زاغانوس، وأعتذر منك مجدداً".
"حاشاك يا باشا".
عقد خليل الكبير ذراعيه فوق قفطانه المخاط من قماش البروكار، وقال: "عندما قمع تيمورلنك العالم، حرص على أن يكون جيشه من نوع واحد. لم يكن السبب الأساسي لهزيمة الصاعقة خطأ تكتيكيًّا، بل تشكيله جيشه من أمم متنوعة جداً".
" الصاعقة نفسه عندما أنهك القوات الصليبية كان على رأس جيش من أمم متنوعة".

"ولكن الجيش الذي واجهه كان يضم أمماً متعددة أيضاً. عندما شكّل الإسكندر الكبير قواته، جعل الجنود الغرباء مقدونيين تماماً، وقبلوا عاداته وعادات أمته".

"ونحن نطبق ما يشبه هذا يا باشا".

"تطبيقنا مختلف يا باشا. إذ لا يتحقق الانسجام اللازم بيننا بأي شكل، ويتمّ الفصل بين الأتراك والمتحدرين من أصول مختلفة. ويُهمل التركمان الذين يشكلون نواة الجيش، ويعاملون معاملة الغرباء، ولا يوضعون في محيط سلطان السلاطين، ولا يكلفون حتى بالمناوبة، ولا يسجلون بوحداته الخاصة...". صمت للحظة قبل أن يتابع: "يُخدع سلطاننا كما خُدع والده وجده وحتى جد والده...".

"لماذا تستخفون بنا دائماً يا باشا؟ دائماً تشكون بنا لأن آباءنا وأمهاتنا ليسوا مسلمين؟ مَنْ مِن سادتنا الصحابة كان والداه مسلمين؟ هل كان هناك تمييز بالدم في نظام الرسول؟ ما ذنبي إذا اهتديت وصرت مسلماً؟".

"أنت تتلاعب معي بالألفاظ يا زاغانوس، أنا لا أفهمك. مثال الرسول صحيح، ولكنه ليس بمكانه. مشكلة العثمانيين أنهم لا يطبقون في الداخل العدالة التي يطبقونها في الخارج. يقول سلطاننا إنه لا يجوز لأحد أن يسحق أحداً، ولكن هذا مع الأسف لا يتم في الواقع".

صمتا لحظة، فقد كانا مدركين أن هذا الحوار لن يصل إلى نتيجة.

بعد فترة، قال خليل الكبير بصوت هادئ: "ميدان السياسة أكثر دموية من ميدان الحرب هذا الذي تراه يا زاغانوس. لعلك تحترم عمري، وتسمع كلماتي هذه. سيأتي يوم نغرق فيه وسط هذا البحر الذي نتظاهر بأننا أبطاله. إننا ننهك أنفسنا كثيراً. وتأجيج هذه المعركة للاستمرار فيها لا معنى له؛ تماماً مثل محاولة الحيلولة دونها...".

"المدينة تسقط يا باشا".

"نعم، ستسقط. ولكن، برأيك هل سيدعنا الأوروبيون بحالنا؟ سيحاولون الثأر لهذا حتى بعد مرور ألف سنة".

ابتسم زاغانوس باشا بهدوء وقال: "لا تقلق من هذا يا حضرة الباشا، واثق الخطوة يكسب دائماً".

تحدث خليل الكبير وقد قلبت ما تحمله هذه العبارة من معانٍ معدته: "بفضلك صرت في نظر سلطان السلاطين شخصاً يلعب على الحبلين يا زاغانوس. ماذا عنك؟ إلى أي مدى سلطاننا قريب من حقائقك؟".

"أحمدُ الله على نعمه؛ فلا شيء لديّ مخفي عن أحد...".

رفع خليل باشا صوته: "زاغانوس، ليس ولداً من يقف أمامك... لا تظن أنني لا أعرف الألعاب التي تمارسها. أنا منتبه تماماً لعلاقتك مع البيزنطيين. لا تنس أنك عندما تنشر أسراري بعد أن تضخّمها وتضاعفها، يمكنني أن أنشر أعمالك السرية، ولكن مع وجود اختلاف بيننا. فأنا لا أقوم بعملي بمكر وسرّية، بل وأنا أنظر إلى عين عدوي مباشرةً".

اقترب تشاندارلي من زاغانوس كثيراً وتابع: "اسمعني جيداً الآن يا أفندي. أعرف عن علاقتك بلوكاس نوتاراس رئيس وزراء قسطنطين. وأنا منتبه للتدخل الذي تقوم به سرًّا ضد قسطنطين لكي يسلّم المدينة. النبلاء البيزنطيون ينسحبون من المعركة، وأنت تجنّ لعدم تمكنك من تنفيذ مخططك نفسه مع الطليان...".

"هذا الأمر ليس سراً، فصاحب هذه الفكرة هو محمد خان الثاني شخصياً".

"أنا أتحدث عن مصالحك الشخصية يا زاغانوس. فأنت تحاول أن تفرّق بين القوات الإيطالية بالطريقة نفسها أيضاً. وتشجع البندقيين على الحرب، وتقترح على الجنويين ترك السلاح. تحاول إحداث جوٍّ من التوتر المصطنع، وأحد أهدافك هو توسيع نفوذ المقاطعة الجنوية في غلاطة. ولكنك منتبه إلى انزعاج البندقيين من هذا الأمر. وهكذا، أنت من سيقطف ثمرة هذا الصراع. هل يعرف سلطاننا بهذا؟".

ضحك زاغانوس باشا من دون أن يهرب بنظراته وقال: "هذه أوهامك فقط يا خليل الكبير... فقد أتعبتك هذه الحملة، وأنهكت الوساوس عقلك العجوز".

"ولكنني أعرف أن هدفك الأساسي هو السيطرة على النفوذ كله بعد الفتح. فأنت تنوي إجلاس المرتدين مثلك في الصدارة، ومحو الترك من هذه الدولة. أنا أقرأ ما في سرّك يا زاغانوس... أقرأ داخلك...".

أدار زاغانوس باشا ظهره، وقبل أن يذهب قال: "بما أن لديك مواهب كهذه، فمن الأفضل أن تأخذ حذرك أيها العجوز المريض المغفل؛ لأنك ستسقط مع سقوط هذه المدينة".

II

12 أيار 1453

منذ أيام وعلي حيدر صامت لا يتكلم مع أحد. فبعد خروجه من ذلك النفق اللعين، أبلغ قائد الميدان الخامس بأن الطريق مفتوح والعدو غير منتبه، ولكن أصدقاءه جميعاً بقوا في الداخل بسبب التراجع الذي وقع عند باب هاغيوس رومانوس. لم يكن يعرف ما حل بهم. أفضل الاحتمالات أنهم وقعوا في الأسر. ولكن، كيف سيتمكن البيزنطيون العاجزون عن ملء بطونهم من إطعام الأسرى؟ ماذا لو كانوا مصابين؟ من سيضمد جراحهم؟ من المحتمل أنهم ألقوهم في إحدى الزوايا ليموتوا ببطء وهم يشعرون بالألم. عندما يفكر في احتمال حصول هذا يشعر بانقباض في قلبه، وبألم فظيع في معدته يتغلغل ليصل إلى روحه. أمله الوحيد هو المعلومات القليلة التي تمكن من معرفتها عن أسر البيزنطيين عدداً محدوداً من الأشخاص، ووضعهم في زنازين أنيماس لاحتمال مبادلتهم مع أسرى بيزنطيين أو الحصول على فدية.

أراد علي أن يعرف ما حل برفاقه مهما كلفه الثمن. ليس لديه حل آخر؛ فهو لم يستطع تحمل الوحدة؛ وخاصة مع شعوره باليأس هكذا. حاول حسين الإزميتي تقديم يد العون له قدر المستطاع، ولكن طوله المخيف، وعينيه المتورمتين، وتصرفاته الجليدية لم تكن مرهماً لجرحه. كان قد تمكّن من التهرّب من المشاركة في حفر الأنفاق بسبب طوله الفارع، وشارك بالقتال أمام الأسوار، ثم انسحب ليرتاح عدة أيام نتيجة إصابته في كتفه وفخذه. حين وجده علي، وشرح له الوضع، وعده بأن يؤمّن له لقاء مع أحد آغاوات جنود المهام من أجل إشراكه بهجوم هذه الليلة. أرسله الآغا الذي قابله إلى أحد رقباء قلب الميدان، والذي أرسله بدوره إلى إنكشاري يدعى نوري المجنون.

مد نوري المجنون رأسه ذات لحظة، ونظر إلى علي الذي انتظر ساعات أمام خيمته، وقال: "آه، لقد نسيناك أيها الشاب. لا تؤاخذنا".

"أستغفر الله يا آغا".

خرج الرجل ذو البشرة البيضاء، والبنية الضخمة، والعينين الزرقاوين البراقتين من خيمته بهدوء، ووقف منتصب القامة جيداً: "من المحتمل أن يكون رفاقك قد ماتوا. يبدو أن وصولنا إليهم في الفوضى السائدة هناك أمر صعب. ولكن، وصلتنا معلومات بأن المكان الذي يسجن فيه أسرى الحرب هو زنزانات أنيماس. نعتقد أن لدينا ثلاثمئة أسير على الأقل. طبعاً من

الممكن أن يكونوا قد غيّروا مكانهم، ونقلوهم إلى جوار ميدان سباق الخيل. أقول لك هذا لكي لا تبني آمالاً زائفة أيها الشاب".
هز علي رأسه، وأطرق.
استل نوري المجنون في هذه الأثناء سيفَ فارس يلمع، من المحتمل أنه حصل عليه من أحد الطليان الذين قتلهم، وبدأ يفرك فولاذه برمل أبيض ناعم أخرجه من جيب في زناره: "سلطاننا غاضب جداً، وينتظر نتيجة أكيدة. ونحن الإنكشاريين قدّمنا خسائر كثيرة في الهجوم الفائت. لذا، نحتاج إلى شباب أقوياء وشجعان مثلك. أخبرني، هل تقاتل جيداً يا ولد؟".
"أجل يا آغا".
"سيكون تركيز الهجوم هذه المرة على الشمال؛ مقابل قصر بلاخرنائي. وكما تعرف، إن زنزانات أنيماس في الجزء المطل على الخليج من القصر. سيكون هناك هجوم عام، وسيركز على الأماكن الضعيفة كلها في السور في الوقت نفسه. لهذا السبب سأصطحبك معي، إذ سيفيدني غضبك وشبابك".
"لن أخجلك يا آغا. سأضع روحي على كفي وأحارب، وسأحرق في طريقي كلّ من ساهم في أخذ أرواحي مني. كل ما أريده هو هذه الفرصة".
"هل شاركت بهجوم عام من قبل؟".
"لا يا آغا".
"هل تعرف السبب؟".
"كنا نحفر الأنفاق يا آغا".
"حسنٌ، هل تعرف لماذا تحفرون الأنفاق دائماً؟".
فتح علي فمه لكي يُجيب، ولكنه لم يعرف ماذا يقول.
"سأخبرك أنا إذن. أنا أيضاً أعرف الريّس مصطفى. إنه رجل شريف ومستقيم. تعب في سبيل الجيش كثيراً. وهو جندي عثماني حقيقي، ولكنه يخاف على رجاله... باختصار، إنه يطلب القيام بهذا العمل باستمرار من أجل المحافظة عليكم. وقد طلب منذ البداية أن تنقلوا إلى مكان حفر الأنفاق لتحلّوا محلّ الحفّارين المتناقص عددهم. ولكن، انظر إلى لعبة القدر، فها قد وقع بين أيدي الأعداء مع رجاله أيضاً".
نظر علي بعيداً وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقال: "لا تقلق بشأني يا آغا".
* * *

حدثت تصدعات لا يمكن ترميمها بسهولة في مكانين في سور بلاخرنائي. كان البيزنطيون يعملون بسرعة جاهدين من أجل ترميم تلك التصدعات. ولكن،

رغم كل ما يفعلونه، لم يُرح السد الجديد الذي يُنشئونه قلوبهم بكل معنى الكلمة. فقد كان المتطوعون الذين يشكل المدنيون أغلبهم يرفعون الجدار بشكل متعرج مستخدمين الأنقاض؛ وسط فوضى كاملة وصخب، وهم يتشاجرون في ما بينهم أحياناً، ومع الجنود أحياناً أخرى. وكان هناك من يبقى منهم تحت أكوام الحجارة التي تنهار فجأة، ومن يفقد بعض أطرافه، ومن يموت؛ ولكنهم كانوا واثقين أنهم إذا لم يبذلوا جهدهم فسيزولون من الوجود.

بدأ الهجوم الذي يقوده حامل راية جيش الأناضول مصطفى بيك، ويدعمه زاغانوس باشا بقوات النخبة قرابة منتصف الليل. فقد تسللت الوحدات العثمانية المؤلفة من ثلاثين ألفَ عنصر بالقرب من الأسوار بقدر ما تستطيع، وشنت هجوماً قويًّا؛ فيما الأجراس تُقرع، والطبول تُضرب، ويُنفخ في الأبواق من دون انقطاع. ساد هلع رهيب بالقرب من التصدعات، وهرب المدنيون يميناً ويساراً من شدّة الخوف مما أثر في انتظام وحدات الدفاع الموجودة في الخلف.

تجمّع الجنود الأتراك عند مدخل الصدع المرتفع نتيجة تراكم الأنقاض وجثث الناس بازدحام، وحاولوا المحافظة على توازنهم وهم يقفون على أرضية طينية تفوح منها رائحة الدم والعرق والبول. رفعوا دروعهم فوق رؤوسهم للاحتماء من الحجارة والرصاص والزيت المغلي. ولكنّ تلك الدروع لم تؤمّن لهم إلاّ حماية محدودة فقط. فقد بدأ رماة النبال والرماح الطليان المرابطون خلف الصدع مباشرة بإيقاع الضرر الأساسي في صفوف الأتراك الذين كانوا يتحرّكون بصعوبة لأن خمسين شخصاً على الأقل حاولوا الدخول من مكان لا يتسع إلا لعشرة أشخاص على الأغلب. ومن نجا من الرماح والسهام، ووصل إلى عتبة الصدع؛ ممّا غدا هدفاً سهلاً للسيوف الماضية. لذا، فَقَد الأتراكُ مئتي جندي خلال الدقائق العشر الأولى في معبر واحد؛ ممّا جعل الجثث تتحول إلى عائق طبيعي. ولكن، لم يكن هذا غير متوقع بالنسبة إليهم. وفي النهاية، ازداد الضغط من الخلف كثيراً حتى صارت الجثث تُقذف مسافة خمسة أمتار إلى سبعة إلى الأمام قبل أن تسقط والدم والإفرازات الصفراوية ذات الرغوة تتطاير منها.

أفاد هلعُ المدنيين الذين كانوا يساعدون في إصلاح الجدار، الأتراكَ بشكل غير متوقع. إذ تمكن الأتراك من وضع أيديهم على سلالم الأبراج وسط تلك الفوضى، ممّا جعلهم يشلون الدفاع بوصولهم إلى أعلى الجدار. في هذه الأثناء، أسندت السلالم إلى الأبراج، فبدأت هذه الأخيرة تتساقط بسرعة.

فقدت وحدات الدفاع الإيطالية خلف الصدع تفوقها بسرعة، ولم يعد هناك مفر من تقهقرها.
وما إن رأى القائد مصطفى بيك أنّ كفّة التفوق قد مالت إليه حتى استعمل قاذفات السهام النارية التتارية الضخمة التي جلبها معه من الصدع، وبدأ بتأسيس خط دفاعي مضاد. كانت تلك الآليات الحربية المدرعة بالخشب والمعدن وتسير على عجلات مؤثرة جداً. إذ يمكن أن يختبئ خمسة جنود على الأقل خلف تلك الدروع. وهكذا، فُتح الطريق أمام الجنود العثمانيين المتدفقين من الصدع كالسيل.
لو فكّر الإخوة باولو وأنطونيو وترولیو بوتشياردو أن الأمور ستصل إلى هذه الدرجة من الخطورة لكان من المحتمل أن يتدخلوا في وقت باكر. غير أنّ أولئك الشباب كانوا في تلك الأثناء ينعمون بشيء من الراحة بعد أن قهقروا الأتراك المتسللين من صدع آخر قريب منهم. ثم إنهم بكل الأحوال ظنوا أن الأتراك لن يستطيعوا التسلل إلى المدينة من ثغرات بسيطة كتلك بوجود جيوستنياني هناك. في تلك الأثناء بالضبط، سأل الأخ الأوسط أنطونيو ذلك السؤال التاريخي: "هل نحن متأكدون من وجود جيوستنياني في المنطقة؟".
ابتسم باولو من خلف خوذته، وشرب القليل من الماء وهو يلهث، ثم قال: "أما قلتما إنه هناك؟". كانت لوحات الدرع التي تغطي ذراعيه الضخمتين شديدة الحمرة، ورغم أن الوقت كان ليلاً فقد كانت مغطاة بالحشرات الطائرة.
"متى ترك موقع هاغيوس رومانوس، وأتى إلى هذه الجهة؟". وكان الأخ الأصغر ترولیو هو من طرح هذا السؤال.
قال باولو: "اصمتا دقيقة!". وأصغى للأصوات الوحشية المنبعثة من مسافة عدة مئات من الأمتار.
فجأة، رأى أخواه ورجاله الآخرون تحت ضوء المشاعل، أن وجهه قد شحب.
"أنطونيو، ترولیو، ألم يكن أحدكما من قال إن الجنرال قد أتى إلى أمام القصر؟".
قال الأخوان في الوقت نفسه: "لستُ أنا". وتبادلا النظرات.
تلفَّت رجالهم الآخرون حولهم أيضاً، وعلى وجوههم تعبير إنكار كما لو أن كلاً منهم يقول: لستُ أنا.
قال باولو: "هيّا بنا إذن. لنذهب ولنرَ الوضع. ترولیو، ابق أنت هنا مع عشرين عنصراً".

كاد ترولیو أن يعترض، ولكن لم يكن الوقت مناسباً للنقاش. فقد صارت قوّات زاغانوس باشا الرئيسة مقابل الأبراج، وراحت تضرب الجدران بصبر.
ما إن تقدموا مئة متر حتى رأوا الجنود العثمانيين يركضون مطلقين الصيحات. تقدم الرماة إلى الصفوف الأمامية ليتخذوا موقع الدفاع. وأرسل باولو أحد رجاله إلى ترولیو من أجل إرسال قوة ظهير تتألف من عشرة أشخاص.
توقفت الوحدات العثمانية مع أول عملية رشق سهام، ولكنها لم تحتمل الضغط القادم من خلفها، فلم يطل توقفها، ولحقت بباولو المنسحب بشكل منتظم تحت وابل السهام والرماح، وخاضت معركة حامية الوطيس عنقاً لعنق.

III

صرخ الفارس النبيل جورجيوس سفرانتزيس: "عليك أن تغادر المدينة يا صاحب الجلالة!".

لم يبق شيء من الدرع التي فقدت وظيفتها. وذكّرته قطع الحديد التي حاول أن يعيد ربطها بيديه بخيال مآتة من الصفيح.

"يمكنكم أن تنقلوا الإدارة إلى لوكاس نوتاراس بوصفه الدوق الأكبر، وأنا هنا أيضاً بصفتي كبير وزرائكم، لا تقلقوا يا سيدي".

صرخ قسطنطين الحادي عشر وكأنه يتحدى اليأس الموتر للأعصاب والمستمر منذ بداية الحرب حتى الآن: "كما لو أنني جبان، أليس كذلك؟ ما تنتظر مني يا جورجيوس؟ بما أنهم قادمون، سيجدونني حاملاً سيفي كما أقسمت. ولن يستطيعوا تمييزي عن جنودي الآخرين...".

نظر سفرانتزيس إلى حذاء الإمبراطور الأحمر ذي الشعار الملكي. في الحقيقة، إن قسطنطين يُعتبر محقاً، فلا أحد سينتبه إلى الشعار على حذائه في هذا الليل، كما أنه لا يمكن تمييز جثته عن جثث الآخرين. ولكن موته يعني انطفاء آخر ضوء من أضواء الروح البيزنطية.

"ما أعرضه على جلالتكم هو انسحاب استراتيجي. إذا أُسرتم أو قتلتم فسينهار الدفاع. والأهم من هذا... الأهم من هذا أنّ آخر قوى روحكم ستستهلك وتتحلل...".

"اليوم ليس يوم السياسة الدقيقة يا جورجيوس، بل اليوم هو يوم المقاومة مع كل فرد من أفراد هذه الأمة إلى النهاية، إنّه يوم إثبات ذاتنا".

صرخ سفرانتزيس بصوت مشبع بالألم: "أي أفراد يا صاحب الجلالة؟! وأي أمة؟".

صرخ قسطنطين: "أنا، أنا... الفرد الذي تسأل عنه هو أنا، والأمة التي تسأل عنها أنا أيضاً يا جورجيوس. الآن، إما أن تتبعني وتكون واحداً من أولئك الأفراد، أو تذهب إلى حيث تريد؛ أنت حرّ في اختيارك".

ارتدى الإمبراطور درعه الجديدة، وتسلّح بسيفه الجديد، وسار في الظلام إلى حيث ينتظره حصانه الأكثر أصالة. لم يرافقه سوى حفنة من وحدة الحماية الخاصة به. لذا، هرع جورجيوس بجنون لإيجاد بعض النبلاء المختبئين في بيوتهم وأقبيتها من أجل حماية الإمبراطور.

* * *

تقدم عليٌّ بضع مئات من الأمتار من دون أن يجد أحداً أمامه يقاتله. كانت الأمكنة كلها مليئة بالجثث. الأسوأ من هذا أن مدنيين من النساء

والأطفال الذين كانوا يعملون بإصلاح الجدار كانوا من بين الضحايا. عندما يسقط ضحايا مدنيون في المدينة، تفقد الحرب شرفها وقوالبها الملحمية. فمع زيادة القوة القاتلة للأسلحة النارية، صار أمن المدنيين معرّضاً للخطر أكثر.
عندما رأى علي جثة طفل على الأرض، قال لنفسه: "أي مدينة وأي غنيمة تساوي دم هذا الطفل؟ من المحتمل أنه رافق أبويه اللذين كانا يعملان على ترميم الجدار لأنهما لم يقبلا بتركه وحده في البيت، ولا بدّ أنه كان يراقبهما في أثناء تأديتهما. لعله كان يسقي العطشى، لعله جاع، ولعله كان مريضاً أو جريحاً أصلاً، وانطفأت نار حياته القصيرة في بحر الدم هذا.
فاضت عينا علي بالدموع، فرأى الأضواء من حوله ذات لون برتقالي حالم.
كانت الوحدات البيزنطية تتفكك، وغدا تراجعها حالة عامة، فيما الجيش العثماني يتقدم بكل ثقله نحو الأبواب. فرح لدى رؤيته الرايات التركية مرفرفة على الأبراج. بعد وقت قصير سيبدأ الشجعان الذين وصلوا إلى الأسوار بفتح الأبواب.
تلفّت حوله. ازداد الحشد حول الصدع، ولكنه لم ير وجهاً مألوفاً من أفراد وحدته. هرع إلى الوحدات المتجمعة الواحدة تلو الأخرى، وسأل عن نوري المجنون. بعضهم لم يجب نهائياً، وبعضهم الآخر صدَّه، فيما أشارت مجموعة الأشخاص إلى بعض الأماكن عشوائياً. مرّت إحدى الكرات القماشية الملفوفة بالقار والبارود التي تقذفها المنجنيقات العملاقة من القمة أمامه وهي تصدر ضجيجاً وتنير ما حولها، ووقعت في باحة يبدو من قضبانها الحديدية وأبراجها أنها سجن؛ فيما هي تحرق كل ما تمر عليه.
شعر عليٌّ بيد قوية تمسك كتفه، وتديره نحوها. كان هذا نوري المجنون الذي أتاح له فرصة الانضمام إلى وحدة الهجوم.
"أنا أبحث عنك يا ولد. بأمر من مصطفى بيك شكلتُ فرقة بحث مؤلفة من خمسين شخصاً. إنهم على بعد خمسين ذراعاً إلى الأمام. لقد اجتمعوا أمام باب باحة السجن مباشرة. إنهم أصحاب الراية الحمراء. ألا تراهم؟".
هز علي حيدر رأسه بقوة وسأل: "هل سجن أنيماس هنا يا آغا؟".
قال نوري: "اركض بسرعة، وانضم إليهم".
ركض علي بسرعة. وفور اقترابه من الجنود، سأله أحدهم بصوت أجش: "هل أنت علي حيدر؟".
التفت علي فرأى رجلاً ضخمَ البطن، له شاربان معتنى بهما كثيراً يصلان إلى أذنيه.
"نعم يا سيدي".

"أنا الرقيب أول الريّس محمود. هيّا، اتبعني". ولوّح الرجل بيده الغليظة التي تحيط بها درع برونزية، وربَّت على كتف علي.
حين نظر علي للمرة الأخيرة إلى الصدع الذي يدخل منه، وجد أن أكثر الجنود صاروا في الداخل، وأن القتال يشتد في الأزقة الفرعية، وسمع هديراً يقترب منه. وتحت أضواء المشاعل الحمراء رأى الفرسان والمشاة يدخلون وراء بعضهم. لا بدّ أنّه سيجد أصدقاءه؛ شعر بهذا بقوة إلى درجة أن عينيه دمعتا.
أُطلِقت الأبواق من مكان ما، ومزّقت الصيحات والتكبيرات ظلام الليل. وعندما بدأت المجموعة الكبرى التي انضم إليها بالتقدم في رتل رباعي، فقد خلال لحظة إحساسه بالزمان والمكان والجهات. كانت قدماه تتعثران بأشياء ما باستمرار، فيما أصوات الصراخ والانفجارات تشدّ أعصابه المتوترة كالقوس المشدودة إلى أقصى حدّ. وكان يدرك تماماً أنه ما كان ليتوتر لو كان أصدقاؤه القدامى معه. شعر بالوحدة واليأس الشديدين، ولم يتمكن من مقاومة مشاعره هذه مهما فعل.
هزّت المكان كله قذيفة مدفع سقطت بالقرب منهم، وتدحرجت. سمع علي طقطقة الأجسام المدرعة التي سُحقت تحت القذيفة. كاد أن يصرخ، وشعر بموجة الانفعال المتصاعدة في داخله، ولكنه حاول ضبط نفسه عبر التنفس بعمق. كان عليه أن يتمالك نفسه بأسرع وقت. كانت تلك طلقة مدفعية بيزنطية تمّ إطلاقها من أحد المرابض في التلال. لا بد أنها تستهدف قاذفات السهام الموجودة أمام الأسوار. كانت خطتهم ذكية؛ إذ لن تستطيع دفاعاتهم الصمود إذا استعاد العدو قوته. كان من الجلي أنهم يجب أن يسرعوا.
بدأ يفكّر في سرّه أنه إذا وجد أصدقاءه وأخرجهم من هنا سالمين، فسيذبح أضحية في أقرب فرصة، ويصوم ثلاثة أيام... لا، لا، سيصوم أسبوعاً... سيفعل شيئاً ذا قيمة أكبر عند الله بالتأكيد... فجأةً، توقف الجنود الذين كانوا يسيرون أمامه، فتوقّف هو أيضاً. عندها اصطدم به الإنكشاري الراكض خلفه.
صرخ البعض، وصدرت أوامر. لم يفهم علي ما قيل. أخيراً، جاء رجلان يحملان عموداً ضخم الرأس، حجمه صغير ولكنه يبدو ثقيلاً، ووقفا أمامهم، وبدآ بضرب جنزير محكم الإغلاق يلتف حول باب حديدي. قبل مرور زمن طويل، كُسر الجنـزير، ونجحوا بدخول سجن أنيماس الذي لفّت شهرته ولايات الروم والعجم كلها.

عبروا دهاليز مظلمة ذات أقواس وأسقف محدبة وعالية، وخاضوا في مياه قذرة تجمعت على أرضيتها غير المنتظمة وشمّوا رائحة عفن قوية. تجاوزوا جسوراً مليئة بالفخاخ، وترتبط في ما بينها بقواعد متحركة مختلفة المستويات. وبينما كانوا ينـزلون إلى الظلام الدامس مروراً عبر قاعدة تنحدر عدة أمتار تحت الأرض، ضربهم هواء بارد كالثلج على وجوههم المتعرقة. تنشقوا الهواء قذر الرائحة وهم يقطبون وجوههم. فكّر علي أن الإنسان هنا يخسر عقله قبل أن يخسر صحته.

كانوا يتركون حارسين عند كل مفترق طرق لكي لا يضيعوا طريق العودة، ثمّ يتابعون تقدّمهم ركضاً رغم أن الأرض كانت زلقة جدًّا ويصعب الوقوف عليها. في إحدى اللحظات، استغرب علي من كيفية تمكّن المجموعة المتقدمة أمامه من معرفة الطريق في هذا السجن إلى هذه الدرجة. ولكن، بعد قليل، لم يفوّت فرصة الاقتراب من المجموعة الأمامية. عندها، رأى أن هناك رومياً يعمل دليلاً لهم. كان رجلاً صغير البنية، عيناه تغزلان غزلاً، وجلدة رأسه الأصلع تعكس نور المشاعل.

انتبه علي إلى أنه بدأ يسمع أصوات الأسرى، فشعر بقلبه ينبض بقوّة في صدره. تبيّن لهم أن أحد الأبواب قوي جداً مقارنة بالأبواب الأخرى. وعندما لم يفدهم العمود في فتحه، حطموا مفصّلاته مضحين بعدة دروع أفسدوها خلال عملية الخلع. فقدوا عشر دقائق ثمينة جداً بالنسبة إليهم. وكان علي يشعر بفضول شديد لمعرفة ما يجري في الأعلى. هل كان الأتراك مستمرين بالتقدم، أم إن قوات الاحتياط أتت من جزء آخر من المدينة وأسست خطاً دفاعياً جديداً وأوقفت التقدم وجعلت القوات التركية تتقهقر؟ شعر بالضيق نتيجة وجوده في مكان مغلق. قدح أمام عينيه برق ملون لامع، وبصعوبة شديدة كان يحافظ على توازنه. كان يدرك تماماً أن أحداً لن يهتم به لو فقد وعيه، وأنه لن يتمكن من إيجاد طريق العودة وحده.

عندما أطلقوا سراح الأسرى جميعاً، وليس الأتراك فقط، دبت الحياة في فكرة غريبة راحت تجول في عقل علي الذي شهد ضغطاً كبيراً. إذ فكّر في أنهم يركضون منذ ساعات في الدهاليز المظلمة، وأنهم لن يستطيعوا الخروج إلى ضوء الشمس. فمن غير الممكن أن يجدوا طريق الخروج. في تلك اللحظة، فعل ما لم يفعله يوماً؛ حتى في تلك الأنفاق التي أمضى عمره وهو يحفر فيها مثل الخلد، فقد بدأ بالبكاء. لم يكن بإمكانه تعرّف أحد في هذا الزحام... تضرّع في سرّه قائلاً: "أرجوك يا الله، فليكن الريّس مصطفى هنا... هو على الأقل!". وبينما كان النشيج يتحرر من بين شفتيه،

انخرط وسط الأسرى، وبدأ ينادي بأسماء أصدقائه.
كان الأسرى كلهم منهكين، وأغلبهم لا يستطيعون القيام بأي حركة بسبب تورم مفاصلهم بفعل الرطوبة والبرد الشديد. قال علي في سرّه: "لا يمكن أن يكون أفراد جماعتنا بهذه الحال، إذ لم تمضِ عليهم سوى ستة أيام هنا... لا يمكن أن يحصل شيء كهذا خلال ستة أيام بالتأكيد...".

توحدت قوات قسطنطين مع قوات لوكاس نوتاراس على بعد ثلاثة كيلومترات من القصر باتجاه أياصوفيا. وإثر تلقي الإمبراطور خبراً بأن الجنرال جيوستنياني في وضع صعب، قاد الوحدات نحو منطقة تواجد الجنرال بسرعة. وفي طريقهم، صادفوا جنوداً هاربين، فتحدث الإمبراطور إلى كل منهم على حدة لكي يعيده، ولكنه تراجع عندما لم يجد أحداً يتجاوب معه.

قطع جنود المفرزة الصغيرة التي شكلها نوتاراس لجمع الجنود الهاربين من الأزقة الفرعية، الطرقَ، وأبلغوا الهاربين أن الإمبراطور يقاتل شخصياً الآن لكي ينفضوا عنهم حالة الهزيمة. وبجهود دون فرانسيسكو القادم من جنوب فرنسا والوحدة الكتالونية تمكنوا من إبطاء الانسحاب نحو الجنوب بداية، ثم بدأوا بضرب رماة السهام المصرِّين على الهرب. وقبل مرور زمن طويل أوقفوا التقهقر.

وكما لم يتوقع العثمانيون تقدماً سريعاً إلى هذه الدرجة، لم يتوقعوا أن يستجمع العدو قوته وشجاعته أيضاً خلال هذه الفترة القصيرة. فقد نجح الإخوة بوتشياردو في قهقرة وحدات الأتراك التي تشتتت نتيجة زوغان أعين أفرادها لدى تحقيقهم النصر المفاجئ، ورغبتهم في الحصول على الغنائم. وزاد الإخوة بوتشياردو مداهماتهم على طول المنطقة الواقعة جنوبهم، وتوحدوا مع قوات كانتاكوزينوس الاحتياطية. وكانوا يقتلون الأتراك الضالين طريقهم في الأزقة الجانبية أو خارقي النظام نتيجة اندفاعهم للحصول على الغنائم ويتقدمون بسرعة.

هرع الإمبراطور لمساعدة جيوستنياني المتأزم وضعه في الجنوب عند باب هاغيوس رومانوس. فجذب الوحدات التركية نحوه إلى الأقسام الداخلية التي لا تعرفها، ثم بدأ يشتتها. خاض المحاربون المعركة باندفاع حين رأوا الإمبراطور يحارب معهم شخصياً.

لم يستطع الأتراك الانسحاب بشكل منظّم. وسرعان ما تشتتوا منسحبين نحو التصدعات في الأسوار. واستعمل البيزنطيون آخر قذائف مدفعيتهم بسخاء، ورموها على قاذفات السهام قرب التصدعات محققين النتيجة المرجوَّة، ومحبطين الدفاع المضاد. وفي أثناء لجوء الجنود العثمانيين إلى التصدعات على أمل الخلاص، تعرضوا لإطلاق النار من فوق السور أيضاً؛ ممّا وضعهم في مأزق محكم. ومن استطاع منهم الوصول إلى الخارج، هرب من دون أن ينظر خلفه.

* * *

كانت حالة الريّس مصطفى وإسماعيل الكردي يرثى لها عندما صادفهما علي. فقد كانا يمشيان بصعوبة، وارتسمت على وجهيهما تعابير الحزن والشوق حين رأيا علي حيدر أمامهما. ربط علي الأمر بداية بالشوق، ولكن الريّس مصطفى دفعه من صدره بقوة عندما حاول أن يعانقه. لم يستطع علي تفسير سبب تصرّفه هذا، ولكنه لم يهتم. في تلك الأثناء، وقعت عيناه على خيري البيلجكي الذي كان وضعه هو الأسوأ؛ فقد انهار جسمه القوي الذي كان يتباهى به نتيجة التعذيب.

حمل علي صديقه على ظهره وهو يصرخ: "احتمل يا خيري آغا!".

لم تكن الأخبار التي تصلهم من طريق العودة جيدة. فقد شُنّ هجوم مفاجئ على مدخل السجن، وقُتل الحراس الذين وضعوهم عند الباب. أما أولئك الذين وضعوهم عند المفارق فقد تقهقروا وهم يقاتلون. في الحقيقة، إن الخروج عن طريق هجوم معاكس ما زال ممكناً، ولكن انحدار الدروب سيكون لصالح المهاجمين. وعلى الرغم من هذا، لم يكن لديهم حل آخر، وانطلقوا في طريقهم إلى خارج السجن.

قال البيلجكي بصوت مخنوق ومنهك: "سأرد لك هذا الجميل ذات يوم".

أجاب علي صديقه قائلاً: "ستردّه يا آغا، ستردّه بالتأكيد، لنخرج من هنا أولاً".

شعر علي حيدر أنه يلهث فيما كانوا يتقدمون على طول الممرات. لم يكن يفكر بشيء غير الخروج من هذا المكان؛ فالأمكنة المظلمة وذات الرائحة الكريهة تستهلك أنفاسه.

بعد عدة دقائق، حصل ما كانوا يخشونه. فقد قابلت طلائعهم الأمامية الجنود البيزنطيين، وخاضت معهم قتالاً قوياً. وكانت أصداء الأصوات تتردد بين جدران الممرات الضيقة والمظلمة من الجهات كافة، فيغدو صوت شخص واحد كما لو أنه صوت عشرة أشخاص معاً.

انتبه علي حيدر إلى أنهم بدأوا يتقهقرون نحو الخلف. ولكن الإنكشاريين سرعان ما استجمعوا قوتهم، وبدأوا يتقدّمون نحو الأعلى ولو بصعوبة. موهبة الإنكشاريين في القتال وقوتهم الكبيرة أدهشتا البيزنطيين الذين كان الموقف لصالحهم.

كان علي حيدر يقف في النهاية، ويتقدّمه مباشرة الريّس مصطفى وإسماعيل الكردي. استطاع علي التقاط شيء غاب عن أعين الآخرين وسط تلك الفوضى. فقد انسل ذلك الرومي ضئيل البنية من بين الجنود، وركض

بالاتجاه المعاكس للاتجاه الذي أتوا منه. نادى علي الريّس مصطفى وإسماعيل موقفاً تقدّمهما؛ وإن كان قد فعل ذلك بصعوبة. قال لصديقيه اللذين نظرا بعيون متسائلة: "احذرا، احذرا من التقدم أكثر، اتبعاني بسرعة بقدر ما تستطيعان يا ريّس".

أنزل البيلجكي عن ظهره وسلّمه لصديقيه، ثم قفز خلف الدليل كالصاعقة. انطلق راكضاً وسط الظلام حتّى أمسك بالرومي الهارب بشكل عجيب من دون أن يسقط أو يقع في بئر لا قرار لها. لوى ذراع الرجل خلف ظهره، وجعله ينحني إلى الأمام ويجلس على ركبتيه.

عندما وصل إليه أصدقاؤه بصعوبة، سأله الريّس مصطفى: "من هذا يا بني؟".

قال علي: "إنه أحد الحراس إذا لم أكن مخطئاً. وهو بالتأكيد يعرف مخرجاً آخر".

قفز إسماعيل قائلاً: "إذا كان الأمر كذلك فلنخبر الآخرين".

قال علي: "فليُرنا الطريق في البداية، ثم بإمكانك إخبارهم يا آغا". ثم أطلق سراح الرجل.

أشار له بيده بما معناه: استمر. في البداية، تبعوا الرجل بخطوات متوجسة، ثم أسرعوا تدريجيًّا. تبعهم عدة أسرى مساكين كانوا قد بقوا في الزوايا. حمل علي البيلجكي مجدداً، وبعد قليل تاه الجميع في الدهاليز المتشعبة. لم تعد أصوات الآخرين تُسمع. في تلك اللحظة، أدرك علي أنه لن يستطيع فعل شيء من أجل أصدقائه الذين تركوهم في الأعلى.

في الليلة نفسها، خاطب محمد خان وزراءه الذين جمعهم في خيمته قائلاً: "كدنا ننتصر... كدنا ننتصر... فَهِمَ خصومنا جيداً ورأوا أيضاً أنهم لم يعودوا بمأمن وراء تلك الجدران. ليس أمامهم مخرج مهما فعلوا".

قال الخال قرجا باشا وهو يفتل شاربه: "نعم يا سلطاني". وكان على وجهه تعبير المنكسر النادم على تفويت فرصة كبيرة في اللحظة الأخيرة. جمع أطراف قفطانه الأخضر، وقال: "بداية، وصلنا إلى أسوار هاغيوس رومانوس في السادس من أيار، والآن دخلنا المدينة. ترى، ألا يجب أن نقدم للإمبراطور آخر عرض؟".

قال محمد خان: "دعك من هذا يا قرجا بيك، دعك منه. ليأت العرض من قسطنطين أفندي. فقد سبق لنا أن عرضنا تسامحنا وحسن نيتنا. إذا كان بطلاً إلى هذه الدرجة، فإلى متى سيقاوم؟".

قال خليل الكبير وقد بدا التعب والمرض على وجهه المهيب نتيجة لما عاشه مؤخراً: "برأيي، سيقاتل هذا الرجل حتى آخر نفس. فقد أثبت أنه ليس من النوع الذي يستسلم. فهو يسعى إلى الموت بكرامة، وأعتقد أنه سيحظى بما يسعى إليه".

تحدث السلطان وهو ينهض عن مقعده: "سيموت بكرامة، ولكنه ليس ذكياً جداً يا خليل باشا. فالمدينة تُمحق؛ درة العالم تتحول إلى خراب بسبب غباء هذا الرجل. ما يفعله هذا الإمبراطور يدخل في نطاق البطولة الفارغة، وأخشى أنه لن يبقى لنا سوى أنقاض المدينة التي تُدعى قسطنطينية. المهم، ستحتشدون عند باب أيوس رومانوس. لا تتوقفوا نهائياً، أو تعطوهم أي فرصة. سنكسر أمل العدو نهائياً في البداية لكي لا يستطيع المقاومة. تأخرنا قليلاً، ولكنني واثق بأننا على الطريق الصحيح. لقد هُزم البيزنطيون، ولم يعد أمامهم الكثير... بدءاً من الغد ستستخدمون أبراج حصار جديدة، وأكبر من القديمة بكثير. وهناك تطور جديد آخر، فقد استقدمت فريقاً جديداً لحفر الأنفاق من نوفو بردو في صربيا...".

تنهد جميع الموجودين في الخيمة بدهشة، وبدأوا يتهامسون في ما بينهم. إذ إن شهرة أولئك الرجال قد لفَّت العالم كله. كانوا يعملون في أهم مناجم الفضة في أوروبا، والتقنيات التي يستخدمونها في أثناء الحفر توصلهم إلى هدفهم بطريقة لا يتخيلها عقل. وقبل أن يجد البيزنطيون النفق الذي يحفرونه سيفاجئونهم بالتأكيد.

قال محمد: "نعم، كان ينبغي لي إحضار هؤلاء الرجال منذ البداية. ولكنني

لم أتوقع أن تواجهنا كل هذه الصعوبات. قدموا لهم التسهيلات اللازمة، والوعود الكبيرة. هدِّدوهم إن لزم الأمر... افعلوا ما تشاءون، ولكن يجب أن تصلوا إلى تحت أسوار المدينة".

* * *

سأل قسطنطين: "إلى متى؟ إلى متى سنقاوم يا أصدقائي؟ هل تعرفون؟".

لم يصدر جواب من أحد. وكان أكثر من نصف مجلس الحرب الشهير المؤلف من اثني عشر عضواً قد اختفى، ولم يبق مع الإمبراطور سوى أربعة أعضاء فقط، وهم كبير الوزراء جورجيوس سفرانتزيس، والدوق الأكبر لوكاس نوتاراس، والقائد العام الجنرال جيوستنياني، والسناتور الشاب المخلص نيكولاس بيريوستا. أُدخِل الجنرال جيوستنياني إلى المجلس على الرغم من كونه أجنبياً ومرتزقاً، ممّا أغضب الأعضاء الباقين. لم يكن قسطنطين على استعداد للاهتمام بعقد الأرستقراطيين المذهبية والقومية، على الرغم من أنهم ما زالوا يتابعون شؤون استثماراتهم وأملاكهم. وقال لنفسه: "غيابهم أكثر فائدة من وجودهم".

جمع النبلاء المخلصون له وحداتهم المتفككة بسرعة، وأسسوا وحدات صغيرة، واستمروا بالقتال على الأسوار. وكان متأكداً أن أكثرهم يحاولون إيجاد طريقة للهرب إلى غلاطة في الليل. ولكنهم مخطئون جداً إذا اعتقدوا أنهم سيكونون آمنين هناك. لأن محمداً لا بد أن يحاسب هذه المقاطعة الجنوية التي كانت قد أعلنت أنها محايدة وغير مسلحة على مساعدتها أعداءه طوال فترة الحرب.

وضع كأس الشراب من يده وقال: "إذن أنا سأجيب يا أصدقائي. حتى النهاية... نعم، حتى آخر فرد... ولو كان هذا الفرد أنا فسأقاوم. أعرف أن المؤرخين سيكتبون أنني قاتل، وربما سيكتبون أنني غير مسؤول ومجنون، ولكنهم سيقولون أيضاً إن لدي كرامة. ليقولوا ما يريدون. هذه الأرض ليست لي وليست للشعب، بل إنها الأرض التي ورثناها عن أجدادنا لكي نبقيها بيزنطية إلى الأبد. لذا، علينا أن نحارب حتى النهاية يا إخوتي".

لجأ أعضاء المجلس إلى دفء الحرارة والنشوة التي أنستهم كل شيء، وصرخوا: "حتى النهاية، حتى النهاية...".

جلس الإمبراطور على عرشه الرخامي بهدوء، وبقي صامتاً لفترة، ثم قال بصوت منخفض: "لم أكن يائساً إلى هذه الدرجة من قبل قط يا أصدقائي".

وعندما رفع رأسه، انتبهوا إلى الدمع المتلألئ في عينيه.

"ليت موتي يحل المشكلة. أتمنى هذا كثيراً... ولكن موتي لن يحل شيئاً

أبداً... ذلك الشاب... ذلك الشاب الذي لم يبلغ الحادية والعشرين من عمره بعد يأخذ كل شيء من يدي... غدت أفكاري مظلمة، وعلى وشك أن تُنسى...".

ليس محبباً أن يبكي إمبراطور نخبوي صاحب سلطة وإمبراطورية كبيرة ورثها عن والده. كان هذا الوضع مستهجناً بالنسبة للآخرين، وحل عليهم انهيار معنوي مدمّر. ولكن قسطنطين لم يكن في وضع يمكنه من التفكير بهذا تحت تأثير الشراب. فقد راح يشرب ويبكي، وكلّما شرب أكثر ازداد بكاؤه.

بعد فترة صرخ فجأة: "ولكننا نحارب بشجاعة كما فعل أجدادنا الذين صدوا جيش الفرس البالغ مليون مقاتل عند ثغور ترموبيلاي. أما بقي لنا من ذلك الصراع سوى حفنة رماد؟ لا! بقيت لنا تلك الروح النبيلة. وإذا لم يكن تفضيلنا الموت على الاستسلام من دون كرامة، هو النبل نفسه، فماذا سيكون؟".

الفصل الثامن
رأيت حلماً يا سيدي

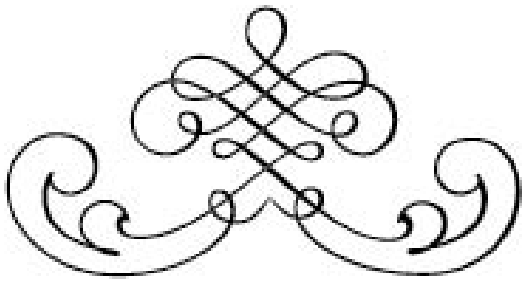

I

"الشعر يصور ما هو أكثر عمومية
والتاريخ يصور ما هو أحاديّ".
أرسطو (الشاعرية)

لحق علي ومن معه بالدليل عبر دهاليز بدا أنها لن تنتهي، حتى خرجوا من مكان على شاطئ الخليج. شعر علي بانشراح كبير حين وجد نفسه على شاطئ البحر خارج ذلك القبر الضيق عفن الرائحة. شعروا بالنسيم المنعش في الخارج كما لو أنه نسيم صيف بعد البرد الشديد الذي شعروا به في ذلك السجن. رأوا الضوء الصادر من أعلى برج غلاطة. لا بد أن يكون الأهالي وراء أسوار المدينة الجنوية الصغيرة يرون نهايتهم في الكوابيس التي تقضّ مضاجعهم. ورغم ذلك، لم يشعروا بالغضب أو بالرغبة في الانتقام.

كانت النجوم تبدو كالمجوهرات اللامعة في كبد السماء في تلك الليلة الربيعية المنعشة. تليق هذه السماء بالسلاطين. سمعوا صياح طيور النورس المستيقظة من نومها، وشمّوا رائحة اليود والطحالب المدوخة التي بدت وكأنها عطر مركّز لا يقدر بثمن.

ساروا مع الأسرى الذين لحقوا بهم من الزوايا والأطراف على الشاطئ بالقرب من الجدار متجهين نحو الجنوب. صار الريّس مصطفى وإسماعيل يستطيعان المشي وحدهما براحة. حاول الجميع ألا يصدروا أي صوت، وساعدتهم الأرضية الطينية على تنفيذ ذلك. كانت نية علي أن يجد زورقاً أو مركباً صغيراً على الشاطئ. ولكن، لا بدّ أن تكون الزوارق قد أزيلت كلها لأسباب أمنية. توقعوا أن يتمكنوا من الوصول إلى صف السفن المتلاصقة إذا ساروا على طول الشاطئ نحو الشمال؛ لأن الإجراءات الأمنية يمكن أن تكون ضعيفة على البرج الواقع في لسان الخليج بسبب الاشتباكات. يمكنهم أن يلجأوا إلى وحدة حراسة الجسر.

تمتم الريّس مصطفى: "هذا أكثر منطقية. إذا مشينا عدة كيلومترات نحو الشمال فسنصل إلى الجسر".

قال علي: "حسنٌ". وعادوا أدراجهم نحو الخلف.

في تلك اللحظات، همس إسماعيل: "أذكر أنني عندما كنت طفلاً حلمت بأن كلباً مسعوراً كان يلاحقني. كان ذاك الكابوس مخيفاً جدًّا، وكلما تذكرته شعرت بخوف شديد إلى درجة أنني أكاد أبلل ثيابي. كنت أركض بسرعة كبيرة كالبرق، وأقوم بالتفافات لا يتصورها عقل، ولكن الكلب كان أسرع

مني. لم يكن يتخلى عن ملاحقتي مطلقاً. وعندما كنت أستيقظ كنت أكتشف أنني بللت ثيابي وفراشي. هل تعرف ما حدث يا علي؟".
نظر علي إلى إسماعيل بفضول.
"عرفت بعد عدة أسابيع أن ذلك الكلب لصٌّ يدور حول بيتنا كل ليلة. كان قد راقب بيتنا لمدة طويلة، وخطط للدخول إليه من نافذتي، ولكنه لم ينجح بأي شكل. فقد تسلق شجرة الدردار المجاورة لنافذتي، وحاول قطع القضبان الحديدية بالمنشار، ولكن من دون جدوى. أخيراً، قبضت عليه دورية العسس. لو نجح بالدخول إلى غرفتي حينها لكان قد داس على فراشي وتمكن من دخول المنزل يا أخي علي، هل تتصور هذا؟".
قال علي: "هذا فظيع!".
"حين كنت في الزنزانة رأيت كابوساً مشابهاً لهذا يا علي".
همس الريّس مصطفى: "فلتلتزما الصمت. فعلى الرغم من هلع القوم من الممكن أن يكونوا قد وضعوا حارساً فوق رؤوسنا".
سأل علي هامساً بصوت منخفض جدًّا: "وما هو؟".
"كان هناك وحش يخرج من هذه المياه".
"كيف بدا ذاك الوحش؟".
"خرج من هنا، ونزل إلى السجن، وجاب الأقبية، وخيَّم صمت عميق على كل مكان دخله".
قال علي: "ليس غريباً أن يرى الإنسان كوابيس في تلك الزنزانات يا آغا. لنصل إلى معسكرنا كي نداوي جراحكم، وتأكلوا بعض اللقيمات لتستردوا قوتكم".
قال الريّس مصطفى هذه المرة: "لا. لقد تحقق حلمه هذه المرة أيضاً يا علي حيدر".
تحدث علي وقد أشرق وجهه الباسم كالنجوم: "ما الذي تقوله يا آغا؟ نظفوا أنفسكم أولاً، ثم اشربوا حساء ساخناً وستستردون قدرتكم على التفكير جيّداً".
قال الريّس مصطفى: "هذا يكفي". وتوقف هو وإسماعيل، وكذلك فعل الأسرى الآخرون، وكانوا سبعة أشخاص بالضبط.
رفع علي رأسه بخوف ودهشة، ونظر إلى الأمام. كانوا على بُعد عشرين متراً عن برج السور ذي الزاوية القائمة. اعتقد علي أن هناك وحدة بيزنطية أو كميناً في طريقهم. ولكن، لم يستطع أن يرى شيئاً تحت ضوء المشاعل الشاحب المنعكس من الأبراج.

قال الريّس مصطفى: "علي، اسمعني جيداً الآن. عليك أن تتماسك يا بني".
فجأة، بدأ قلب علي ينبض بسرعة، والتفت بهدوء ونظر إلى رئيسه.
حاول الريّس مصطفى أن يشرح له همساً: "اسمع يا علي، نحن مرضى يا بني. لو تمكّنت من الوصول إلينا قبل يومين لكان من الممكن أن نعيش. ولكن، الآن... لم يعد هذا ممكناً الآن... نحن وهؤلاء الإخوة الذين تراهم خلفنا مرضى. في الحقيقة، كانت نيتنا أن نخرج من الزنزانة بهذا الشكل، ونجوب في المدينة. أي إننا فكرنا أن نفعل بهم ما فعلوه بنا. ولكن، كُتب لنا الطريق إلى هنا فقط".
"أي مرض هذا؟! لم أفهم شيئاً يا ريسي. لنصل إلى المعسكر وسنتكلم هناك".
أطرق الريّس مصطفى برأسه: "نحن لن نعود، ستعود أنت والبيلجكي فقط. لم يستطع أحد باستثناء البيلجكي وبضعة أشخاص آخرين بنياتهم قوية مثله مقاومةَ هذا المرض. الأصح، لم تظهر عليهم حتى الآن أي أعراض. اللهم اجعل عاقبتهم سليمة".
كان علي يقف بصمت ومن دون القيام بأيّ حركة وكأن ماء مغلياً قد صُب على رأسه، وربما توقف قلبه عن الخفقان. ولم يعد يشعر بثقل البيلجكي الذي كان يحمله على ظهره.
"رموا قبل ثلاثة أيام عدة جثث في زنزانتنا؛ جثث مسودة ومنتفخة؛ جثث على أذرعها وسيقانها وجذوعها انتفاخات سوداء...".
تمتم علي: "رموا أشخاصاً مصابين بالطاعون!".
"اسمع يا بني، لقد فعلوا هذا لتحقيق هدف في رؤوسهم المريضة. قديماً، رمى البرابرة جثثَ مصابين بالطاعون على مدينة يحاصرونها باستعمال المنجنيقات. كلنا نعرف أن الجيش التتري الذي حاصر مركزاً تجارياً جنوياً في القرم عام 1347 رمى جثثاً مصابة بالطاعون إلى المدينة بواسطة المنجنيقات، ونقل الهاربون من المدينة المرض إلى أوروبا كلها. إنّ ما يُميّز هذا المرض هو قدرته على الانتشار بسرعة، فهو يحتلّ المدينة قبل احتلال جيش العدو لها. وكان البيزنطيون سيلقون جثثنا بالمنجنيقات إلى معسكر الجيش بعد أن نموت من جرّاء المرض...".
"لا يمكن أن تصل الدناءة إلى هذه الدرجة...".
قال الريّس مصطفى محافظاً على نبرة صوته: "يمكن... يمكن يا بني. اليائس يفعل أي شيء. قرروا أن يجعلوا اللعبة خسيسة بهذا الشكل".
"إذن أنا لن أغادر أيضاً يا آغا. ثم ماذا لو كنت قد أصبتُ بالمرض مثل

بقية الجنود الذين جاءوا إليكم؟".
قال إسماعيل: "هذا ممكن. ولكنني لا أعتقد أنك أصبت بالمرض لأنك لم تبق هناك كثيراً، ولم تتواصل مع أحد. على الرغم من هذا، عندما تصل إلى المعسكر احرق ثيابك واغتسل جيداً. وإذا ارتفعت حرارتك خلال يومين، وشعرت بألم في رأسك وظهرك، غادر معسكر الجيش، وجد طريقة لإنهاء هذا الأمر يا بني. أبلغ رؤساءك بالأمر بسرعة. على الأقل، يجب أن يكون القادة على علم بالخطة السافلة هذه".
بذل علي مجهوداً ليقول شيئاً، وحين تكلم كان صوته يرتجف: "وأنتم يا آغا. ماذا ستفعلون؟".
"سنرتدي ملابس البيزنطيين ونحاول التسلل إلى المدينة".
قال علي: "ولكن، يوجد في المدينة مدنيون أبرياء. هناك نساء وأطفال يا آغا، والوباء يمكن أن يؤذيهم هم في البداية".
ضحك إسماعيل بصوت منخفض وقال: "هذا هو علي حيدر الذي نعرفه. فهو دائماً جريء وعادل".
قال الريّس مصطفى: "لا تشغل بالك بما سيحصل لاحقاً يا بني. حاول أن تخرج من هنا سالماً فقط. وعلى الرغم من هذا، نحن مسروران لأننا تمكنا من رؤيتك للمرة الأخيرة يا بني. أنت بالنسبة إلي كابني. نحن نسامحك، وأنت سامحنا".
شعر علي وكأن أنفاسه قد انقطعت بتأثير نبال غرزت في بطنه فجأة، وكان يتوقع أن تسوء حاله أكثر إن تنفس أو تحرك أدنى حركة لأن رؤوس النبال الفولاذية ستمزق أحشاءه ببطء، وسيشعر بألم لا يوصف. غير أنه تمكّن من القول بطريقة ما: "سامحتكم!".
تمتم الريّس مصطفى بهدوء: "تابع طريقك، وإذا رآك أحد وأنت ذاهب فنحن سنقوم بما يلزم. بيّض الله وجهك يا سبعي".
سرعان ما تجمّعت الدموع في عيني علي، ولم يستطع كبحها فتسللت إلى خدّيه. كيف يذهب؟ كيف يتركهم خلفه. كان الريّس مصطفى وإسماعيل والآخرون يبتسمون. فكّر في أنه يحلم، وأن ما سمعه ليس حقيقيًّا... ليت هذا يكون حلماً ويبقى في زاوية نائية. أدار علي حيدر ظهره، وبدأ يسير وهو يبكي بصمت. لم يحاول أحد أن يوقفه أو يضربه، غير أنّه لم يفرح لهذا، بل على العكس من ذلك تعمق إحساسه بالانكسار.

II

19-24 أيار 1453

على الرغم من ملء ثغرات الخندق كلها، وتحرّك أبراج الحصار وحملة أعمدة خلع الأبواب من دون مشكلة تقريباً، إلاّ أن الدفاع الحازم لم يسمح للقوات التركية بالعبور، وإن كان قد ضعف كثيراً. ولكن برج الحصار المصنوع مؤخراً أدهش من رآه حقيقة. فقد كان البرج الذي ظهر أمام باب هاغيوس رومانوس مع انبلاج فجر صبيحة التاسع عشر من أيار أفظع الأبراج المصنوعة حتى ذلك الوقت. فبدا الأمر كما لو أنّ هيبة جيوش روما المظفرة توشك على الاندثار بسبب ذلك البرج وحده الذي كان بمثابة سهم سام غُرز في القلوب المتعبة القابعة خلف الأسوار، أو دلو ماء قريب من درجة التجمد يُلقى على الوجوه الناعسة. حتى إنّ اللون الزهري للشفق لم يمحُ جو الشؤم الذي حلّ عليهم.

كانت الجهة الخارجية للبرج البالغة حوالى عشرين متراً مغطاة بجلود حيوانات ولوحات معدنية، وقد تمّت تغطيتها بطبقة أخرى من القصب الأخضر المطلي بمزيج من الزيت والروث. أمّا القسم الأوسط فكان يحتوي على فتحات وسلالم من أجل إرسال العتاد والذخائر إلى الطابقين الآخرين. وقد وُضع ركام من الأنقاض والحجارة خلف فتحات ذات أغطية من أجل ردم بعض أقسام الخندق التي ما زالت تشكل عائقاً.

وكان مشروع محمد خان هذا مثل باقي أسلحة الجيش العثماني التي تحقق له التفوق النفسي. لم يكن شيئاً لم ير من قبل بالتأكيد. إذ إنّ أبراج الحصار سلاح هجومي شائع في حروب القلاع في العصور الوسطى، ولكن لم يسبق لأحد أن رأى برجاً كهذا الذي رسمه محمد خان، وأمر بصنعه خلال ليلة واحدة. كانت السهام النارية ونيران البنادق تمطرهم من الجهات كافة، فيما حملة السلالم وأعمدة خلع الأبواب المتقدمون من جهتين يحافظون على نجاحهم.

بدأ البرج المدفوع من الداخل بالاقتراب من السور خطوة تلو أخرى. كان من الممكن أن يصل إلى السور قبل هبوط المساء. وفي الوقت نفسه، كان ثمة بضعة أبراج أخرى أقل عظمة تتقدم نحو الأسوار. ورغم انهيار معنويات البيزنطيين المرابطين في الأبراج؛ ازداد إعجابهم بعدوّهم.

ولكن هناك أمر لم يحتط له محمد خان؛ فالقوّة التي تجعل قسطنطين يصمد هي قوة اليأس. وقد أدرك الإمبراطور منذ بداية الطريق الهوة التي يواجهها، وقيّم الاحتمالات، وأدرك أنه ليست لديه فرصة. لم يكن سوى

صاحب أمانة جريء يحاول الحفاظ على بقايا إمبراطورية عظيمة.
سيعرض على الإمبراطور إخلاء المدينة من المدنيين قريباً، ويعرف بأنه سيوافق على هذا. لم يوافقوا حتى الآن على إرسال عائلاتهم إلى المجهول، ولكن لم يبق أمامهم حلّ آخر.
العرض الأكثر تأثيراً لإخراج هذا البرج من الخدمة جاء من الجنرال جيوستنياني أيضاً. فقد كانوا سيصمدون حتى الليل، ويبقون على البرج بعيدين قدر الإمكان، وعندما يحل الليل سيشعلون البرج بواسطة براميل بارود يحضرونها، ويدحرجونها إلى أسفله. وبعدئذ سيشنون هجوماً مفاجئاً على المواقع التركية. سيدمرون أبراج الحصار، ويقضون على حملة أعمدة خلع الأبواب، ويتقدمون نحو الصفوف الأمامية، ويخيفون العدو. كانت هذه خطة جنونية، ولكنها حظيت بالموافقة لأن العقل الذي أنتجها هو عقل جيوستنياني.
عمل حفارو الأنفاق الصرب بشكل مستمر أيضاً. لم يكن هدفهم دخول المدينة، بل وضع المتفجرات تحت الأسوار لتدميرها. فهذه الخطة يمكن تحقيقها بسرعة أكبر، وتخفف من الخسارة بالأرواح في الوقت نفسه. تحوّل المكان أمام القسطنطينية إلى جحور مناجذ بكل ما للكلمة من معنى. وهناك من قال إنه رأى هذه الأسوار تتماوج مثل راية بسبب تلك الحفريات. ولكن هذا الخبر تناقلته الألسن وليس هناك من يؤكده. بعد نجاح حفاري الأنفاق الأتراك بالخروج من وسط المدينة، انتشر خبر بأن جنوداً أتراكاً شوهدوا وهم يتجولون في شوارع المدينة، فهبّت ريحُ هلعٍ عاتية على المدينة، غير أن دوريات البحث كلها لم تجد أحداً.
الشائعة الأكثر غرابة التي انتشرت هي أن البعض شاهدوا حلزوناً ضخماً في ساحة الخيل ليلاً. أما القصص التي تدور عن الساحرات اللواتي تمت مشاهدتهن في فوروم آركاديوس والنيران البنفسجية والخضراء فدليل آخر على الرعب الذي يعيشه السكان.
حسب ألكسيوس كريتوفولوس نائب بطرك المنفى غريغوريوس فإن هذه الأمور كلها ناجمة عن عدم صدق الأدعية التي تدعى حتى الصباح، ووجود الجواسيس المنتشرين بينهم. ولو استطاع لطلب إخضاع الأشخاص المشتبه بهم من المرافقين الكاثوليك، للتعذيب، وبهذا يصفي الأرواح، ويحدد القلوب التي غدت مأوى للأسرار المظلمة. نعم، كانت هذه فكرة براقة جداً، ويجب أن يعرضها على الإمبراطور قريباً جداً. لا يمكن أن يقاوم الشيطان سوى القلوب المفعمة بالندم نتيجة الألم الفيزيائي.

كان ثمة طيش إيماني مدهش سرى في أزقة البيزنطيين الضيقة والرطبة. إذ بدأت طرائق لم تُر من قبل تنتشر بين أتباع المذاهب، وبدأ الناس باتباع عقائد قديمة ومنسية مجدداً، عقائد تعبر عن المأزق النفسي واليأس اللذين يعاني منهما أبناء المدينة.

وكانت جماعة الأخوّة التي ظهرت على شاطئ الخليج، ويقودها فريق، وتجمعُ أنصاراً بسرعة مذهلة هي الأكثر غرابة وانحرافاً. فقد كانت تعتمد على كتاب نيكرونوميكون القديم الذي انتشر اسمه من أذن إلى أذن، ولا يوجد منه سوى عدد محدود من النسخ. يعود كتاب نيكرونوميكون إلى إحدى حضارات بلاد الرافدين. فقد وضع الكتاب في زمن مجهول يمني يدعى عبد الحضرة، وفتح نقاشاً حاداً حول وجوده؛ مثله مثل الدليل المبهم لطرق سرية كثيرة زالت في مستنقعات التاريخ المظلمة. يعتبر الأتباع أنهم كانوا مرتبطين لسنين طويلة بجماعة تؤمن بالخرافات والمحرمات، وتهبط نحو كيداروس على الخليج من أجل التعميد للانتقال إلى حياة أخرى. لا يعرف على وجه التأكيد ما إذا كانوا قد انتقلوا إلى حياة جديدة أم لا، ولكن الصحيح أنهم صاروا غرباء عن محيطهم.

حسب قائد الجماعة ألكساندروس ثيودوروس ميهاليس، إنّ سلطان الأتراك دجال العقيدة المسيحية القديمة. إنه حالة تجسّد الكائن الخبيث الذي سقط إلى الدنيا قبيل ولادة النجوم القريبة. والعالم الكاثوليكي المؤمن بأن "محمد" الثاني هو الدجال مستعد لمحاربته. وطبعاً إن مصدره الأهم في هذا الموضوع هو كتاب نيكرونوميكون الذي ترجمه إلى اليونانية ثيودوروس فيليتاس عام 950 واسمه الأصلي: "العزف".

أما في قداس كنيسة بانتوكراتور الذي يحضره جورجيوس شولاريوس غينياديوس فيحكى عن كتاب يدعى De Vermis Mysteriis. حسب ميهاليس، إنّ الحلزون الذي شوهد في ساحة الخيل دليل مباشر على هذا الكتاب المنحوس. وإذا كان غينياديوس قد منع قراءة الكتاب، فإنه من الواضح أن بعض المنتسبين إلى الجماعة يبدون تعلقاً كبيراً بهذا الكتاب.

تاه الناس وسط هذا التطرف كله، ولم يعرفوا بماذا سيؤمنون، وكيف، وفُرض عليهم الكفاح ضد نوع من اليأس. الجميع تقريباً يحملون أيقونات صغيرة، أو صورة أو منحوتة من الحجر للصليب وللمسيح ويدعون في ساعات اليوم كلها.

* * *

حسب الخطة، أرسلت براميل البارود المحضرة بعد إشعال فتائلها في ظلام

الليل نحو برج الحصار الذي يقع خلف الخندق. أُرسِل بعض الجنود وراء البراميل ليراقبوها، وبعد أن رافقوها مسافة كافية أطلقوها، وتأملوها بنظرات فضولية لفترة، ثم قفلوا راجعين ركضاً.

سُمعت انفجارات قوية مزقت صمت الليل وشوهدت النيران الحمراء. في الحقيقة، إن ما عيش لم يكن سوى درجة لون جديدة في لوحة القيامة الحمراء لهذه المدينة التي يتخذ فيها الدم والموت المؤلم حالة يومية. وخلال لحظة، كان برج الحصار موجوداً، وبعدها اختفى. وشوهد الحراس الذين كانوا يقفون عليها وهم يُقذفون في الهواء على بعد أمتار. وفي اللحظة نفسها، حققت الوحدات البيزنطية المهاجمة نجاحاً غير متوقع، وقضت على حملة أعمدة خلع الأبواب وأبراج الحصار كلهم تقريباً، أو دمّرت تلك الأعمدة إلى درجة لم تعد فيها قابلة للاستخدام.

بينما كان محمد خان يشاهد كل هذا من أمام خيمته بغضب، أمر وزراءه المجاورين له بعدم استخدام أبراج الحصار بعد الآن في الهجوم لأنها ضياع للوقت، وبأن تستمر عمليات القصف المدفعي من دون انقطاع حتى تدكّ الأسوار وتسوّى بالأرض. فهم لا يعانون من مشكلة بالعتاد الذي يكاد ينفد عند العدو. أما حفارو الأنفاق فسيستمرون بعملياتهم التخريبية مهما كلف الأمر. شعر محمد أن النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى.

وفي 24 أيار، لم يتحقق أي تقدم، ولكن المدينة كانت تذوب قطرة قطرة. علم الإمبراطور في ذلك الصباح أن وحدة صغيرة من بحريته ذات الحظوة كان قد مضى عليها ما يزيد عن شهر في البحر المتوسط قد تسللت من وسط البحرية التركية ودخلت الخليج فهرع إلى الميناء ليستقبلها بنفسه. ولكن الأخبار التي تلقاها قضت على آخر بقايا أمل لديه؛ إذ لم تكن هناك أي مساعدة قريبة في الأفق.

III

25 أيار 1453

تقول: "يجب أن يكون قد فهم". لعل هذا الضيق الذي تشعر به بجسدك ونفسك يُنقص عشر سنوات من حياتك. ولكنه كرّر الجواب نفسه لإسماعيل بيك الذي أرسلته إليه بناء على إلحاح خليل الكبير: "هذه المدينة ليست لنا، إنها لأولادنا، نحن مجرد أمناء عليها...". أيعقل أنه يتخبط في هذه الفكرة حتى الآن؟

في الحقيقة، أنت واثق تماماً أنّك ستتخذ قراراً مشابهاً لو كنت مكان قسطنطين. فأنت تعرف أن الدنيا لا تدوم لأحد، ويمكن أن تنقلب الأوضاع في أي لحظة. أنت منتبه إلى أنك لن تستطيع التغلب على عزرائيل مهما فعلت. ويجب أن يكون هذا سبب احترامك وإعجابك بذاك الرجل. تقول: "سيحدث ما قدّره الله". وأنت محق في هذا.

ولكنك الآن تشاهد سماء الربيع الدافئة، وعقلك مشغول بالإشارات المخيفة التي وصلت إلى آذان جواسيسك فيما أنت تستجمع قوتك من أجل العمل على التخطيط بعد قليل. وعرفت كيف لعب خسوف القمر الذي حدث في الليلة الفائتة دوراً بإدخال أهل المدينة بمزيد من تعقيدات الخرافات التي يؤمنون بها. وصلك وسط كل تلك الشائعات المشابهة أن ما قاد البيزنطيين إلى حافة الهزيمة هو سقوط أقدس أيقوناتهم في الطين، وعدم التمكن من استخراجها خلال فترة طويلة. عليك ألاّ تدهش من أن يكون سقوط مدينة عظيمة تعيش أيامها الأخيرة مدهشاً إلى هذه الدرجة.

يمضي الزمن، ويفقد ما عيش أهميته على صفحات كتب التاريخ المصفرّة. ولكنْ، لا بد من ظهور مؤرخين أذكياء يستطيعون فهم حبكما وآلامكما أنتما معاً؛ السلطان والإمبراطور. سيحاول الشعراء أن ينظموا قصائد تتناول صراعك وقصص بطولاتك. وعلى هؤلاء أن ينقلوا للأجيال التي ستقول إنه لا توجد مدينة تستحق أن تراق من أجلها قطرة دم اضطرارك إلى فعل ذلك. لعل الذين سيقولون إنك قاتل سيفهمون حينئذ أنك لم تلاحق قضية دنيوية فقط.

27 أيار 1453

لم يكن علي حيدر يختلف عن الأموات خلال الأسبوعين الأخيرين؛ إذ إنّ فقدانه الريّس مصطفى يعني فقدانه الشخص الوحيد الذي يعني له الكثير والذي يعتبره أباه. ماذا فعلوا يا ترى؟ هل تمكنوا من تحقيق ما فكروا فيه؟ ولكن، لم تأتِ أيّ أخبار عن انتشار الطاعون في المدينة. لا بدّ أنه

تم إلقاء القبض عليهم في الهجوم الأخير الفظيع وقتلهم.
كان علي يتكلم قليلاً، ويأكل قليلاً، وينام قليلاً، ويفكر دائماً. وكان ذلك الألم الذي انفجر في قلبه مع كل نفس يتنشّقه، وانتقال الظلام من روحه إلى أعضائه يسبّبان له ضغطاً مدهشاً على كل ذرة من أعضائه. كان يعرف أن ذلك الاضطراب الماكر موجود دائماً في داخله، ولطالما نجح بالتغطية عليه.
في الحقيقة، كانت تلك الأيام أيام تساؤله حول ما إذا كان موته أو موت أحبائه مخيفاً له أكثر. قضى معظم عمره في أمكنة مظلمة وكأنّه ميت، ولكنه لم يحسب أن يكون الموت محزناً جداً إلى هذه الدرجة، وأن يعلق الحزن على من تحب كالدبق عندما يطاله الموت.
كان ينفذ المهام الموكلة إليه من دون اعتراض أو استفسار، ويهاجم العدوّ تحت مطر الرماح وطلقات المدفعية من دون أن يحمي نفسه نهائياً. كان يخاف من الحالة التي وصل إليها أصدقاؤه الذين غدوا جلداً على عظم بعد أن كانوا قبل فترة قصيرة مهيبين ومندفعين إلى أقصى درجة، ومحببين كالأطفال. لذا، غدا شخصاً تخلى عن كل شيء، وهرب معنى الحياة من بين يديه. وإذا لم يتجاوز هذه الحال فإما أن يقضي نحبه بسبب المأساة التي يعيشها، أو سيُنهي حياته بيده. كان أشبه بكلب ضعيف وجائع يتجول تحت مطر الربيع. فقد غار خداه واسودّا، ولم يعد وجهه يختلف عن الجمجمة. وعندما يجتمع مع حسين الإزميتي بطوله الفارع وشكله الغريب يصبحان ثنائياً يثير القشعريرة.
أما خيري البيلجكي فعلى عكسه تماماً، إذ سرعان ما تمالك نفسه، وأخذ على عاتقه مسؤولية العناية بصديقه. ولكن ما يمكنه فعله محدود؛ إذ لا يمكن فعل شيء لمن لا يتكلم، ولا يتقبل ألمه، وبالتالي لا يوافق على مشاركته مع أحد.
صباح السابع والعشرين من أيار، انتهى وقف إطلاق النار الذي بدأ في الخامس والعشرين منه من أجل إجراء المباحثات وجمع الجثث. وبدخول المدافع الجديدة حيّز الخدمة بدأ قصف كثيف لم يُشهد مثله من قبل. كان الجنود جميعاً صائمين بأمر من سلطان السلاطين، لذا لم يشن الجيش العثماني هجوماً في ذلك اليوم. قضى الجنود يومهم وهم يجمعون الأغصان وحطام الأشجار من الغابات والكروم المجاورة. تناولوا إفطارهم معاً مساء، وصلّوا جماعة. وعندما أظلم الليل تماماً، استعد كل جندي وراء ركام حطب جمعه من أجل إشعاله. يمكنهم تخيّل عظمة المشهد الذي سيبدو من

المدينة عند إشعال النار.

* * *

تخلى الإمبراطور عن فكرة إجلاء المدنيين؛ على الرغم من إدراكه عدم وجود مخرج. إذ كان أركانه يقولون له إنه من غير الممكن نقل الناس إلى أوروبا بأمان طالما أن الحرب مستمرة. فقبل بدء المعركة غادرت سفن مليئة بالمدنيين، وحسب الأخبار التي وصلت، نجح معظمها بالتملص من القراصنة، وبالوصول إلى مختلف الدول الأوروبية بسلام.

البحار ليست أكثر أمناً من هذه المدينة؛ إذ يخوض فيها أسطولا البلدين حرباً شرسة. فبالنسبة للقراصنة الذين صاروا يداهمون التجمعات السكنية في النهار، إن سفينتين مليئتين بالنساء والأطفال بمثابة بضاعة لا مثيل لها تباع في سوق النخاسة.

كان الإمبراطور يجول في المكان بطمأنينة المتوكلين على الله الذين ينتظرون قدرهم. قبل يومين رد البعثة التي مثلت أمامه من أجل دعوته للاستسلام، وقطع ارتباطه مع شعبه تماماً.

انتهت العداوات والمعارضات في المدينة كلها، ونُسيت الصراعات، ووصل الناس نفسياً إلى حالة استسلام لنهايتهم المقتربة جداً. فتُركت الأعمال اليومية تماماً، وأغلق الناس على أنفسهم أبواب الكنائس الكبيرة والصغيرة، وصاروا مقتنعين بالوجبة اليومية المؤلفة من حساء الأرز أو القمح والخبز المفلطح.

كانت الريح تعبث بالخندق الذي كان يرهب الأعداء في زمن ما، وصار العثمانيون قادرين على تسيير أبراج الحصار والمدفعية فوقه بسهولة. أصبح عدد الجنود الذي كان قبل سبعة أسابيع ثمانية آلاف أربعةَ آلاف فقط، وحشد جيوستنياني نصفهم في وادي ليكوس، والغالبية العظمى في المنطقة الأكثر ضعفاً بين هاغيوس رومانوس وخاريسيوس. وكان الإمبراطور مع قواته الخاصة كلها متواجدين هناك لتقديم الدعم لجيوستنياني الذي حشد حوالى ألف جندي عند الأسوار المقابلة لقصر بلاخرنائي. ولكن، ماذا عن الأقسام الأخرى؟ كان الدفاع في منطقة أسوار مرمرة يحطّم الأفئدة؛ إذ لم يوضع في كل برج سوى رامي سهام واحد، وقاذف بنادق أو سهام نارية. وترك تقديم الدعم للشماسين والمدنيين الذين ليست لديهم أي خبرة حربية. وبالتأكيد كانوا يعتمدون كثيراً على تيارات مرمرة القوية التي تؤمن دفاعاً طبيعياً. أما السور المواجه للخليج، فقد كان هناك حوالى خمسمئة جندي للدفاع عنه. لا بدّ أن صمودهم حتى اليوم رغم كل ذلك بفضل مساعدة الرب.

رأوا في تلك الليلة النار التي أشعلت في مدينة الخيام العثمانية مقابل الأسوار البرية، وقد نزل عدد جنودها إلى ثمانين ألفاً. أنسى ذلك المنظر الكاثوليك والأرثوذكس لأول مرة عداوتهم نهائياً، وبدأوا يتضرّعون معاً. وفجأة تحوّل المدافعون إلى ما يشبه جسماً واحداً. لم يبالِ الناس المجتمعون أمام أياصوفيا بالمطر الذي انهمر ليلاً، وظلّوا يرددون الأناشيد الدينية والأدعية حتى الصباح. كانت أدعية رجال الدين الأرثوذكس والكاثوليك المشتركة تطلب مساعدة المسيح والأم مريم والقديسين. وجالت الأيقونات المقدسة بين الناس الذين وقع بعضهم فاقدي الوعي أو منهكين وهم يسكبون الدموع، أو يطلقون الصيحات. حتى إن هناك من لم تحتمل قلوبهم الضعيفة ذلك الضغط.

قال جيوستنياني وهو ينظر إلى نيران الترك الهائلة: "لسنا في وضع يائس إلى درجة كبيرة. محمد يستعد للهجوم الأخير، ومن المحتمل أن يشن هذا الهجوم من مختلف الأماكن. إذا صمدنا في هذا أيضاً...".
قال الإمبراطور بمرارة: "إذا صمدنا في هذا أيضاً فسيُفك الحصار. ولكن، ما أكثرهم! انظر يا جنرال. لا بدّ أن عددهم قد تجاوز الثمانين ألفاً الذين حسبناهم سابقاً. بالتأكيد جاءتهم إمدادات من الأناضول وتراكيا".
"هذه مجرد خدعة قام بها محمد لكي يحطّم معنوياتنا يا سيدي. من المحتمل أن يكون قد أصدر أمراً لكل جندي بإشعال النار".
قال الإمبراطور: "هذا ممكن. ولكن، ماذا لو لم يكن الأمر كذلك؟".
دقق الجنرال النظر إلى تعابير وجه قسطنطين الغريبة. لِمَ يبدو الرجل هكذا؟!
قال بصوت مريح قدر الإمكان: "لقد نجحنا يا صاحب الجلالة بالصمود طوال هذا الوقت أمام أقوى جيوش العصر وأفضلها تسليحاً، وأنا واثق أننا نستطيع صد هجومٍ آخر". ثم فكر في الألم الذي يشعر به في مختلف أنحاء جسده رغم جهود الأطباء.
التفت قسطنطين إلى الجنرال وقد رسم على وجهه ابتسامة وقال: "كلماتي حول فكهم الحصار ليست رأيي الشخصي".
في تلك اللحظة، انتبه جيوستنياني للمرة الأولى تحت ضوء بريق النار إلى وجه الإمبراطور الذي يبدو عليه التعب الجسدي بشكل واضح. لقد ضعفَ قسطنطين وانهار، وصار يبدو وكأنه في التاسعة والستين من عمره، وليس في التاسعة والأربعين. عندما ينظر إليه أحياناً، يجد خطوط وجهه قد تعمقت، فصار شبيهاً بأولئك الذين تصوّرهم اللوحات على عتبة عالم الموتى. من المستحيل فهم كيفية تمكن جسده النحيل من الانتصاب حتى الآن. ولكن الأكثر أهمية من كل ذلك هو عيناه، إذ لم تعد عيناه تنظران إلى هذه الدنيا. فكر جيوستنياني في سرّه: "الإمبراطور يحتضر".
تابع الإمبراطور: "إذا لم ينجح هذه المرة فسيضطر لفك الحصار. فقد وصل الغليان داخل الجيش إلى الذروة. وسيبدأ التمرد من جنوده الإنكشاريين، ثم سينتشر إلى عموم الجيش. لا يستطيع محمد مقاومة هذا. لا يمكن لأي قائد الوقوف في وجه جيشه المتمرد. هذه معلومات موثوقة".
"هذا يعني أنه لا يزال لدينا جواسيس في صفوفه".
هز قسطنطين رأسه بشكل خفيف: "أجل، رغم أن محمداً شاب ذكي إلى

درجة معرفته أنه يجب عليه ألاّ يثق بأحد. يبدو أنه يفضل الانتظار حالياً".
ضحك الجنرال: "وأنتم أيها الإمبراطور؟ هل يمكنكم الثقة بمن حولكم؟".
"أنا في هذه الحال لأنني وثقت بالآخرين يا جيوستنياني، أما محمد فهو على وشك أن ينجح لأنه لا يثق بأحد".
غادر الإمبراطور برفقة الجندي الذي أبلغه أن وحدة الحراس بانتظاره، وانطلق باتجاه أياصوفيا. أما جيوستنياني فبقي مكانه لفترة وهو يشاهد الجيش التركي. ما زال بإمكانه أن يفعل شيئاً، إنه واثق. يمكنه أن يفعل...
28 أيار 1453
أعاد محمد النظر بخطته الجديدة مع أركانه، وأبلغهم بقراره الأخير: "سيتم التحرك من جميع المواقع التي حاصرناها ولم نهاجمها من قبل. إذا نجحنا هذه المرة فسنشتت العدو كثيراً بفضل هذا الهجوم. إذ سيحتاجون إلى عدد كبير من الجنود لأنهم لن يستطيعوا إغلاق الفتحات في الجدارين بشكل متتابع، ولكنهم لن يجدوا العدد الكافي من الجنود، وبالتالي لن يستطيعوا الصمود بإذن الله".
سُمعت الأصوات مرددة: "إن شاء الله".
"أيها الباشوات والسادة والأغوات ورفاق السلاح في حرب القسطنطينية هذه، جمعتكم هنا لأطلب منكم تضحية وجرأة في الهجوم العام الذي قررنا شنّه؛ أكثر بكثير ممّا قدمتموه حتى الآن. ستسيطرون على مدينة القسطنطينية التي ذاعت شهرتها في الدنيا كلها، وستُذكرون كأبطال مجد وشرف حيثما يذكر اسم القسطنطينية. بعد أن نستولي على هذه المدينة التي كانت تحضر لنا الفخاخ دائماً، يمكنكم أن تعيشوا بأمان، وأن تتركوا أبوابكم مفتوحة.
أنهكنا جدران القلعة كثيراً؛ إلى درجة أنه صار بإمكاننا أن نشير إلى سهولة الهجوم هذه المرة. ولكن على الرغم من هذا لا تنتظروا فتحاً سهلاً للمدينة إلى درجة كبيرة؛ إذ إن هناك مخاطر عديدة بانتظار الشجعان الذين سيهاجمون جدران القلعة الخربة. ستتغلب مهارتنا وجرأتنا على كل شيء. وستهب رياح النصر معنا. وستكون القسطنطينية لنا. تسلحوا بشجاعتكم كلها، وحمِّسوا جنودكم ليحاربوا باندفاع. اشرحوا لهم أن الحرب ترتبط بثلاثة أمور: التفاؤل، والشرف، والعناد. ضعوا أمام أعينكم سمو الهدف الذي تخدمونه. سأكون معكم، وسنهاجم معاً، وسأرى كيف يقوم كل شخص بمهمته. الآن، انصرفوا وتناولوا طعامكم في خيامكم وارتاحوا. أبلغوا

جنودكم بأوامري. الأمر لكم بعد إطلاق أبواق الهجوم. أحييكم أيها القادة!".
تفرّق الوزراء والباشوات بصمت، وذهب كل منهم إلى الوحدات التي يقودها، وطلبوا من الجنود أن يستعدوا من أجل تشريف السلطان.

* * *

كان قسطنطين يجوب المواقع بهدوء، مبدّداً هواء الشؤم الذي راح يلف المدينة. وخيّم على المكان جوّ ربيعيّ رائع؛ إذ تمايلت أشجار الصنوبر في الساحات الحراجية، وتسابقت الفراشات والنحل في الطيران من زهرة إلى زهرة. وفيما كانت الريح الدافئة تداعب الأوراق الخضراء بهدوء راحت تهمس للطبيعة مبشّرة إياها بالولادة الجديدة.
ورغم أن روحه كانت في الحضيض كحال خربة هذه المدينة، تنشّق روائح الزهر الزكية التي حملتها الرياح المتملصة من روائح الحرائق والجثث المنبعثة من المدينة. بعد ذلك، شعر أن النعاس قد سيطر عليه؛ إنه نعاس يصل إلى درجة فقدان الوعي؛ نعاس بعمق البحار المظلمة. وحاول أن يخفي تثاؤبه.
اكتملت التحضيرات كافة. غدا قصف المدافع الذي لم يهدأ منذ الصباح هديراً بعيداً في أذنيه. وقرابة المساء، صعد مع كبير وزرائه سفرانتزيس إلى برج كاليغاريا المطل على الخليج، وشاهدا المناورات التي يجريها العدو بشكل مستمر على وقع الموسيقى التي تعزفها فرقة المهتران. تمكّنوا من إصلاح بعض الأماكن في السور رغم كل المداخلات. وبسبب القصف غير المتوقف، أنشئت - بمبادرة من جيوستنياني - سدودٌ من الأنقاض وأغصان الأشجار خلف الصدوع التسعة التي فتحت في الجدارين معاً. يمكنهم أن يخنقوا الجنود الأتراك في تلك الممرات الضيقة، ويجبروهم على التراجع. كان بإمكانه رؤية الأسطول التركي منتشراً على طول الخليج ومرمرة. أما الأسطول البيزنطي فكان في حالة استعداد.
قال سفرانتزيس ذات لحظة: "قبل سنتين بالضبط، وفي ليلة مثل هذه في الثامن والعشرين من أيار، شاهدت حلماً غريباً فيما كنت نائماً في سفينتي أمام أسوار مدينة صغيرة على شاطئ البحر الأسود يا سيدي".
نظر الإمبراطور إلى وجه صديقه القديم المخلص الذي اختفت خطوطه في الظلام، وقال: "أنت تعرف أنني أحب سماع أحلامك. هيّا، فلترِوِ لي حلمك!".
"أخفيته عنكم إلى اليوم، ولكنني أرى أنه لم يعد هناك معنى لإخفائه أكثر من ذلك".
بدا له أن الإمبراطور قد استجمع قوته في الساعات الأخيرة. إذ كان وجهه

منارا مع اقتراب المعركة المنتظرة؛ وكأنه قد سما بكمال روحاني، فقال بصوت حيوي: "صار الكثير من الأمور اليوم لا يعني لي شيئاً يا صديقي القديم. حياتنا، وأحلامنا، وماضينا، أما مستقبلنا فهو حكاية وحده أصلاً".
تحدث سفرانتزيس بصوت مفعم بالعتب رغماً عنه: "لا تتكلموا هكذا يا سيدي. هذه المدينة وهذا الشعب مدينان لكم. ولقد فعلتم ما بوسعكم".
"كلنا فعلنا ما بوسعنا يا سفرانتزيس، كلنا فعلنا ذلك. أنا أسمعك يا صديقي".
"كانت ريح دافئة تهب على أزقة القسطنطينية، وبدت مدينتنا وكأنها مهجورة. لم تكن في حالة خراب، ولكن الوحدة تغلغلت في أحجارها القديمة، وترك وجه فرحها واندفاعها القديم مكانه لوجه الوحدة البارد. التقيتكم في أحد الأزقة المظلمة. كانت وحدتكم مثيرة للمشاعر إلى درجة لم أعرف معها ما يمكنني فعله. فقد كنتم وحدكم في أحد أزقّة مدينتكم القفرة في ليلة ربيعية جميلة... أردت أن أركض لأنكبّ على قدميكم، ولكنكم أمسكتموني من ذراعي، ورفعتموني، ونظرتم إلي مبتسمين... رأيت في تلك اللحظة وأنا أشعر بحزن شديد مزق قلبي أن عينيكما الشائختين كفيفتان، وأذنيكما مصابتان بالصمم، ولكنكم على الرغم من هذا عرفتموني. قبلتموني من جبهتي، وفي تلك اللحظة استيقظت. قفزت من قمرتي، وأمسكت بذراع القبطان الثاني الذي صادفته بقوة، وقلت له: لا تنس تاريخ اليوم!".
"برأيي، يا صديقي القديم سفرانتزيس، أنا لن أرى ضوء الشمس مرة أخرى. فعندما تشرق الشمس غداً على صباح ربيعي جديد، سيكون دمي قد اختلط بتراب مدينتي".
بدأ سفرانتزيس يبكي.
قال الإمبراطور: "لا، هذا ما أردته يا صديقي. هذه هي رغبتي".

قال حضرة آق شمس الدين: "أرسلت مراسلاً لطلب الإذن لمقابلتكم يا سلطاني، ولكنكم أدهشتموني بفراستكم وكأنكم على علم بالبشارة التي أحملها".

انحنى محمد ليقبّل يد أستاذه بوجه باسم، ولكن مربيه الشيخ سحب يده كما يفعل دائماً: "جئت لآخذ خير دعائكم وبركاتكم يا أستاذي، ولكنني أود سماع بشارتكم أولاً". وجلس على ركبته أمام أستاذه على الرغم من كونه مرتدياً الدرع.

تحدث آق شمس الدين بصوت مرتجف قليلاً: "قبل قليل غفوت. فجأة، بعد منتصف الليل بقليل رأيت مضيف الرسول (ص) في حلمي. أصبح مسروراً لأنه سينام في بلد مسلم. وبعد أن دعا لكم ولجنودكم، أبلغني أن القسطنطينية ستسقط في التاسع والعشرين من أيار، أي اليوم".

سأل محمد وهو يشعر برعشة تسري في مختلف أنحاء جسده: "هل حلمكم الرائع هذا بشارة إن شاء الله؟".

بتعبير يمنح الثقة العميقة قال الأستاذ الشيخ: "لا يعلم الغيب غير الله، ولكن البشارة حق بإذن الله يا سلطاني. بارك الله غزوتكم. سيكون كل علماء الدين والدراويش بدعائهم معكم ومع جنودكم. لا أخجلكم الله".

"آمين يا أستاذي. أنتم تعرفون بالتأكيد أنكم وهبتموني الدنيا كلها بهذه البشارة. سأعلن عنها فوراً، وسأطلب من المنادين أن يرفعوا أصواتهم وهم يرددون هذه البشارة بين صفوف الجيش كله لرفع معنويات الجنود وزيادة حماستهم".

"إنّ من يسعون إلى تأجيج الفتنة بحالة حركة ناشطة بين الجنود يا سلطاني. آمل أن تساعد هذه البشارة على جعل الجميع يضعون عقولهم في رؤوسهم".

"أنا أيضاً كنت بصدد تقديم عرض لكم يا أستاذي".

"فلتأمروني يا سلطاني".

"رجاء يا أستاذي، أتمنى أن تتواجدوا بين الجنود لفترة، وأن تكلموهم، وتنصحوهم. إنّ رؤيتهم لكم بينهم سترفع معنوياتهم".

قال حضرة آق شمس الدين: "هذا ما كنت أفكر فيه. وسآخذ معي الملا غوراني وآقبيق. سأتكلم مع الجنود لرفع مستوى جرأتهم وولائهم ورغبتهم بالشهادة".

"رضي عنك الله يا أستاذي".

"ورضي عنك أيضاً، وبيّض وجهك يا بني".
شعر محمد أمام أستاذه الذي خاطبه لأول مرة منذ أن كان طالباً لديه بعبارة "يا بني" بسعادة وانشراح لم يشعر بهما من قبل. بعد ذلك، طلب الإذن، وغادر خيمة أستاذه، وقاد حصانه برفقة حرسه الخاص لتفقد أحوال جنوده للمرة الأخيرة.

* * *

شعر علي حيدر بالراحة تجاه الشاب الشهم المدعو حسن وبالقرب منه فور تعرفه عليه. كان تمييزه عن الآخرين ممكناً بسهولة بعينيه السوداوين الضاحكتين، وجسمه القوي المانح للثقة، وقربه من القلب، ومواقفه الصادقة. كان من ألوباط التابعة لبورصة، وهو في مثل سنّ علي حيدر تقريباً، ولكن مكانته بين الجنود وشهرته كبيرتان جداً. فهو معروف بإقدامه في الحرب، ومهارته باستخدام السلاح، وليس هناك من سمع أو رأى أنه يتباهى بهذا الأمر. كما أنّه دائم الابتسام، ويتحدث عن فضل الله عليه الذي لا يستحقه باستمرار.
سيكون علي حيدر واحداً من ثلاثين نفراً يقاتلون معه. كان الشاب يشعر بأنه بدأ يتخلص من المشاعر التي أثقلت ضميره منذ أن تطوع بهذا الأمر. كان يشعر بنشوة لم يتذوقها من قبل، وصراحة مدهشة في نفسه؛ وكأن الريّس مصطفى وإسماعيل سليمان، ينتظرانه في مكان ما إلى الأمام قليلاً.
قال لنفسه: "أنت معي، على الرغم من هذا الدم والاضطراب كله أنت معي يا ريّس مصطفى. قبل مرور وقت طويل سيبدأ الجيشان بالقضاء على بعضهم. سيكون أحد الطرفين مسروراً ومنتصراً، وستُذكر أسماء الجنود المنتصرين الأبطال. ومهما قاتل المهزومون بشجاعة - حتى لو لفظوا أنفاسهم الأخيرة خلف متاريسهم - فسيدانون من قبل الغالبين؛ لأن الهزيمة تجلب الخجل معها دائماً".
عندما رأى حسن هذا الشاب الذي يبدو عليه الإنهاك والضعف، عرف سبب وصوله إلى هذه الحال. فقد قال له نوري المجنون حين توسط من أجله لكي يضمّه إلى وحدته إنه يمكنه أن يستفيد منه إلى أقصى حد. اهتم حسن بالشاب الحساس الجريء، وشاركه ألمه ببضع كلمات رقيقة.
وبينما كانوا يتناولون عشاءهم بنهم، حكى لهم حسن حكاية غريبة عن شتاء بعيد تجمد فيه البوسفور. حينها، كان هناك حوذي ينقل الخبز من أسكودار إلى القسطنطينية على عربة يجرّها الخيل فوق الجليد، فرأى سمكة كبيرة زرقاء في مكان يرقّ فيه الجليد كثيراً. اقتربت السمكة الجميلة من

طبقة الجليد وكأنها خارجة من الأحلام، ونظرت إلى الحوذي، وبقيت هناك لفترة وكأنها تريد أن تقول له شيئاً، ثم غاصت مبتعدة. ما الذي أرادت السمكة أن تقوله يا ترى؟ هل رغبت في إخباره أن الجليد سيرق أكثر إلى الأمام قليلاً إلى درجة أنه سينكسر بسهولة؟ أم إن لديها فضولاً كبيراً حيال المخلوق الذي بدأ ينهض على قدميه؟ ستبقى هذه الأسئلة من دون أجوبة لأنه لا وجود لها في الجزء القادم من الحكاية.

دبت القشعريرة بجسم علي حين تذكر السمكة العملاقة التي حكى له عنها الراهب المسن الذي التقاه قبل فترة قريبة، والتي كان وجهها كوجه إنسان. وحكى لهم حسن أيضاً عن درويش بقي على قيد الحياة بالتغذي على دم ذئب كان على وشك التجمد في إقليم شديد البرودة. وفي هذه الأثناء، ملأوا المزيد من الطاسات بالحساء واحتسوه. إنها المرّة الأولى منذ زمن التي يشعر فيها علي بالشبع وبالحيوية نتيجة الطاقة التي دبت في جسده.

اندمج الشاب مع المجموعة كثيراً مع مضي الساعات، ثم قال حسن: "كن بجانبي مباشرة يا علي في أثناء الهجوم".

وافق علي على ما قاله حسن. وفجأة، حدث أمر غريب. فقد ظهر بجانبهم شاب في مثل سنّهم وطلب طاساً من الحساء. فهموا مباشرة ما إن رأوا هيبته أنه مهم.

كان ذاك الشاب هو السلطان "محمد" خان الثاني ذاته. قفزوا من أماكنهم فوراً، وقبلوا طرف درعه المصنوعة من السلاسل، ونزلوا على ركبهم في حضرته. وبعد أن سألهم عن أحوالهم، وتمنى لهم الجرأة والنجاح، قال: "سأحكي لكم حكاية أنا أيضاً يا إخوتي. في أحد أيام العيد، كنت أسير في أحد دهاليز قصر أدرنة السرية مع أخي الأكبر أحمد، وكنا نتكلم عن كيفيّة قتلنا العدوّ الذي سيخرج أمامنا بالخنجر. وكان تنافسنا على الزواج من ابنة السلطان خلف جبل قاف هو ما جعل أحدنا يغار من الآخر. ذات لحظة وقفنا صامتين أمام فتحة تؤدي إلى الحديقة الخارجية، ونظرنا إلى الخارج. اعتقدنا حينها أننا ابتعدنا كثيراً، ومن الممكن أن نصادف البيزنطيين الظالمين أو جنود البابا، وشعرنا بالخوف. علماً أننا وصلنا إلى أحد المخارج السرية المؤدية إلى الحديقة الخارجية. لم يكن في الخارج جنود بيزنطيون أو رجال البابا، بل والدنا العزيز مراد الثاني خان. كان نائماً على فرشة رقيقة في ظل شجرة دردار، وكان وحده. تأملناه من دون أن ننبس بكلمة وكأننا فُتنّا. لم أفهم حينها كيف وصل والدي إلى مكان بعيد كذاك المكان وخفت قليلاً. كانت تلك هي المرة الأولى التي نرى فيها والدنا نائماً.

تحرك والدي فجأة ومد يده وكأنه يلتقط شيئاً. كان يحلم. تبادلنا أنا وأخي النظرات وابتسمنا، ولكننا شعرنا أننا ارتكبنا خطأ، فاستدرنا لكي نعود. وفي تلك اللحظة ضحك والدي. اعتقدنا بداية أنه رآنا، وشعرنا بالخجل والخوف كثيراً. لكن نظرة عابرة إليه كانت كافية لنفهم أنه لا يزال نائماً. كان والدي يضحك في نومه. قال أخي حينها: والدي يسيطر على العالم. إنه يجعل العالم كلّه يركع أمامه، لهذا السبب يضحك. لعل الأمر هكذا فعلاً. في تلك اللحظة، سيطر عليّ شعور بأن الحياة كلها عبارة عن حلم. وحتى الآن يبدو لي أن كل ما يعاش عبارة عن حلم يا إخوتي، كله حلم...".

صمت محمد لفترة، وصمتت الجبال والصخور معه، وكذلك نسيم الصيف الذي يحمل أحلاماً جميلة مع رائحة ألف زهرة وزهرة. وبعد قليل، رفع رأسه وهو يبتسم وقال: "ولكنه حلم نهايته جميلة".

جمع قسطنطين قادته العسكريين للمرة الأخيرة قبل منتصف الليل بنصف ساعة، وشكر الأجانب على التضحيات التي قدموها وخاصة جيوستنياني.

"الآن، جهِّزوا أنفسكم لنكتب أسماءنا بأحرف من ذهب في التاريخ، ولندافع عن مدينتنا للمرة الأخيرة لأن العدو مضطر لفك الحصار إذا لم ينجح هذه المرة أيضاً. صدقوني، لن يستطيع أحد القيام بهذا أفضل منكم. ليس ثمة تراجع أو استسلام في قانون آبائنا الإسبارطيين؛ فقد كانوا يحاربون بكرامة ونبل حتى آخر رجل وآخر رمق. وها أنتم تخطون خطوتكم الأخيرة في كفاحكم الكريم على عتبة نصر كبير بطريقة تشرّف الروميين والإسبارطيين. النصر في متناول أيديكم يا إخوتي. لذا، مدوا أيديكم وخذوه... مدوها وخذوه...".

كانت كلمات قسطنطين هذه ذات تأثير كبير على القادة والجنود الذين سمعوه جميعاً. فشعروا باندفاع جديد، وساد جوّ ملحمي على طول الأسوار. وشعر الجميع أن هذه الليلة ستبقى موضوع حديثٍ يدوم ما دامت الحياة. سيكون هناك الكثير ليُقال حول هذه الليلة طالما كتبت الأقلام.

وفيما كان كل منهم يتّجه إلى موقع مهمته منتظراً النهاية التي سيكتبها له القدر، انتبهوا إلى أن الإمبراطور محقّ في ما قاله. فقد فعلوا ما بوسعهم. فجأة، انهمر مطر غزير، وحدثت هزة خفيفة، وزادت فرقة المهتران قوة عزفها فيما كانت أصوات الأناشيد والأدعية ترتفع من الكنائس نحو السماء. كان الطرفان يعرفان جيداً أنهما في نقطة انتهاء الكلام، وعدم العودة.

الفصل التاسع
الفتح

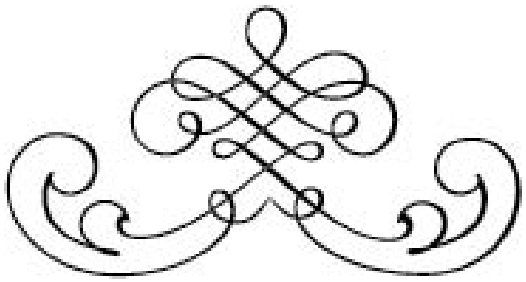

I

{... وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ... }

آل عمران 134

29 أيار 1453

كسر هدير فرقة المهتران صمت الليلة الرطبة الممتد إلى ما لانهاية. ارتعش المدافعون المرابضون على السور لدى سماعهم دويّ الطبول الكبيرة والصغيرة والأجراس الإيقاعية التي تجعل الهلع يدبّ في القلوب وتخدر الأذهان. كانت الطبول الصغيرة تُضرب بإيقاع بطيء أولاً، ثم تتبعها الطبول الكبيرة الموضوعة على ظهور الجمال الصماء، فيما تفتح الأجراس فجأة طريقاً فضياً إلى الآذان الصاغية. جال المدافعون بنظراتهم القلقة على جيش العدو الغفير المجتمع في الوديان والهضاب الضبابية، وارتاحوا لدى إدراكهم أن ساعات الانتظار المخيفة قد انتهت.

قرابة الساعة الواحدة والنصف ليلاً، أطلقت المدافع بإشارة يد واحدة، وهاجمت السفن الشواطئ لتتخلص من التيارات البحرية؛ مغامرة بالخروج إلى البر. وانتقلت الجيوش البرية إلى الهجوم يتقدمها المدنيون المتطوعون وخلفهم جنود الخدمات. شعر المدافعون عن الأسوار بالاهتزاز الناجم عن ركض آلاف الناس. ونتيجة هذه الاهتزازات فقط انهارت بعض الأنفاق. إثر هذا، اضطر بعض حفاري الأنفاق للمغادرة قبل أن ينهوا عملهم.

كانت الوحدات البيزنطية تعرف أن السد المقعر الذي تمّ إنشاؤه في المسافة الفاصلة بين السورين والبالغة عشرين متراً لن يعمر طويلاً إذا لم يُدافع عنه جيداً. واجه المدافعون البيزنطيون الأتراكَ الذين تجاوزوا الخندق الممتلئ براحة هاجمين على الأسوار بكل ما لديهم من قوة. ومع انهيار جنود خط الهجوم الأول على الأرض، تجاوز جنود خط الهجوم الثاني أولئك الذين سقطوا، وتابعوا التقدم تحت ضوء السهام الملتهبة التي حولت الليل إلى نهار. هجم الأتراك بجنون في محاولة للوصول إلى الأماكن الضعيفة في الجدران نتيجة قصف المدفعية. أمّا حملة السلالم فقد ركضوا تحت مطر قذائف البنادق، ومن سقط منهم حلّ محلّه شخص آخر.

لفّت الليل رائحة احتراق الأجساد بالزيت المفقدة للوعي، والصراخ الذي يجمد الدم في العروق. كان صراخ الناس الفظيع الذي يرافق قرقعة البنادق يشكّل الوجه الحقيقي للحرب. إذ ثمة آلام فظيعة يعاني منها الجسد في نهاية حكايات الغضب والبطولة كلها، وتسبب اضطراباً جسدياً، ولها قوة تأثير نفسية منهكة.

أبطأ الدفاع القوي الخطوط الخلفية عن التقدم للحظة. وعلى الرغم من هذا، تمكّنت المدفعية من إيقاع الضرر بالسدود. خلف صفوف الهجوم، كان هناك رقباء إنكشاريون يحملون السياط ويرغمون المهاجمين على التقدم، وخلفهم تتقدّم فرق الموت من الإنكشاريين أيضاً، ومهمة هؤلاء تأديب من يحاول التراجع أو يبدي تردداً قد يؤدي إلى انهيار معنويات الآخرين، أو قتله عند الضرورة.

وكان المهاجمون يُفضّلون أن يحظوا بشرف تسلق الجدران على أن يوصموا بالعار من جرّاء محاولتهم التراجع ومواجهتهم الإنكشاريين القساة. استمرت معركة الإنهاك التي خاضها المدنيون المتطوعون مقدّمين فيها الكثير من الضحايا باعتبارهم قوة يمكن استهلاكها حوالى ساعتين. لم يكفِ هجوم هؤلاء الذين ماتوا جميعاً تقريباً أو أصيبوا إصابات بليغة وشكلوا كابوساً مزعجاً للعدو لتجاوز الجدران، ولكنهم أفقدوا المدافعين قوّتهم إلى درجة كبيرة، وجعلوهم يلجأون إلى إشراك قوات الاحتياط في القتال منذ بداية المعركة. كانت تلك خطوة يجب عدم الإقدام عليها إن لم تكن هناك ضرورة، ولكن لم يكن هناك حل أمام سقوط أعداد كبيرة منهم تدريجيًّا.

أدرك الإمبراطور أن الدفاع لن يستمر طويلاً. ولا بد أن جيوستنياني أيضاً فكّر في ذلك . ولكن كلاًّ منهما نجح في إخفاء ذلك عن الآخر.

قرابة الساعة الثالثة والنصف من بعد منتصف الليل، أمر محمد خان جيش الأناضول بالهجوم بعد أن تمّ القضاء على المحاربين المدنيين في المنطقة الأساسية الواقعة بين هاغيوس رومانوس وخاريسيوس، من دون أن يفسح المجال للمدافعين لالتقاط أنفاسهم. واجه جنود المهام الذين كانوا يجتازون الخندق ركضاً نيراناً شديدة أيضاً، ولكنهم استمروا بالهجوم بحزم أخاف العدو. كان من الصعب جداً أن يُصابوا بالسهام أو الحجارة التي تُقذف بواسطة المقاليع. عبروا الخندق بتقنية لم يُر مثيل لها حتى ذلك اليوم، وهرعوا نحو الجدار راسمين خطاً متعرّجاً؛ وبهذا غدوا هدفاً يصعب على العدو جداً أن يصيبه. نجحوا في الوصول إلى أسفل الجدار حاملين تروساً مدورة عريضة الحواف، ولكنهم قدموا الكثير من الضحايا عندما حاولوا نصب السلالم الملقية على الأرض حول السدود، والتي تبدو سهلة التسلق حتى بالأيدي العارية.

وبشكل متزامن، هجم الأسطول من الخليج ومرمرة وحاول إنزال الجنود بمحاذاة الجدار. وكان مضطراً لخوض قتال مع السفن البيزنطية المندسة قرب الجنـزير في ذلك الطرف. وإن كان هجومه لم ينجح كليًّا، فقد نجح

بتجميد المدافعين في أمكنتهم. هاجم الخال قرجا باشا بدعم من زاغانوس باشا الأسوار الضعيفة المؤلفة من جدار واحد، ولكن الإخوة بوتشياردو استمرّوا بدفاعهم العظيم. وحظي الإخوة الضاربة جذورهم في الأسوار كأشجار ضخمة يستحيل اقتلاعها بإعجاب أعدائهم أيضاً.

أما خليل باشا فقد أصدر أمره بأن يخوض الأسطول صراعاً قوياً في مرمرة، وأن يُخرج السفن إلى البر، ثم يهاجم الجدران. ولكن هذه الخطة فشلت في تحقيق هدفها، وتسببت بخسارة سفينة والكثير من العناصر؛ مما أشعر السلطان بالغضب. رفع هذا التطور معنويات البيزنطيين، ولعب دوراً مهمًّا بزعزعة معنويات البحارة الأتراك.

وكان الباشوان محمود وإسحاق قد حققا نجاحاً جزئياً في المنطقة الواقعة بين مرمرة وهاغيوس رومانوس، ولكن لم يكن من الممكن المحافظة على هذا الوضع نتيجة الدفاع القويّ الذي قام به عدد قليل من المدافعين. كان الطرفان يذوبان عددياً، ولكن التفوق العددي للعثمانيين جعل آمالهم بالنصر أكبر مقارنة مع خصومهم.

نتيجة نفاد البارود والزيت المغلي بدأ المدافعون عند منطقة إسحاق باشا باستخدام الحجارة والرماح والسيوف في الدفاع. وتمّت رؤية النبيل الإسباني دون فرانسيسكو وهو يسير تحت مطر قذائف البنادق والسهام خلف أبراج هذه المنطقة من دون أن يبدوَ عليه القلق؛ رافعاً معنويات جنوده. برأي إسحاق باشا، تصرّف الإمبراطور بذكاء حين جلب عدداً قليلاً من الرجال كل منهم يفوق الآخر مهارة في الحرب، بدلاً من أن يبقى مضطراً للاعتماد على أعداد كبيرة من الصليبيين المفتقرين للتجربة والانضباط؛ فهذا هو السبب الوحيد الذي مكّنهم من المقاومة لمدة أربعة وخمسين يوماً.

مرّت الساعات، وأوشكت الشمس على الشروق، فبدأ قلق محمد خان يزداد. إذ إنّ عدم تحقيق الهجوم المستمر من دون توقف في نهاية ساعته الرابعة أي تقدم أكيد في أي من المواقع أمرٌ مزعج فعلاً. أمر أحد آغوات الإنكشاريين: "اذهب إلى أستاذي آق شمس الدين فوراً، وأخبره أن المدينة لم تسقط بعد. فليرسل لي خبراً عن موعد سقوطها، وليحدِّد لي الساعة إذا أمكن".

امتطى الإنكشاري حصانه، وذهب إلى موقع الجيش، وعندما عاد بعد قليل، أبلغ السلطان أن آق شمس الدين يراقب ما يجري ويوصيه بالصبر. اصطكّت أسنان محمد خان فيما كان يحاول إخفاء شعوره بالخجل من احتمال أن يكون قد أساء احترام أستاذه. إثر هذا، أبلغ الإنكشاريين -

ورقته الأخيرة - بأن يستعدوا للهجوم. وهذه المرة ستشارك وحدات الحرس الخاص البالغ عددها خمسة آلاف رجل في القتال. سيطر الفرح والدهشة على الجنود. فقد اشتهرت هذه الوحدات بقوتها القتالية التي حوّلتها إلى أسطورة، وباستمرارها بالقتال حتى النهاية من دون كلل أو ملل.

صد البيزنطيون هجوم جنود المهام وفرسان الجيش النظامي، وفهموا من إطلاق أبواق الحرب والتجمع في الخلف أنهم سيواجهون قوة كبيرة جداً من الإنكشارية من دون الحصول على فرصة للراحة.

رافق محمد خان الجنود حتى صاروا بالقرب من الأسوار وهو يبث فيهم الجرأة ويرشدهم. تقدم محاربو العصور الوسطى الأسطوريون بدروعهم الأخّاذة المصنوعة من الحلقات ذات لوحات الصدر المعدنية حاملين التروس والسيوف الثقيلة وكأنها ألعاب أطفال.

كان هناك جنديّ مميّز يقف في المقدّمة بين وحدات الهجوم؛ إنه علي حيدر تشانقري، فهو ليس مثل الإنكشاريين. وكان وقوفه في الصفوف الأمامية امتيازاً منحه إياه تشاندارلي الذي أوصله إليه نوري المجنون، وهذا الامتياز أكبر شرف حصل عليه في حياته.

استطاع علي أن يغدو نموذجاً إيجابياً للآخرين بمعنوياته المرتفعة، وعينيه المحملقتين، وجسمه المرتجف غضباً وقلقاً؛ على الرغم من شعوره أن رجليه قد سحبت منهما القوة تماماً. كان عليه أن يحارب باسم دم الريّس مصطفى وإسماعيل. أي إنه يجب أن يحارب باسم السلطان الذي رآه فوق رأسه، وبالكرامة التي حصل عليها من خلال هذا التميز، وأن يمنح سيف الإنكشاري الذي يحمله حقه.

وهكذا، دفع محمد قواته كلها إلى المشاركة في الحرب، ما عدا وحدة فرسان حراسته الخاصة المؤلفة من مئة شخص، والتي ظلت ملتفّة حوله. كان ينظر من دون أن يتكلم نهائياً، ويبدو صابراً ومتيقناً من تحقيقه النصر قريباً، فيما بدا وجهه أبيض شاحباً.

اجتمع الإنكشاريون أمام صدع هاغيوس رومانوس من دون أن يتخلّوا عن هدوئهم. وانتقلوا إلى حالة الهجوم بانضباط كامل كما تدربوا، من دون أن يعيروا نيران المدافع والطلقات النارية التي تمطر فوقهم أي اهتمام. بدأ رماة السهام ومطلقو النار من البنادق في الصفوف الأمامية بهجوم مؤثر إلى درجة أن المشاة المتخذين مواقعهم في الخلف عندما شنوا هجومهم أدهشوا المدافعين الذين كانوا يكمنون لهم خلف الأسوار والمتاريس، فاضطروا للتراجع خائفين.

مُنيتِ الموجة الأولى من هجوم الإنكشاريين ذوي الخبرة والقوة الكبيرتين بالفشل بفضل جرأة الجنرال جيوستنياني التي لا تتزعزع، وعدم تركه موقعه في الصفوف الأمامية. ولكن، لم يبدِ المهاجمون أي تردد، وغدت تلك اللحظة الحد الفاصل.

كان جيوستنياني قائداً خبيراً وقوياً، ويشكّل عمود الدفاع بالنسبة إلى البيزنطيين. فجأةً، رآه رجاله وهو يترنح كالسكارى، وكانت دروعه مثقوبة في عدة أماكن، ولم يكن قادراً على رفع ذراعه اليسرى سوى إلى مستوى كتفه، وما زال رأس السهم المكسور مغروزاً في أعلى عضلة فخذه. أمّا السهم الذي حزّ رقبته فقط جعل وجهه يتضرّج بالدماء. وعندما أراد الإمبراطور الذي لم تكن حالته مختلفة عنه أن يدعم رفاق السلاح، تسببت الطلقة التي خرجت من فوهة بندقية وتحولت إلى عدة شظايا بعد اصطدامها بمكان ما بإصابة جذعه؛ تحت الإبط، كما تسبّبت بإصابتين خفيفتين في الطرف الأيمن من صدره. لم ينهر جيوستنياني أمام نظرات رجاله المفعمة بالدهشة، وهجم على الإنكشاريين وهم على وشك تجاوز المتراس.

لم يدع الإمبراطور والجنود الذين يقاتلون معه في هذا الموقع الهجوم من دون رد، بل واجهوه واضعين أرواحهم على أكفهم. كان الإنكشاريون يتسلقون ويقاتلون في الوقت نفسه بمهارة مدهشة. ولكن، لم يكن من الممكن أن يستمروا على هذه الحال إلى النهاية. إذ كانت أجساد الذين يتمكنون من الوصول إلى الأعلى عبر السلالم أو عبر التمسك بنتوءات السد تُمزّق بواسطة الرماح الطويلة أو السيوف، وكانوا أحياناً يفقدون توازنهم في أثناء التسلق بسبب الصخور التي ترمى عليهم؛ فيتدحرجون إلى الأسفل. وتمكن جيوستنياني من رؤية الإنكشاريين وهم ينهضون مجدداً نتيجة عدم تعرّضهم لإصابات بليغة، ويعاودون التسلق. وسمع الأوامر التي راحت تمطر يميناً ويساراً. ولكن قوات الإمبراطور الاحتياطية تمكنت من محاصرة

الإنكشاريين الذين نجحوا بتجاوز المتاريس، والنـزول إلى داخل السور، وبدأت بضربهم هناك.

* * *

حين رأى محمد أن المدينة لا تزال صامدة، وقد أوقعت خسائر كبيرة في الصفوف الأولى مما أجبر الإنكشاريين على التراجع سيطر عليه غضب فظيع، وصرخ بأحد الفرسان المجاورين له: "اذهب، وأخبر أستاذي أن المدينة لا تزال تقاوم، وليبلغني بساعة الفتح بالضبط...".

عندما عاد الفارس كانت وحدات المهام المنسحبة قد تحركت بالهجوم على الأسوار مجدّداً برفقة قائدها المعيّن حديثاً. انكسر اندفاعهم، ولكنهم تحمسوا مجدّداً عندما رأوا سلطانهم فوق رؤوسهم.

كان السلطان يقول: "انظروا يا شجعاني، انظروا... لدينا جنود على الأسوار".

كان السلطان ومن يقفون إلى جواره يشيرون إلى نواحي قصر بلاخرنائي.

وفعلاً، كانت الأخبار التي وصلتهم تشير إلى بدء انهيار دفاع الإخوة بوتشياردو. ويقال إن الإيطاليين يخوضون صراعاً قوياً من أجل حماية راية سان ماركو، ولكن يبدو أنهم لن يستطيعوا الاستمرار طويلاً. كان الفرسان الذين جلبوا الخبر يطلقون صيحات النصر، وبعضهم يبكي.

صرخ محمد على النحو التالي: "إنهم يخسرون يا أسودي. بدأ العدو بالانهيار، ابذلوا بعض الجهد... بدأ الانهيار على محور قصر بلاخرنائي... وبعد قليل سينتقل إلى هذه الجهة أيضاً... هيا يا أسودي.. هيا يا شجعاني...".

* * *

كان جيوستنياني يقول: "يجب أن أجد جراحاً، لا أستطيع التنفس وأنا على هذه الحال. يجب أن أجد جرّاحاً ليخرج الشظية من صدري، ثم سأعود فوراً". وصمت عندما كح، والتفت جانباً، وبصق القليل من الدم.

قال الإمبراطور بنبرة توسّل: "ليس الآن يا جيوستنياني. انظر إلى هؤلاء الرجال، إنهم يتمسكون بمواقعهم بالجرأة التي تمنحهم إياها أنت فقط، وليس أنا. إذا تركتهم الآن فلن أستطيع ضبطهم".

"تستطيع ضبطهم يا صاحب الجلالة. يستطيع لوكاس نوتاراس الذي يشعر بالغيرة مني منذ أشهر ضبطهم... ثم إنكم قادرون على تدبّر أموركم من دوني مدّة ساعة فقط".

ضحك الإمبراطور بصعوبة: "هل قلت نوتاراس؟ لم أره في الساعتين الأخيرتين...".

"استخدمت قوتي كلها يا صاحب الجلالة، ولم أعد أستطيع الوقوف على

رجلي أكثر وأنا في هذه الحال. أحتاج إلى طبيب جرّاح، وجراحي هو الأفضل".
توسل إليه الإمبراطور مجدّداً: "في هذه الحال، ابقَ حتى نبطئ هجوم الإنكشاريين يا جنرال".
قال جيوستنياني وهو يدلّك كتفه: "لقد تمّ إبطاء هجومهم أصلاً. الخطر الأساسي الآن يكمن في الوحدات التركية المشتتة التي تجتمع في الخلف. يستطيع رجالي إلهاء المهاجمين ريثما أعود. وسأترك مساعدي غاليمبرتي معكم. إنه جندي خبير وموثوق".
"ماذا لو لم ينجحوا؟".
نظر الجنرال إلى الإمبراطور وتعبير الإنهاك والانكسار واضح على وجهه: "هل تشكّون بي يا صاحب الجلالة؟ ألم أضع روحي على كفي وأحارب معكم حتى الآن؟ هل يمكن أن تفكر بأنني لن أعود؟ ألم تعرفني جيّداً بعد؟".
قال الإمبراطور وهو يمسح العرق المتصبب على وجهه الدامي بيديه القذرتين: "هذا ليس وقتاً مناسباً لكي يسيء أحدنا فهم الآخر يا جنرال. وبما أن ذهابك ضروري، اذهب".
قال الجنرال: "سأعود". وتمدد على نقالة صنعها له رجاله.
وفي أثناء حمله نحو الباب السري المؤدي إلى الخليج، رأى نظرات الإمبراطور اليائسة المسلطة عليه. لن تفارقه تلك النظرات حتى نهاية عمره.
فور مغادرة جيوستنياني مكانه، بدأ الانهيار في ذلك الموقع الذي وضع فيه البيزنطيون أقوى دفاعاتهم بسرعة كبيرة غير متوقعة. فقد أصابت رصاصة غاليمبرتي في رقبته فانهار ثم فارق الحياة، وكأنّه كان بانتظار مغادرة قائده. كما سئم معظم الجنود الجنويين الانحصار في هذه الحرب التي لم تعد تهمهم بشيء، وتبعوا جيوستنياني الذي كان فاقداً وعيه تقريباً، وتسللوا من الممر السري عائدين إلى سفينتهم.
حين صحا الجنرال ذات لحظة بلغه خبر انهيار الدفاع في منطقة الميناء أيضاً، ووجد أمامه الأخوين أنطونيو وترولیو. إذ إن باولو الذي أُصيب إصابة بليغة رفض الاستسلام، وضحّى بنفسه ليتيح لأخويه الأصغر سناً فرصة الهرب. وحسب ادعاء أنطونيو، شنّ الطليان هجوماً سرياً على القوات العثمانية عند باب كريكو بورتا (جنباز خانة) الاستراتيجي قرب بلاخرنائي، وأوقعوهم بين نارين، وأجبروهم على التراجع، غير أن الباب تُرك مفتوحاً سهواً مع الأسف، فانتبه العدو إلى هذا مصادفة وشنّ هجوماً مفاجئاً على برج الدفاع، وأنزل بهم خسائر فادحة.

لكن الحقيقة مختلفة. إذ إنّ إصابة باولو المفاجئة جعلت الأخوين بوتشياردو يدركان عدم جدوى القتال الذي سيقدّمان فيه روحيهما، لذا غادرا موقعهما وحمّلا المدنيين البيزنطيين مسؤولية الدفاع. صحيح أن باولو حاول قيادة الآخرين وهو مصاب، ولفظ أنفاسه الأخيرة هناك. ولكن، لم يكن من الممكن إنقاذ الوضع بالاعتماد على مدنيين ليست لديهم أي تجربة بالقتال وعلى رأسهم جندي جريح. غادر الأخوان الباقيان على قيد الحياة المنطقة بسرعة، وبعد ذلك سقطت الأبراج خلال فترة قصيرة.

التفت جيوستنياني إلى رجاله وقال: "أطلقوا بوق الانسحاب. فليتّجه الجميع إلى السفن".

وهكذا، انتهى الأمر، وأظلمت الدنيا في عينيه عندما فكر بما يمكن أن يحل بالمقاطعة البندقية بعد الحرب. وحين أغمض عينيه، تراءى له وجه قسطنطين المهموم، فبدأ يبكي.

صرخ حسن الألوباطي: "هل أنت بجانبي يا علي؟".

انتبه الإنكشاري الشاب إلى بدء ظهور ضعف في الدفاع، فأخذ إذناً من قائد الفصيل، واندس مع مجموعة مؤلفة من ثلاثين شخصاً أسفل السور. ونتيجة إطلاق النار والهجوم المتبادل المستمر نجحوا بأن يجعلوا أنفسهم منسيين. ومع ازدياد ضعف الدفاع، صاح الشاب الذي ضبط الوقت بحساسية ذئب: "الآن!".

فأجابه علي حيدر: "أنا بجانبك يا أخي".

قفز أفراد تلك المجموعة إلى الجدران. انهارت على رؤوسهم أشياء كثيرة إلى درجة أن هدفهم الوحيد صار وضع أقدامهم على الدرجة الأخرى من السلالم.

صرخ الألوباطي مجدّداً: "هذه هي فرصتنا يا أخي علي، لا تهتم بما يلقونه على رؤوسنا، فقد تراجع دفاعهم تماماً الآن. صدقني، لن تسنح لنا فرصة أفضل من هذه".

شعر علي بألم فظيع في فخذه اليسرى. وحين أحنى رأسه لينظر إليها وجد سهماً مغروزاً فيها. الجانب السيئ في الأمر أنه فقد الإحساس برجله اليسرى فوراً، واضطر للمتابعة بعينيه للتأكد ممّا إذا كان قد داس على الدرجة التالية أم لا.

نادى: "لقد أصبت يا حسن!".

ضحك حسن وقال: "مبارك يا علي".

لم يستطع علي إلا أن يعجب بمواقف هذا الشاب ذي الأعصاب الباردة، الذي يبدو عليه أنه يلهو.

"اصبر قليلاً يا علي. إن تابعنا الصعود الآن فسننجح في الوصول، وإلا فإن الرجال سيتجمعون مجدّداً ولن نتمكن عندها من الصعود".

لم يكن حسن غير محق. فقد بدأ الإيطاليون القلائل والبيزنطيون الذين حملوا غالبية ثقل الدفاع على عاتقهم بالتجمّع، وبدأوا بالحصار مجدّداً. كان هذا الموقع الذي تركه جيوستنياني قبل قليل هو الأخطر؛ فإذا سقط، يمكن أن يقع باب المدينة الرئيس هاغيوس رومانوس بأيدي الأتراك، وينهار الدفاع تماماً.

* * *

أمر السلطان محمد الثاني المراسل بأن يعيد على مسمعيه ما أخبره إياه: "ماذا قلت!؟ أعِد ما قلته؟".

فكرّر الفارس ما قاله: "سلطاني، أرسل لكم أستاذكم حضرة آق شمس الدين البشارة، ويبلغكم أن المدينة قد سقطت".
أدار محمد وجهه نحو الأسوار وتعبير غامض مرتسم على وجهه، ونظر لفترة إلى الفوضى المستمرة هناك. سمع بعض الضباط والباشوات المجاورين له وهم يهمهمون. ولكنه قال لهم: "إذا قال الأستاذ هذا فهو صحيح".
عندما ظهرت أول خيوط الشمس في ذلك الوقت، ظهرت الرايات العثمانية على أبراج المواقع التي وضعوا فيها ثقلهم، أي بين هاغيوس رومانوس وخاريسيوس. كانت تلك اللحظة كالحلم؛ إذ لفّت محيط السلطان في البداية تنهدات غير مقصودة وصيحات استغراب، ثم سُمعت صيحات الفرح التي ملأت العالم كله. حتى إن السلطان نفسه رفع قبضته إلى الأعلى وصرخ: "أخذت بثأر طروادة".
في تلك الأثناء، أوصل المراسلون خبرَ سقوط أسوار بلاخرنائي، فتضاعف الفرح.
* * *
فجأة، شعر حسن أنه وصل إلى الأعلى. ومن دون انتظار، ثبت الراية التي كان يحملها في الشق بين البرجين، وحاول أن يحمي جسمه بواسطة درعه. ولكن، مع الأسف سقط علي الذي كان وراءه تماماً وعلى وشك الوصول إلى الأعلى نحو الخلف نتيجة عدم تمكن ساقه من حمله، والانفعال الذي شعر به في تلك اللحظة. حاول رفاقه الآخرون مساعدته على استعادة توازنه في اللحظة الأخيرة من دون جدوى. سقط الشاب على الموتى الذين تراكمت جثثهم في الأسفل، وفي أثناء محاولته النهوض من جديد، دهش من صيحات النصر التي جعلت الأرض والجبال ترتجف، ثم أكمل نهوضه، وصرخ بقوته كلها أيضاً. كان الجنود الذين وصلوا إلى أعلى السلم يصرخون: "رايتنا ترفرف فوق بلاخرنائي".
غمرت الجنود حماسة مدهشة.
شعر حسن فجأة بأنه قد طُوّق. كان يهدف إلى احتضان الراية بكل قوته، وحمايتها قدر المستطاع، والاستمرار بتحميس من تبقّوا من الجنود. حاول ثمانية رجال نجحوا في الوصول إلى الأعلى والوقوف إلى جانبه مقاومةَ المدافعين عن الأبراج الذين يهاجمونهم. عندها، أخرج علي السهم من فخذه، وتحرك من جديد، وبدأ يصعد الدرج، وإلا فلن يتمكن من القيام بذلك مجدّداً بسبب تدفّق عشرات الآلاف من المهاجمين من الخلف. تسلق هذه المرة بانتباه وسرعة، وعندما وصل إلى الأعلى، وجد أن "حسن" والمجموعة التي تقاتل معه محاصرون ضمن حلقة تضيّق عليهم الخناق.

ويبدو من تعابير الإنهاك المرتسمة على وجوههم أنهم يحاولون الدفاع عن رايتهم بصعوبة. ولكنه ما إن خطا خطوة حتى ترنح بعد تلقيه ضربة قويّة على خوذته. بدأ يلوح بالسيف حتى وهو في تلك الحال، ووضع كل التقنيات والتجارب التي اكتسبها جانباً، وبدأ يهوي بسيفه الذي بدا وكأنه امتداد لذراعه بغضب ووحشية على عدوه.

وإذا كان حسن ورجاله قد تمكنوا من المحافظة على تفوقهم حتى تلك اللحظة، فإن العدو بدأ يستردّ قوته مجدّداً. كان المهاجمون الذين يصعدون السلالم من الخلف بحاجة إلى وقت من أجل الوصول إلى الأعلى بسبب مطر السهام والحجارة التي يقذفون بها. ذات لحظة، رأى علي "حسن" مجدّداً؛ كان جسده مليئاً بالجراح البليغة من جرّاء السهام المنهالة عليه. وعندما رأى المدافعون أنه لم ينهر بعد، بدأوا يضربون رجليه بالسيوف والرماح بغضب شديد، فانهار أخيراً، ولكنه لم يترك الراية. أدرك الإنكشاريون الخطر الجهنمي الذي سيتعرّضون له إن سقطت الراية فخرقوا نقاط الدفاع كافة، وارتموا بقوتهم كلها عليها حين أدركوا أنها ستسقط. وبفضل هذه الحركة استطاع علي التخلص من الحلقة التي كانت تطوقه.

وعلى الرغم من إدراك المدافعين استحالة تحقيقهم هدفهم، هاجموا بمحاولة أخيرة من أجل حماية كرامتهم، وإسقاط الراية مهما كلفهم الثمن. ولكن ذلك لم يُجدهم نفعاً، إذ لم يستطيعوا خرق الجدار اللحمي أمامهم تحت الضغط القوي الذي مارسه الإنكشاريون. وفجأة، ظهر المرض المدعو الانهيار بينهم، فبدأوا بالهرب بسرعة. في هذه الأثناء، تلقى علي ضربة جديدة على رأسه المترنح أصلاً، واسودّ كل شيء أمامه نتيجة لذلك.

تسلّم الإنكشاريون الراية، ووضعوا حارساً بجانبها، وبدأوا بالنـزول إلى المدينة. لفظ الشاب المدعو حسن الألوباطي أنفاسه الأخيرة في ظل الراية التي دافع عنها بروحه، فيما كبّر الجنود الآخرون الذين رأوا وجهه باسماً، وتردّدت صيحات النصر في صفوف الجيش كله.

وبأمر من القائد، حملت مجموعة من الإنكشاريين جثة حسن على نقالة، وأنزلتها إلى الأسفل بعناية. نُقِل حسن الألوباطي الذي وُجِدَ في جسمه سبعة وعشرون ثقبَ سهمٍ، وتحطمت مفاصله تحت ضربات السيوف والرماح إلى محمد الثاني فوراً.

سقط الدفاع قبل مرور خمس ساعات؛ على الرغم من استمراره في بعض المواقع. ولكن الرايات العثمانية ظهرت على الأسوار كلها تقريباً، وفُتِحت جميع الأبواب وفي مقدّمتها باب هاغيوس رومانوس، وتدفّق الجنود إلى المدينة.

لُقِّب محمد خان منذ الساعات الأولى "بالفاتح". وبدأ بتقبّل التهاني من جنوده متململاً؛ إذ كان يرغب في رؤية أستاذه آق شمس الدين بأسرع وقت ممكن. في تلك الأثناء، جلبت مجموعة من الإنكشاريين جثمان الألوباطي إلى حضرته.

وعلى الرغم من اصطفاف الفرسان والمشاة على جانبي الجثمان، وصلوا إلى حضرة السلطان وهم يرفعون التكبيرات. قبّل محمد خان جثمان حسن، والتفت بعينيه اللتين شوهد فيهما لأول مرة لهب أحمر نحو باشواته ووزرائه، وقال هذه الكلمات التي ستدخل التاريخ: "لو لم أكن سلطاناً لأردت أن أكون "حسن" الألوباطي!".

* * *

شوهد الإمبراطور قسطنطين للمرة الأخيرة بين جنوده وأبناء شعبه الذين هربوا نحو أياصوفيا. انقطعت أنفاسه، ولكنه لم يفقد مقاومته وإيمانه. كانت إصابته بليغة، ولعل هذا ما جعله يتذكر كهانة همس بها أحد المنجمين في أذنه قبل فترة.

إذ قيل له إن المدينة ستسقط بيد الأتراك، وسيقتل البيزنطيون إلى أن يصلوا إلى عمود قسطنطين الأكبر. بعد ذلك، سينـزل ملاك من السماء، وسيمدّ السيف الذي يحمله بيده إلى فقير يقف بجانب العمود، ويقول له: "خذ هذا السيف، خذ بثأر المؤمنين بالرب!". إثر هذا، سيبدأ الفقير مع من اجتمعوا حوله بمطاردة الأتراك حتى منطقة مونوديردیرون على الحدود الإيرانية؛ مستعيداً كل المدن التي سيطر العدو عليها.

حسب ما رواه بعض الشهود، قفز الإمبراطور أمام جنوده وأبناء شعبه الهاربين محاولاً إيقافهم وهو يصرخ: "أنا... أنا ذلك الفقير... ليس هناك من هو أفقر مني اليوم...".

ولكنه كان في حالة يرثى لها إلى درجة أن الناس اعتقدوا أنه مجرد مجنون. أخيراً، هجم على الإنكشاريين حاملاً رمحاً التقطه عن الأرض، فقُتل، وضاعت جثته بين آلاف الجثث.

* * *

وفيما كان الفاتح مُنحنياً فوق جثة الألوباطي وهو يدعو له، كان ذلك القلق الذي يخفيه في داخله يطغى على فرحه. وانطلاقاً من تفكيره بأن الجنود سيخربون المدينة بشكل سيئ، ذكّر قادته بالأمر الذي أصدره سابقاً: "الأسوار والأبنية لي، ولا ينبغي أن تتضرّر أبداً!".

ولكن ألسنة اللهب كانت قد بدأت تتصاعد من المدينة.

عندما صحا علي بعد فترة طويلة، شعر بأن رأسه على وشك الانفجار. كانت الشمس قد ارتفعت منذ زمن، وغمرت بحر الجثث التي تفوح منها روائح كريهة ويحوم فوقها الذباب. نهض ببطء، فلاحظ أن ساقه اليسرى قد تورّمت كثيراً؛ إلى درجة أن جزمته وجرابه صارا يضغطان عليها بشكل سيئ جداً. أدرك علي أنه إن لم ينظف الجرح بسرعة ويضمده فسيلتهب، وقد يُصاب بالغرغرينا.

في ما بعد، سمع الأناشيد التي تعزفها فرقة المهتران، ورأى عدة أشخاص يقتربون منه ويساعدونه على النهوض. في تلك الأثناء، تحدث معهم بأشياء لم يستطع أن يتذكرها لاحقاً. كل ما تذكره هو أن الرجال أشاروا نحو جهة ما، وعندما مد جسده ونظر من فوق الأسوار، رأى السلطان ممتطياً حصاناً أبيض ويدخل المدينة برفقة الوزراء والباشوات وقادة الجيش والشيوخ وعلماء الدين جميعاً. كان ذلك مشهداً رائعاً؛ وكأنه حلم. ولكي يتأكد من أنه حقيقي وواقعي هزّ رأسه إلى الجانبين بقوة، وضغط بساقه المصابة على الأرض بقوة. وحين شعر بالألم أدرك أنه مستيقظ. أي إن هذا كله يجري فعلاً وليس من صنع خياله.

ستُذكَر في كتب التاريخ حكايةُ تقديم الفتيات البيزنطيات الأزهار لأستاذك آق شمس الدين ظنًّا منهنّ أنه أنت، وردُّك على كلام السادة والباشوات الذين أشاروا إليك قائلين إنك السلطان بالقول: "أنا السلطان، ولكنه أستاذي، قدمن الأزهار له". كنت تأمل أن تُفهم القيمة التي تمنحها للعلم والعلماء، وأن تربط ألسنة الذين يقولون عنك إنك بربري. ولكنك تعرف أن هناك من سيبحث عن سوء نية خلف كلماتك هذه التي قلتها من دون تفكير، وتضحك لمعرفتك أن المؤرخين الأوروبيين سيكتبون عنك باعتبارك أفظع الطغاة في العالم. ماذا يمكنك أن تفعل؟ أنت تعرف أن موقفك في هذه الأيام أكبر إرث ستتركه للمستقبل.

تشعر بالشفقة على المساكين الساجدين على طول طريقك المؤدي إلى أياصوفيا، وتنظر إليهم محاولاً ألاّ تلتقي نظراتك بنظراتهم. لم تعرف مصير الإمبراطور، ولكن الله أعلم بالانقباض الذي شعرت به في قلبك عندما علمت أن الأمير أورخان حاول الهرب من المدينة متنكراً بزيّ شماس، ثم ألقى بنفسه عن الأسوار منتحراً حين أدرك أنه لن ينجح في مسعاه.

ها هي أياصوفيا أمامك... وها أنت تقف أمام هذا المعبد الذي يأسر الأنظار مفكِّراً بأن تقيم أول صلاة جمعة في هذه التحفة المعمارية التي طلبت تحويلها إلى جامع لتكون رمزاً للفتح، وبأن تعلن أن المدينة بيت عرشك الجديد. ولكن، ماذا ستقول لأولئك المساكين المجتمعين في الداخل، الذين يتضرّعون إلى الله لكي يحميهم من غضبك؟ كيف ستحمي أبناء هذه المدينة من بطش الجنود الذين يمتلكون حق سلب المدينة على مدى ثلاثة أيام؟ ركع الجميع أمامك آملين برحمتك. عليك أن تقول شيئاً...

"انهضوا. أنا السلطان محمد خان أطلب منكم جميعاً ألاّ تخافوا على حياتكم أو حرياتكم بدءاً من اليوم".

ولكن الكلمات المؤثرة الأساسية هي تلك التي قالها بعد أن التفت نحو قادة جيوشه: "احرصوا على تنفيذ أمري بعدم الإساءة للناس. اتخذوا التدابير اللازمة للحؤول دون أي تهاون".

وحال المدينة... يا لها من حال! فقد أوقع الجنود بها الأذى خلال الفترة الممتدة من الصباح وحتى الظهيرة؛ كما لو أن ثلاثة أيام قد مرّت على ذلك. هذه هي النهاية التي كان يخشاها، ولهذا السبب عرض السلام على قسطنطين مرات عديدة. ولكنّ قسطنطين فضّل أن يسلّمه المدينة بعد أن يتمّ تدميرها، وذلك إن لم يتمكن من الاحتفاظ بها. وعلى الرغم من

إعلانك أن الأبنية والأسوار لك، فإن الجنود لن يأخذوا هذا بعين الاعتبار كثيراً.

لم يعد هناك أي فرق بين هذه المدينة وأي مدينة قديمة أخرى؛ إذ هاجم الفقر الشعب قبل أن يهاجمه جيشك. لم تستطع هذه المدينة العودة إلى ما كانت عليه في تاريخها العريق بعد عملية السلب التي تعرّضت لها على أيدي اللاتينيين عام 1204. انظر إلى الجنود، إنهم غير مهتمين بجولتك في المدينة. إما أن تنهي هذا التوتر، أو لن تكون قادراً على القيام بأي شيء. أي شيء...

* * *

بعد أن تمّت معالجة ساق علي حيدر، دخل المدينة مع مجموعة من جنود المهام، ومن بينهم خيري البيلجكي وحسين الإزميتي. كان البيلجكي وحسين سليمين، باستثناء بعض الخدوش والجروح غير المهمة. كانت المدينة تتعرض للسلب، وشاهد علي مناظر لم يودّ رؤيتها فيما كان يتوغّل ومن معه في أعماق المدينة على أمل إيجاد ذهب وفضة ومجوهرات.

وعلى الرغم من الأمر الذي أصدره السلطان بعدم إيذاء الشعب، إلاّ أن الجنود قمعوا السكان بتصرفاتهم القاسية. وقبل مرور زمن طويل، أخبرتهم مجموعة من الضباط الإنكشاريين أن السلطان سينهي عمليات السلب في منتصف الليل. وإذا كان الآخرون قد حاولوا الاعتراض على هذا الأمر، فإن "علي" شعر بالارتياح. فإذا استمر هذا النوع من السلب ثلاثة أيام، بالإضافة إلى خراب المدينة، لا بد من أن يتعرّض الناس إلى ظلم كبير. يجب أن يكون محمد خان قد فكّر في هذا. ذكّر الضباط الإنكشاريون الجنود بأنه سيتم إعدام من لا يلتزم بهذا القرار. وبالإضافة إلى ذلك، أخبروهم أن هناك احتفالات ستقام لمدة ثلاثة أيام بعد أداء صلاة الجمعة.

لحق علي رفاقه متكئاً على عكازيه من أجل استغلال بقية اليوم. وفيما كان يسير، راحت أزقة العاصمة الجديدة تهمس له بأسرارها القديمة منذ عصور. جاب دهاليز القصور ذات الأعمدة المرصعة التي يرجع تاريخها إلى ألف عام مضت. وغمرته الرعشة داخل الكنائس ذات الأقواس المرتفعة والتي تفوح فيها رائحة الغبار والعفن. ظنّ علي كسائر رفاقه أنه إن أنزل دلواً فارغاً داخل إحدى الآبار الداخلية المنتشرة في الحدائق المعتنى بها فستخرج مليئة بالمجوهرات. وشعر بالكدر لدى رؤيته غرف البيوت المهجورة، ولكنه لم يستطع منع نفسه من البحث عن الغنائم؛ متمادياً في ذلك إلى درجة تكسير البلاط. وحاول حفر الجدران بسيفه القصير في محاولة للعثور

على الذهب الذي قد يكون مخبوءاً بين الحجارة. دخل المقابر بفضول، وفتح توابيتَ حجرية عمرها قرون، وكسر شواهد قبور، ثم ولج إلى أقبية الكنائس... كسر صناديقَ قديمة جداً، وبحث عن كهوف سرية خلف المكتبات، ومزّق صفحات كتب ورقعاً جلدية خُبئت بعناية منذ قرون، ودسها في زناره. خرج إلى الساحات، وانضم إلى مجموعة كانت تحطّم تماثيل صمدت عصوراً، حتى إنه شارك في تحطيم بلاط الأرصفة، ولكنه لم يجد إلا القليل جداً مما كان يأمل بالعثور عليه؛ تماماً كالآخرين. وعندما عاد إلى معسكر الجيش لم يكن الألم الذي يشعر به في رجله المصابة أشد من ألم ضميره.

يوم الأربعاء المصادف في الثلاثين من أيار، جمع السلطان محمد الفاتح وجهاء المدينة الباقين على قيد الحياة، وأبلغهم أنه أصدر عفواً عن غالبيتهم، وأنهم أصبحوا أحراراً. أما قراره الأول فقد أرسله إلى حاكم غلاطة أنجيلو لومينيللو الذي لم يحرم البيزنطيين طوال الحرب من مساعداته سراً وعلناً. إذ أمره بهدم الأسوار وأبراج الدفاع كلها باستثناء تلك التي من جهة البحر، وبردم الخندق الخارجي، وتسليم الأسلحة كلها بما في ذلك المدافع. وكلّف زاغانوس باشا بمتابعة تنفيذ هذا القرار.

أُعدِم ممثِّل مقاطعة البندقية مينوتّو الذي تولّى مسؤولية الدفاع عن المدينة بالدرجة الأولى مع عدد كبير من الوجهاء البندقيين، وسُجِن المدافعون الآخرون عن المدينة من الأجانب ليطلق سراحهم لاحقاً مقابل فدية.

فكّر السلطان بداية بتعيين لوكاس نوتاراس الدوق الأكبر وصاحب العبارة الشهيرة: "أفضّل رؤية لفة تركي على رؤية قبعة كاردينال في المدينة" والياً عاماً على المدينة. وبهذا سيُظهر للمواطنين أنّه سيحافظ على بنية المدينة التعددية. كان حلم الفاتح ببلد تعيش فيه مجموعات متنوعة القوميات بحريّة على وشك أن يتحقّق.

ولكن، عندما حاول لوكاس نوتاراس أن يُقدّم للسلطان الكنـز الكبير الذي كان يخبئه في بيته على صوانٍ ذهبية، غيّر السلطان رأيه وقال له بحدة: "اعتقدت أنك أنفقت هذه المجوهرات في سبيل بلدك، وكنت على وشك أن أهنّئك. ولكنّ الكنوز غير المنفقة في سبيل البلد هي أساساً من حق سيفي".

وهكذا، سقط نوتاراس، وانسحب من مسرح التاريخ.

* * *

شعر خليل باشا تشاندارلي بعد الفتح أن نهايته وشيكة، ولا سيما بعد إشاحة الفاتح بوجهه عنه، ولكن لم يكن بإمكانه القيام بأي شيء للحؤول دون ذلك. وفيما كانت الشمس البراقة الدافئة تنير المدينة في 31 أيار، حاصر الإنكشاريون خيمته. طلب مقابلة السلطان للمرة الأخيرة، ولكن طلبه لم يتحقق. فقد وضع في إحدى الزنزانات، وأُبقِي هناك إلى أن تمّ إعدامه في أدرنة في 19 تموز. في الأيام الأولى، وُضِع خليل الكبير في إحدى الزنزات، وتمّت معاملته بما يتناسب مع مكانته كصدر أعظم سابق. لم يُصدِّق أنه سيعدم حتى اللحظة الأخيرة، لأنه لم يسبق أن أُعدِم رئيس وزراء من قبل. وبالإضافة إلى ذلك، بقيت عائلته في السلطة على مدى مئة وأربعة

وخمسين عاماً ما عدا فواصل قصيرة.
عندما قال له الجلاد قبل إعدامه: "هذه عاقبة من ينظر إلى وجه السلطان بعين وقحة". تمكن من الرد عليه قائلاً: "ليفرح زاغانوس، ستكون يداي على خناقه في الآخرة".
في الحقيقة، تمكّن زاغانوس باشا خلال فترة سجنه البالغة شهراً ونصف الشهر من نشر إشاعات تقول إن "خليل" ومن حوله من السادة الأتراك خونة، وجر الباشوات والسادة الأتراك الذين كانوا في مراكز مهمّة إلى نهاية مشابهة. صودرت أملاك تشاندارلي وأمواله البالغة مئة وعشرين ألف دوقا. وهكذا، بدأ عصر جديد أسس فيه أولئك الأشخاص الذين حوّلوا دينهم سلطتهم في الدولة العثمانية.
يوم الجمعة الواقع في 1 حزيران نصبت مئذنة خشبية على يمين أياصوفيا التي تمّ تحويلها إلى جامع، وأقيمت فيها أول صلاة جمعة. بعد الصلاة، أعلن الفاتح أن بيت العرش سيذكر باسم إسلامبول. وبالإضافة إلى ذلك، أصدر أمره بالعمل على جعل المدينة مركزاً اقتصادياً وسياسياً وثقافياً. وحسب متطلبات السياسة الدقيقة، وافق على إعادة فتح بطريركية الروم، واستمر بتقديم الدعم لها لتظلّ الممثلة الوحيدة للعالم الأرثوذكسي. ووافق على انتخاب جيورجيوس شولاريوس غينياديوس المعروف بمعارضته لوحدة الكنيستين بطركاً؛ وكان هذا جزءاً من سياسته القوية. وبالإضافة إلى ذلك، أمر بتأسيس بطريركية أرمنية وحاخامية يهودية، واضعاً أساس المدينة التي تُحترم فيها كل الديانات.
وبعد أن عين السلطان محمد الفاتح قائدَ موقع بورصة العسكري قائداً لموقع اسطنبول، وخضر تشلبي قاضياً لاسطنبول تحرك مع حاشيته في 2 حزيران عام 1453 إلى أدرنة.

كان انتقال اسطنبول إلى أيدي الأتراك خبراً متوقعاً بالنسبة للأوروبيين، ولكنه على الرغم من ذلك ولّد في النفوس حزناً عميقاً. وتلخص الرسالة التي كتبها إمبراطور روما المقدسة الجرماني فريدريك الثالث للبابا نيكولاس الخامس الشعور المشترك وردود الفعل. وقد جاء فيها:

"صاحب القداسة، سيدنا البابا نيكولاس الخامس،

يحكم محمد الثاني بيننا منذ زمن طويل. والسيف العثماني مسلط فوق رؤوسنا منذ فترة طويلة. البحر الأسود مغلق أمام أساطيلنا منذ أمد. وبالإضافة إلى هذا، رومانيا تخضع لحكم العثمانيين. من هناك سيسيطرون على المجر ثم على ألمانيا. ولكننا نحن المسيحيين مستمرّون بنهش بعضنا وبالاختلاف حول أمور متنوعة. كم سيكون جيداً لو توحدت جيوشنا لتقف في وجه العثمانيين. لا أستطيع الادعاء أن مكانة هذه المهمة المقدسة في قلبي أكبر من مكانتها في قلبكم المقدس.

إمبراطور روما المقدسة الجرماني فريدريك الثالث".

يعتبر بعض المؤرخين أن فتح اسطنبول قد أغلق العصور الوسطى، وفتح العصر الجديد. ولعلّ السبب الأهم لاعتقادهم هذا يكمن في تأثيره على حركة النهضة. فبعد الفتح، أخذ الكثير من المفكرين والعلماء والفنانين البيزنطيين معهم مخطوطات لا تقدر بثمن، وهاجروا إلى إيطاليا. أدى هذا الوضع إلى نشر الثقافة اليونانية الكلاسيكية في أوروبا؛ مما أدى إلى إطلاق عصر النهضة. بالإضافة إلى ذلك، إن سقوط المضايق كلها بيد الأتراك يعني إغلاق طرق البهارات والحرير التي تحمل أهمية حياتية كبيرة بالنسبة إلى الأوروبيين. وسرّع الوضع الاكتشافات الجغرافية. وهكذا، تم وضع أساس البنية التي شكلت النواة السياسية والاقتصادية لأوروبا اليوم.

* * *

بفضل الفتح اكتسب العثمانيون مكانة أدت إلى تأسيس الوحدة التركية الأناضولية على ألا يحصل انقسام مجدداً. وفتح اسطنبول لم يعط العثمانيين الزعامة على أتراك الأناضول فقط، بل زعامة الأمة الإسلامية كلها.

حاول العالم المسيحي على مدى ثلاثة عصور إخراج الإسلام من غرب آسيا عبر الحملات الصليبية. وبعد فتح اسطنبول تقبل العالم المسيحي سيطرة الإسلام على الأناضول، ولم يعد يفكّر في تشكيل جيش صليبي من أجل تحرير هذه الأرض. يجب التأكيد على أن فتح اسطنبول كان بداية لتفوق المسلمين الذي استمرّ عصوراً، والذي لا يحتمل النقاش. يا لسعادة الذين

حملوا روح تلك الأيام في قلوبهم كشعلة لا تنطفئ، ونقلوها إلى أجيال المستقبل...